قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الرابع

١٣

تونس   بيروت

الكتاب الثاني

الحضارة الإسلامية

٥٦٩ — ١٢٥٨

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية الواردة

فى الكتاب الثانى

---

٥٧٠ — ٦٣٢ : محمد (صلى الله عليه وسلم)

٦١٠ : الوحى .

٦٢٢ : هجرة النبى إلى المدينة .

٦٣٠ : فتح مكة .

٦٣٢ — ٦٣٤ : خلافة أبى بكر .

٦٣٤ — ٦٤٤ : خلافة عمر بن الخطاب .

٦٣٥ : استيلاء المسلمين على دمشق .

٦٣٧ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس والمدائن .

٦٤١ : فتح بلاد الفرس ومصر

٦٤١ : إنشاء الفسطاط .

٦٤٢ : إنشاء مسجد عمرو فى الفسطاط .

٦٤٤ — ٦٥٦ : خلافة عثمان بن عفان .

٦٥٦ — ٦٦٠ : خلافة على بن أبى طالب

٦٦٠ — ٦٨٠ : خلافة معاوية بن أبى سفيان .

٦٦٠ — ٧٥٠ : الخلافة الأموية فى دمشق .

٦٦٢ : استعمال الأرقام الهندية فى الشام .

٦٨٠ : مقتل الحسين فى كربلاء

٦٨٠ — ٦٨٣ : خلافة يزيد الأول .

٦٨٧ — ٦٨٤ : خلافة معاوية الثانى .

٦٨٥ — ٧٠٥ : خلافة عبد الملك ابن مروان .

٦٩١ — ٦٩٤ : بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى بيت المقدس

٦٩٣ — ٨٦٢ : حكم المسلمين فى أرمينية

٦٩٨ : استيلاء المسلمين على قرطاجنة .

٧٠٥ — ٧١٥ : خلافة الوليد الأول .

٧٠٥ وما بعدها — بناء الجامع العظيم فى دمشق

٧١١ : دخول المسلمين أسپانيا

٧١٥ — ٧١٧ : خلافة سليمان الأول .

٧١٧ — ٧٢٠ : خلافة عمر بن عبد العزيز

٧٢٠ — ٧٢٤ : خلافة يزيد الثانى .

٧٢٤ — ٧٤٣ : خلافة هشام بن عبد الملك .

٧٣١ : واقعة تور وارتداد المسلمين .

٧٤٣ — ٧٤٤ : خلافة الوليد الثانى .

٧٥٠ : أبو العباس السفاح يؤسس الدولة العباسية

٧٥٤ — ٧٧٥ : خلافة المنصور واتخاذ بغداد عاصمة .

٧٥٥ — ٧٨٨ : عبد الرحمن الأول أمير قرطبة .

٧٥٧ — ٨٤٧ : فلاسفة المعتزلة .

٧٦٠ : نشأة الطائفة الإسماعيلية

٧٧٥ — ٧٨٦ : خلافة المهدى .

٧٨٦ : الجامع الأزرق فى قرطبة

٧٨٦ — ٨٠٩ : خلافة هرون الرشيد .
٧٨٩ — ٩٧٤ : قيام أسرة الأدارسة في فاس .
٨٠٣ : نكبة البرامكة .
٨٠٣ وما بعدها : الكندى الفيلسوف .
٨٠٨ — ٩٠٩ : بنو الأغلب في القيروان
٨٠٩ — ٨١٠ : استيلاء المسلمين على ورسقة وسردانية .
٨٠٩ — ٨٧٧ : حنين بن إسحق العالم .
٨١٣ — ٨٣٣ : خلافة المأمون .
٨٢٠ — ٨٧٢ : بنو طاهر في فارس .
٨٢٢ — ٨٥٢ : عبد الرحمن الثاني أمير قرطبة .
٨٢٧ وما بعدها : استيلاء المسلمين على صقلية .
٨٣٠ : إنشاء بيت الحكمة في بغداد .
٨٣٠ : وضع الخوارزمي علم الجبر
٨٤٤ — ٩٢٦ : الرازي ، الطبيب .
٨٤٦ : هجوم المسلمين على رومة .
٨٧٠ — ٩٥٠ : الفارابي ، الفيلسوف .
٨٧٢ — ٩٠٣ : الصفاريون في فارس .
٨٧٣ — ٩٣٥ : الأشعري الفقية .
٨٧٨ : بناء مسجد ابن طولون في القطائع
٩٠٩ وما بعدها : الخلافة الفاطمية في القيروان .
٩١٢ — ٩٦١ : عبد الرحمن خليفة في قرطبة .
٩١٥ وما بعدها : الطبرى المؤرخ .
٩١٥ — ٩٦٥ : المتنبى الشاعر .

٩٣٤ — ١٠٢٠ : الفردوسى الشاعر .
٩٤٠ — ٩٩٨ : أبو الوفا العالم الرياضى .
٩٤٥ — ١٠٥٨ : سيادة بنى بويه على بغداد .
٩٥١ : وفاة المسعودى الجغرافى .
٩٥٢ — ٩٧٧ : أشوط الثالث : عصر أرمينية الذهبى
٩٩٠ — ١٠٢٠ : كاجيك الأول في العصور الوسطى .
٩٦١ — ٩٧٦ : خلافة الحكم في قرطبة .
٩٦٥ — ١٠٣٩ : ابن الهيثم العالم في الطبيعة .
٩٦٧ — ١٠٤٩ : أبو سعيد الشاعر الصوفى .
٩٩٩ — ١١٧١ : الأسرة الفاطمية في مصر .
٩٧٠ : بناء الجامع الأزهر في القاهرة .
٩٧٣ — ١٠٤٨ : البيرونى ، العالم .
٩٧٣ — ١٠٥٨ : المعرى ، الشاعر .
٩٧٦ — ١٠١٠ : خلافة هشام في قرطبة .
٩٧٨ — ١٠٠٢ : المنصور الوزير في قرطبة .
٩٨٠ — ١٠٣٧ : ابن سينا الفيلسوف
٩٨٣ وما بعدها : إخوان الصفا .
٩٩٠ — ١٠١٢ : بناء جامع الحاكم في القاهرة .
٩٩٨ — ١٠٣٠ : السلطان محمود الغزنوى .
١٠١٢ : ثورة البربر في قرطبة
١٠١٧ — ١٠٩٢ : الوزير نظام الملك
١٠٣١ : خاتمة الخلافة في قرطبة

وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين : وإن ذمة الله واحدة ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(*) :

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود فى المدينة وما حولها : قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع :

وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفى أهلها من الطعام : وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد : ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينــة ، متبعاً فى ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية فى ذلك الوقت(**) : فلما كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم ، واحتفظ بالخمس الباقى للأعمال الدينية والخيرية ، وكان نصيب من استشهد فى هذه الغزوات من حق أرملته ، أما هو فكان جزاؤه الجنة . وكثرت الغزوات ، وتضاعف عدد المشتركين فيها ، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم ، فأخذوا يدبرون أمر الانتقام من محمد والمسلمين : وكان من هذه الغارات واحدة حدثت فى آخر يوم من شهر رجب أحد

(*) هذا عهد له أثره الكبير ومظهره العظيم ، ولم يعقده الرسول مع اليهود فحسب بل هو كما يذكر ابن إسحق كتاب كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار وفيه وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وقد ذكره ابن هشام فى سيرته على طوله . (ى)

(**) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارة بالمدينة عملا يراد به الدفاع عن الإسلام واسترداد لبعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها . (ى)

الأشهر الحرم التى كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال ، وقتل فيها رجل ، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء ، وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم . وفى عام ٦٢٣ جمع محمد نفسه ثلثمائة من المسلمين المسلحين ، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة . وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهذه الخطة ، فغير طريقه ، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة ، وبعثت قريش بتسعمائة من رجالها ، والتقى الجيشان الصغيران عند وادى بدر على بعد عشرين ميلا جنوبى المدينة . ولو أن محمداً هزم فى هذه الغزوة لقضى عليه وعلى الإسلام فى هذه المعركة ، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام ، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٦٢٤) ، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين فى مكة ، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ، ونجا أبو سفيان ، وأنذر المسلمين بالانتقام .

ولما عاد إلى مكة أخذ يواسى أسر القتلى ويشجعهم ، ويطلب عدم البكاء عليهم ورثائهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ، ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد .

واشتد ساعد محمد بهذا النصر ، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة فى الحروب . من ذلك أن شاعرة تدعى عصماء هاجمته فى شعرها فتسلل عمير ، وهو مسلم ضرير إلى بيتها وطعنها وهى نائمة بسيفه فى صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذ السيف من تحتها إلى فراشها . وفى اليوم التالى سأل محمد عميراً هل قتل عصماء فأجابه يا رسول الله إنى قد قتلتها ، فقال «نصرت الله ورسوله ياعمير» ، فقال عمير : «هل على شىء من شأنها يارسول الله ؟» فأجابه بقوله إن هذا أمر «لا ينتطح فيه عنزان» . ومنها أن رجلا ممن اعتنقوا الدين اليهودى يدعى أبا عفك يناهز من العمر مائة عام هجا النبى فقتله بعضهم وهو نائم فى فناء بيته ، وارتد شاعر ثالث

من أهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف ، وكانت أمه يهودية ، حين انقلب محمد على اليهود ، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثأروا لهزيمتهم ، وأثار غضب المسلمين بتشبيبه بنسائهم ، فقال النبي « من لى بابن الأشرف ؟ » فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملقى أمام قدميه . وكان المسلمون يرون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هى إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الخونة ، فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام(*) .

ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية ، والذى بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس ، وقوله إنه هو الذى بشر به آباؤهم ، وكان جوابه أن قال ، كما أوحى إليه ، إنهم حرفوا كتابهم ، وقتلوا أنبياءهم ، وأبوا أن يصدقوا المسيح . وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة ، فاستبدل به فى عام ٦٢٤ مكة والكعبة ، واتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان(**) . وحدث فى هذا الوقت أن زارت فتاة مسلمة سوق بنى قينقاع اليهودى فى المدينة ، وبينا هى جالسة

(*) هى عصماء بنت مروان وقاتلها عمير بن عدى الخطمى . ولكل حادثة من الحوادث السالفة الذكر ظروف وأسباب تبررها بلا ريب ؛ فهذه عصماء بنت مروان كانت تعيب الإسلام وأهله وتحرض على المسلمين وتؤذيهم أذى شديداً فكان قتلها جزاء ما جنت حقاً واجباً حتمته الضرورة حتى قيل فى شأنها بعد أن قتلت « من يومئذ عز الإسلام وأهله بالمدينة » .

وكعب بن الأشرف لم يكن مسلماً ثم ارتد كما يقول المؤلف ، ولو كان كذلك لكان قتله فرضاً من هذه الناحية ، لأن المرتد يجب قتله إن لم يتب ويرجع عن الكفر ؛ لكنه كان كما أشار المؤلف عدوا لله ولرسوله والمؤمنين ، إذ كان يحرض المشركين على المسلمين ، ويشبب بنسائهم حتى أذاهم أذى شديداً ، وهو مع هذا كان ذا جاه ومسموع الكلمة فى قومه ، فكان لهذا عدواً يخشى عدوانه من وجوه مختلفة ، ولهذا كان قتله أمراً مشروعاً وواجباً دفاعاً عن الدين وأهله ، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وخاصة وقد لقى المسلمون أذى كثيراً من غدر اليهود بالمدينة مقر الإسلام حينئذ ، والعدو الداخلى فى مثل هذه الظروف أشد ضرراً من العدو الخارجى كما هو معروف . (ى)

(**) وفى ذلك نزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » سورة البقرة (الآية ١٤٤)

فى حانوت صائغ إذ شبك يهودى خبيث قميصها من وراء ظهرها فى أعلى ثيابها ، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكت مما لحقها من عار فقتل أحد المسلمين اليهودى الأثيم ، وقتل أخوه اليهودى المسلم ، فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بنى قينقاع فى حيهم خمسة عشر يوما ، حتى استسلموا ، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وكان عددهم فى ذلك الوقت نحو سبعمائة .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبى سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملا قبل أن يقدم على قتال محمد . وفى أوائل عام ٦٢٥ سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة ، وصحب الجيش خمسة عشر من النساء بينهن زوجات أبى سفيان ليثرن حماسة الجند بأغانيهن الحزينة ودعوتهن إياهم إلى الانتقام » .

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف ، وهزم المسلمون فى هذه الغزوة ، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة ، وأصيب بعدة جروح وحمل من الميدان . وقتل فى المعركة حمزة عم النبى ومضغت كبده هند أشهر زوجات أبى سفيان ، وكان أبوها ، وعمها ، وأخوها قد قتلوا جميعا فى غزوة بدر ، وكان حمزة نفسه هو الذى قتل أباها ، ثم لم تكتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور . وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات ، وعاد منتصراً إلى مكة(*) . وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شفى النبى واستطاع أن يهاجم بنى النضير ، لأنهم أعانوا قريشا على

(*) الذى تذكره كتب السيرة « أن قريشاً خرجوا معهم بالظعن (أى نسائهم) التماساً للحفيظة وألا يفروا » (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٧) ثم ذكر ابن هشام بعد هذا بعض من خرجن من الناس فلم يصل بهن إلى عشر ومن بينهن زوجة أبى سفيان لا زوجاته وهى هند بنت عتبة ، كذلك يقول ابن هشام إن الرسول تهيأ للقتال فى سبعمائة رجل فقط (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩) : (ى)

المسلمين وكانوا يأتمرون به ليقتلوه : وبعد أن حاصرهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير . واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية ، فكان بعضها له ، ووزع ما بقى منها على المهاجرين(*) . لقد كان محمد يرى أنه فى حرب مع أهل مكة ، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه .

وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين فى عام ٦٢٦ بجيش يبلغ ١٠٠٠٠ رجل يساعدهم يهود بنى قريظة مساعدة جدية . ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة فى الميدان ، ففضل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها . وحاصرتها قريش عشرين يوما ، حتى فت فى عضدهم المطر والعواصف ، فعادوا إلى أوطانهم ، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بنى قريظة ، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت .

وكان النبى فى ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد ، فقد جهز فى العشر السنين التى قضاها فى المدينة خمساً وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها ، ولكنه كان إلى هذا سياسيا محنكا ، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم ، وكان يشارك المهاجرين فى الحنين إلى بيوتهم وأسرهم فى مكة ، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً فى الحنين إلى زيارة الكعبة ، التى كانت فى صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم .

(*) هاجم الرسول بنى النضير ولما يمض على يوم أحد أكثر من خمسة أشهر لأن يوم أحد كان فى منتصف شوال سنة ثلاث من الهجرة وأمر بنى النضير كان فى ربيع الأول سنة أربع . وقد أذن لهم النبى أن يأخذوا معهم من أموالهم ما استطاعت الإبل أن تحمله ، إلا السلاح كما يذكر ابن هشام .

وأما تقسيم الفىء فقد اتبع فيه النبى قول الله عز وجل : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ويقول ابن هشام (ج ٢ ص ١٧٨) عن أموال بنى النضير إن الرسول قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا رجلين من هؤلاء ذكرا فقرا فأعطاهما أيضا . (ى)

وفى عام ٦٢٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح ، ويتعهد لهم بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدى شعائر الحج فى موسمه . وأجاب زعماء قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضى قبله عام كامل من السلم ، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه(*) ، ووقع الطرفان شروط هدنة تدوم عشر سنين ، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر فى مساكنهم الواقعة فى الشمال الشرقى من المدينة على مسيرة ستة أيام منها ، ودافع اليهود عن أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع ، وسقط منهم فى أثناء ذلك ثلاثة وتسعون رجلا ، ثم سلم الباقون آخر الأمر ، وسمح لهم بالبقاء فى أماكنهم يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم المستقبلة إلى الفاتحين : ولم يمس أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عمه فقد قطع رأساهما لأنهما أخفيا بعض ما يمتلكان ، وضمت صفية وهى فتاة يهودية فى السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة(**) ، إلى نساء النبى .

(*) وقد عبر عمر بن الخطاب عن هذه الدهشة إذ أتى رسول الله فقال له : يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى . وحقاً لم يضيع الله رسوله فقد أمنت الدعوة الإسلامية وأخذت رسل الرسول تذهب بها آمنة للملوك ورؤساء العشائر ، ثم كان بعد ذلك الفتح المبين بعد قليل من الزمان . (ى)

(**) كان سبب سير الرسول إلى خيبر أن أهلها كانوا شديدى العداوة للمسلمين يتربصون بهم الدوائر فكان من الحزم إبعادهم . وكان أمر النبى بقتل كنانة بن الربيع بسبب أنه كان عنده مال لبنى النضير وجحده حين سئل عنه ، والمسلمون فى أشد الحاجة إلى المال للاستعداد للحرب ، ثم إن الرسول دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة أى أنه قتله قصاصا بأخيه ، وهذا سبب آخر يجعل قتله أمراً مشروعاً . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٤ .

أما مسألة استيلاء المسلمين على نصف محصولات أهل خيبر المستقبلة فترجع إلى أنهم هم أنفسهم طلبوا إلى الرسول أن يعطيهم الأرض مزارعة على النصف مما تنتجه فصالحهم الرسول على ذلك لأنهم كما قالوا هم أنفسهم أعلم بها وأعمر لها . (ى)

وفى عام ٦٢٩ دخل مسلمو المدينة ، البالغ عددهم ألفين ، مكة مسالمين ، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين ، وطاف محمد وأتباعه فى أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات . ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال ، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون « لا إله إلا الله » . وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم ووطنيتهم ، وتقواهم أعظم الأثر فى نفوس أهل مكة ، فأسلم من قريش عدد من ذوى المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمرو اللذين صارا فيما بعد من أعظم قواد المسلمين . وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبى أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه فى القتال ؛ ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة .

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان ، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة (٦٣٠)(*) ، فجمع النبى عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة ، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة . وكان جواب محمد جوابا كريما . فقد أعلن عفوا عاما عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه ، وحطم الأصنام التى كانت فى داخل الكعبة وحولها ، ولكنه ترك الحجر الأسود فى مكانه وأجاز تقبيله . ونادى بمكة مدينة الإسلام المقدسة ، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر ، وامتنعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة ، وأصبح الرجل المضطهد الذى هاجر من مكة منذ ثمان سنين صاحب الكلمة العليا فى حياتها .

(*) نقضت قريش الهدنة إذ ساعدت [بالسلاح بنى بكر — وكانوا قد دخلوا فى عهد قريش — على بنى خزاعة الذين دخلوا فى عهد الرسول . بل إن نفرا من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة فى صفوف بنى بكر ، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد ، فكان لا بد من الاستعداد للمسير إلى مكة لفتحها . (ى)

الفصل الرابع

انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته فى المدينة ، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها ، بعد فتن قليلة الشأن ، إلى سلطانه ودخلت فى دين الإسلام . وجاء إلى المدينة كعب بن زهير ، أعظم شعراء العرب فى ذلك الوقت ، وكان قد هجا النبي بعض قصائده ، وأسلم نفسه إليه ، واعتنق الإسلام ، فعفا عنه النبي ؛ وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء فى مديح النبي أجازه عليها ببردته(*) ، وعاهد النبي المسيحيين فى بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحرارا فى ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هينة ، ولكنه نهاهم عن الربا ؛ ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم ، وملك الفرس وإلى أمير الحيرة وبنى غسان ، يدعوهم إلى الدين الجديد ، ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله(**) ، وكان يشهد بعين المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارها بين فارس وبيزنطية وما جرته على الدولتين من خراب ؛ ولكن يبدو أنه لم يفكر قط فى توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب(+) ؛

(*) وبيعت بعدئذ لمعاوية بأربعين ألف درهم ، ولا يزال الأتراك يحتفظون بها إلى اليوم وتتخذ فى بعض الأحيان علما قومياً . (ى)

(**) من هؤلاء من رد رداً قبيحاً مثل كسرى ، ومنهم من رد رداً جميلا مثل قيصر ، ومنهم من وعد بالنظر فى الأمر مثل « المقوقس » حاكم مصر والمنذر صاحب البحرين وجبلة ابن الأيهم الغسانى . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠ . (ى)

(+) لعل المؤلف يريد بقوله إن النبى لم يفكر فى توسيع حدود الدولة الجديدة خارج حدود بلاد العرب أنه لم يكن يريد ضمها إلى الدولة الناشئة الجديدة وهذا لا ينفى أنه أراد أن يدعو أهلها إلى الدخول فى دين الإسلام . (المترجم)

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله ، فقد كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة فى شئون التشريع والقضاء ، والتنظيم المدنى ، والدينى ، والحزبى . وحتى التقويم نفسه قد عنى بتنظيمه لأتباعه ، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثنى عشر شهراً قمريا ، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكى تتفق مع السنة الشمسية . فأمر النبى أن تكون السنة الإسلامية اثنى عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوما أو تسعة وعشرون على التوالى ، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيما بعد غير متفقة مع فصول السنة ، وأن تقدم التقويم الإسلامى سنة كاملة عن التقويم الجريجورى كل اثنتين وثلاثين سنة .

ولم يكن النبى مشرعا علميا ، فلم يضع لأمته كتابا فى القانون أو موجزاً فيه ، ولم يسر فى تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف . فإذا أدى هذا إلى شىء من التناقض أزاله بوحى جديد ينسخ القديم ويجعله كأن لم يكن (*) ، وحتى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض فى بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله . وكان اضطراره إلى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشئون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعاته

(*) من الصحيح أن الرسول لم يضع كتابا فى القانون ، ولكن ليس صحيحا أنه لم يسر فى تشريعه على نظام مقرر ، فإن القرآن بنصوصه وروحه العامة قد حدد أصول التشريع بصفة عامة ، ثم كان الرسول بسنته مبينا لهـذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى فى سورة النحل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . أما النسخ فسببه أن التشريعات الواردة فى القرآن الكريم لم تنزل من الله دفعة واحدة ، بل كانت رحمة من الله تنزل متدرجة تبعاً للحالات ، فيكون من الطبيعى أن يحصل فيها نسخ . على أن هذا كان فى حالات قليلة معدودة . (ى) .

تصطبغ بالصبغة الدينية الرهبية(*) . ومع اضطلاع النبى بهذه الشئون كلها فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف بأن ثمة أمورا لا يعرفها ، ويحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان يجرى عليه ما يجرى على الناس جميعاً من موت ووقوع فى الخطأ .

ولم يدع فى يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات ، لكنه مع هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحى فى الأغراض البشرية والشخصية ، كما حدث حين إنزل الوحى مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه(**) . وتزوج النبى بعشر نساء وكانت له اثنتان من السرارى هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين ، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين فى العصر القديم وفى بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات ، فى نظر هؤلاء الساميين ، ضرورة حيوية تكاد تكون واجبا أخلاقيا : وكان تعدد الزوجات فى نظر النبى أمراً عادياً مسلماً به لا غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغى به إشباع الشهوة الجنسية ، ويروى عن عائشة حديث عن النبى مشكوك فى صحته يقول فيه « حبب إلىّ من

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل من أن المؤلف وأمثاله من غير المسلمين يرون أن القرآن من قول النبى لا من عند الله . أما وهو من عند الله حقاً فإن النبى لم يُفصِح بشىء من ناحية القرآن وأسلوبه ، ولكن الأسلوب يختلف بلا شك فى مواضع عنه فى أخرى تبعاً للغاية التى يريدها الله ، وإن كان جميعه فى أعلى درجات البـلاغة التى لا يمكن أن يتطلع أحد إلى مدانأتها . (ى)

(**) إن لتشريع تعدد الزوجات غاية أخرى حكيمة ترجع إلى أن يكون المرء بمنجاة من الاتصال بخليلات غير قليلات بجانب الزوجة الشرعية . ولقد تبين لبعض الغربيين اليوم أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج الوحيد لمشكلة زيادة النساء على الرجال زيادة كبرى بسبب الحروب ، فقد طالب أهل مدينة « بون » عاصمة ألمانيا الغربية أن يتضمن دستورهم تشريعاً يبيح هذا التعدد .

أما الزوجات اللاتى عقد عليهن النبىّ فكن ثلاث عشرة وقد دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل باثنتين . وقد عنى رجال السيرة بذكر سبب زواج كل واحدة منهن وبذكر شىء من سيرتهن جميعاً رضوان الله عليهن . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٨ . (ى)

دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عينى فى الصلاة »(*) ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتى توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه ، وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذى أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبى سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم . وربما كان الدافع إلى بعضها أمله فى أن يكون له ولد ، وهو أمل حرم منه زمناً طويلا . وكانت زوجاته كلهن ما عدا خديجة عقيمات ، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه ، ولم يبق من أبنائه الذين رزقهم من خديجة إلا فاطمة . وقد رزق من مارية القبطية التى أهداها إليه نجاشى الحبشة ، بولد اغتبط النبى بمولده أشد الاغتباط ، ولكن إبراهيم مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده .

وكثيرا ما ضايقه نساؤه بمنازعتهن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ، ولكنه أبى أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة ، ووعدهن بالجنة ، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضى ليلة عند كل واحدة منهن ، ذلك أن سيد بلاد العرب كلها لم يكن يملك بيتاً خاصاً له ، غير أن عائشة قد استأثرت بأكبر من حقها من عنايته(**) ، فغضبت لذلك زوجاته الأخريات حتى نزلت الآية : « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم ، وكان الله عليما حليما » .

وكانت حياة النبى فيما عدا النساء والسلطان غاية فى البساطة ، فقد كانت

(*) تكلم فى شأن هذا كثير من رجال الحديث . « راجع كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » للمحدث إسماعيل بن محمد العجلونى .

(**) لقد كان الرسول يعدل بين زوجاته جميعاً فيما يملك ، أما ميل القلب فشىء لا يملكه ومن المعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يفضل السيدة عائشة عن سائر نسائه ما عدا السيدة خديجة . (ى)

المساكن التى أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدما ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد النخل ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة ، وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض الدار ، ويحلب عنزة البيت فى فنائه ، ويبتاع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده ، ويلعق أصابعه بعد كل وجبة ، وكان طعامه الأساسى التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف فى بعض الأحيان .

ولم يتعاط الخمر التى حرمها هو على غيره ، وكان لطيفاً مع العظماء ، بشوشاً فى أوجه الضعفاء ، عظيما مهيباً أمام المتعاظمين المتكبرين ، متسامحاً مع أعوانه ، يشترك فى تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شىء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنانه من القيام به لنفسه . ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من الفىء وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل . وكان يخص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال ، لكنه كان ككل الناس يعنى بمظهره الشخصى ويقضى فى تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ، ويصبغ شعره ، ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله » ، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطيق الروائح الكريهة ، ولا صلصلة الأجراس ، أو الأصوات العالية « واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وكان قلقاً عصبى المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ؛ وكان حلو الفكاهة فقد

قال مرة لأبى هريرة ، وكان يتردد عليه كثيراً : « يا أبا هريرة زرغباً تزدد حباً » . وكان محاربا صارما لا يرحم عدواً(*) ، وقاضيا عادلا فى وسعه أن يقسو ويغدر ، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد . وقد قضى على كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد ، أو ربط بعير الميت عند قبره . وكان أصدقاؤه يحبونه حبا يقرب من العبادة ، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره بعد قصه ، أو الماء الذى يغسل به يديه ، لاعتقادهم أن فى هذه الفضلات شفاء لهم من ضعفهم أو مرضهم .

وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب(**) ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره . وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم فى اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة . وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته فى ظلام الليل ، ويزور القبور ، ويطلب المغفرة للأموات(†) ، ويدعو الله لهم جهرة ، ويهنئهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والستين من عمره اشتدت عليه هذه الحميات ، وحدث فى إحدى الليالى أن شكت عائشة الصداع ، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها ألا تفضل أن تموت هى قبله ، فتحظى بأن يدفنها رسول الله ، فأجابته بحديثها المعهود ، أنه حين يعود من دفنها سيأتى بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت ، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه ،

(*) كان النبى رحيماً بالناس جميعاً كما يقول المؤلف ، هذا ولم يكن الرسول شخصى أعداء بل كان هؤلاء أعداء الله وأعداء دينه الذى ارتضاه للناس جميعاً وعملوا ما فى وسعهم لإطفاء نور الله ، فلا جرم أن تكون من الرسول شدة على بعضهم حين يتبين له أنهم مصرو على عدوانهم .

(**) لعله يريد واجبات الحب للمسلمين والحرب للدفاع عنه . (ى)

(†) يشير المؤلف إلى قول الرسول فى أوائل مرضه الذى توفى فيه « إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع (مدافن أهل المدينة) ثم ذهب فعلا واستغفر لهم . (راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦) . (ى)

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يؤم المسلمين للصلاة بدله ، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته . وفى اليوم السابع من شهر يونيه عام ٦٣٢ توفى ورأسه على صدر عائشة :

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به . وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب فى أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها متفرقة كلمتها ، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة : وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم ، ديناً سهلا واضحاً قويا ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع فى جيل واحد أن ينتصر فى مائة معركة ، وفى قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم فى نصف العالم :

الباب التاسع

القرآن

الفصل الأول

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحيين ، من أجزاء جمع بعضها إلى بعض . ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة فى أنه كله نطق به رجل واحد ، ومن أجل هذا فهو بلا ريب لايعادله فى آثاره أى كتاب آخر جاء به رجل واحد . وقد أملى النبى فى أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الأخيرة من حياته ما كان يوحى إليه من آياته(*) ، وكان كل ما يوحى به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود ، أو سعف النخل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعى فى ذلك ترتيب زمنى أو منطقى ، ولم تجمع هذه الآيات كلها فى كتاب واحد فى حياة النبى ، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخلفهم أمر الخليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحى أن يبحث عن آيات القرآن ويجمعها ، فجمع زيد أجزاءه من سعف النخل ، وألواح الحجارة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما تم له ذلك نسخت منه عدة

(*) القرآن كله من عند الله وقد جاء على لسان رجل واحد .

صور . ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء فى تفسير بعضها واختلفت نصوصها(*) فى مدن العالم الإسلامى الآخذ فى الاتساع ، فرأى الخليفة عثمان أن يقضى على هذا الاختلاف ، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قريش أن يراجعوا مخطوط زيد (٦٥١) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة ، وظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقياً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل .

ومن شأن الظروف التى أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدى إلى غرض واضح مفهوم — فهى إما أن تقرر عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانوناً ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلى عمل ، أو تروى قصة ، أو تدعو إلى قتال ، أو تعلن نصراً ، أو تصوغ عهداً ، أو تطلب مالا ، أو تنظم شعيرة دينية ، أو تنص

(*) لم تختلف نصوص القرآن مطلقاً ولكن حصل فى قراءته بعض الاختلاف لأسباب منها الخلو من النقط والشكل المعتاد فى كتابتنا فى هذه الأيام . أما مسألة جمع القرآن فتحتاج إلى شىء من التفصيل الدقيق ، ذلك بأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات ، أولاها ما سنذكره بعد فى تعليقنا على قول المؤلف إن محمداً لم يكن يريد جمعه فى كتاب واحد ، والثانية كانت أيام أبى بكر الصديق بعد أن أشار به عمر بن الخطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه مما كان مكتوباً فيه حتى جمع كله فى صحف حفظته كاملا ، ولا نعرف أنه كتب منه عدة نسخ كما يقول المؤلف ، والثالثة كانت فى أيام عثمان بن عفان وفيها رتبت سوره بعضها فى إثر بعض على حسب ما عرفوه من قبل عن الرسول .

وفى هذه المرة التى كانت فى أيام عثمان كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سوره أربعة : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد قال الخليفة لهؤلاء القرشيين الثلاثة : « إذ اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم » . راجع الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطى ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٨ هـ ج ١ ص ٦١ . (ى)

على مبدإ أخلاقى ، أو تضع نظاماً للتجارة ، أو الصناعة ، أو عمل من الأعمال المالية(*) .

ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها فى كتاب واحد ، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه فى وقت بعينه(**) ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله . وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وهى مرتبة حسب طولها ، لا بحسب نزولها فإن ذلك غير معروف ، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهى بالقصار ، وإذ كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طوالها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب(†) . فالسور المدنية وهى التى يبدأ بها الكتاب

(*) بحث كثيرون من المفسرين مسألة مناسبة الآيات والسور وارتباطها بعضها ببعض ، ومن العلماء من أفرد ذلك بالتأليف مثل برهان الدين البقاعى فى كتاب سماه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » إلا أن كثيراً من المناسبات التى ذكرها لا تخلو من تكلف ولهذا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض » (الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٠٨) :

ونقول نحن إن ورود القرآن على ما هو عليه من الاستطراد أحياناً فى موضوعات مختلفة قد لا يكون بين بعضها والبعض الآخر رباط وثيق ، مما يجعل القارئ يقبل على تلاوته دائماً بشوق وشغف ولا يحس من ذلك أقل ملل أو عدم انسجام ، فهو يتنقل معه فى فنون مختلفة من العلوم والمعارف التى لا يكاد يحصرها العد . (ى)

(**) القرآن كلام الله نزل على نبيه . ومن الحق أنه لم يجمع كله فى مصحف واحد أيام الرسول ، لسبب طبيعى هو أنه كان يتوقع دائماً أن ينزل منه شىء جديد ، إلا أنه قد كتب كله فى عهده صلى الله عليه وسلم وبأمره وإن لم يجمع فى كتاب واحد ولم ترتب سوره . فلما انقضى عهد نزول القرآن بوفاة الرسول جاء حينُ كتابته فى مصحف واحد وهو ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم . (ى)

(†) ترتيب السور فيما بينها وكذلك ترتيب آيات كل سورة أخذ عن الرسول نفسه —

عملية فى أغراضها عادية فى أسلوبها ، أما السور المكية فهى شعرية روحية وبها ينتهى الكتاب . وخليق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته(*) .

وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبى أو أتباعه أو أعدائه ؛ وتلك هى الطريقة التى سار عليها أنبياء بنى إسرائيل ؛ وهى التى نراها فى كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة . وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون أخلاقى يمكن أن يقع فى النفوس وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله . وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسى الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان فى

= ولم يراع فى هـذا الترتيب أن يكون حسب تواريخ النزول ، ولذلك لا يمكن القول إن القرآن تاريخ مقلوب لأن قصار السور أقدم عهداً من طوالها بوجه عام .

على أن مسألة تاريخ نزول القرآن ، سوره وآياته ، مسألة عنى بها العلماء المحققون ، وقد وصلوا من أبحاثهم إلى نتائج لها قيمتها الكبيرة ، وإن لم يتفقوا جميعاً فى هذا على رأى واحد . (راجع مثلا « الإتقان » للسيوطى ج ١ ص ٩ وما بعدها و « مقدمتين فى علوم القرآن » نشرها المستشرق آرثر جفرى وطبعها فى مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م ص ٨ وما بعدها .

(*) لايمكن الحكم على أسلوب القرآن بقراءة ترجمته ، ولهذا لايمكن القول إن أسلوب السور المدنية التى يبدأ بها المصحف أسلوب سهل أو إنه خليق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته . وأصدق من هذا قول المؤلف فى موضع آخر إن لغة القرآن هى اللغة العربية الفصحى وإنه غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التى لاتوائم ذوق الغربيين . وهذا ما يستطاع تبينه من التراجم نفسها فضلا عن لغة القرآن الأصلية .

إن القرآن معجز بأسلوبه وبكل كلمة منه ، ولو كان أسلوب بعض سوره سهلا لما عجز العرب فى عهد الرسول وهم أساطين الكلام والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله أو ببعض آيات منه . إن القرآن بلغته وتعابيره وأسلوبه معجز كل الإعجاز وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف المقامات والأحوال ، وإن كان ذلك كله فى أعلى طبقة من البلاغة تنقطع الرقاب دون الإتيان بشىء قريب منه ؛ وكفى أنه تنزيل من رب العالمين . (ى)

بعض الأحيان عن أقوال النبي أشعيا . وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافى خاصة منتظمة ؛ وفى السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوى لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامى . ولغة القرآن هى اللغة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التى لا توائم ذوق الغربيين . وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب ، فى الأدب النثرى العربى .

الفصل الثانى

العقائد(*)

من بين الأغراض التى يهدف لها الدين أن يكون سبيلا إلى الحكم الأخلاقى ، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذاك حق أو باطل ، وأنى له العلم المحيط بكل شىء والذى يوصله إلى هذه المعرفة ؟ وإنما الذى يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التى أدت إلى قيام هذا الدين ، وإلى أى حد أفلح فى تحويل الوحوش إلى آدميين ، والهمج إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة ، وعقول مطمئنة هادئة ، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية ، وما هو أثره فى التاريخ ؟

وترى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقى مسيطر على شئونه — أى الإيمان بأنه مهما يكن فى هذا الكون من شر ، فإن عقلا خيراً ، يعجز الناس عن إدراك كنهه ، يسيِّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة . والأديان الثلاثة التى أعانت على تكوين عقلية الناس فى العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هى الله الواحد ذو الجلال . غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر فى ثلاثة أقانيم مختلفة ، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركا مقنعاً ، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة . وفى القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هى السورة الثانية عشرة بعد المائة :

(*) سنذكر فى هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية لنوضح بها بعض آيات القرآن . ولن يفوتنا أن نشير فى المتن أحياناً ، وفى الهامش على الدوام ، أنهـا أحاديث وليست آيات قرآنية . (المؤلف)

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مئذنة كل يوم ، فالله هو أصل الحياة ومنشؤها ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض . « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (سورة الحج الآية ٥) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقضباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » (سورة عبس الآيات ٢٤ — ٣٠) . . . « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (سورة الأنعام الآية ٩٩) .

والله أيضاً إله القوة « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها . . . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . . . « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات » (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة) . ويقول فى آية الكرسى الشهيرة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (سورة البقرة الآية ٢٥٥) .

والله مع سلطانه وعدله رحيم أبدا ، فكل سورة من سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ومع أن النبى لا يفتأ يذكر الناس بأهوال النار ، فإنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية .

والله كما يصفه القرآن يحيط علما بكل شىء ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (سورة ق ١٦)) .

والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضى ، وإذن فكل الأشياء سابقة فى

علمه ، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله ، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر . فالله يعلم منذ الأزل منذا الذى ينجو من العذاب وهو الذى « يضل من يشاء ويهــدى من يشاء » (سورة فاطر ٨) « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » (سورة الإنسان ٣١) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين « إنا جعلنا فى قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا » (سورة الكهف ٥٧) ، وما من شك فى أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان . . . . غير أنه مع ذلك قول عنيف فى أى دين ، ولكن محمداً يؤكده بنفس القوة التى يؤكد بها القديس أوغسطين أمثاله . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (سورة السجدة ١٣) . وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة فى التفكير الإسلامى(*)، وقد استعان بها النبى وغيره من الزعماء لبث الشجاعة فى قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر . وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجنان ثابت ، ولكنها أيضا كانت من الأسباب التى عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم فى القرون المتأخرة .

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان . فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يحصون أعمال البشر الطيب منها والخبيث . والجان مخلوقون من النار ، ويختلفون عن الملائكة فى أنهم يأكلون ويشربون ، ويتناكحون ويموتون ، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

(*) إن المسلمين مع إيمانهم بقضاء الله وقدره يعتقدون أن الله شاءت عدالته أن يكون للإنسان من الحرية فى أعماله ما يجعله عدلا مسئولا عنها ، وليست الجبريه مذهب أهل السنة والجماعة ولكنها فئة معروفة من الفرق الإسلامية . (ى)

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم فى تضليل الناس وغوايتهم . وزعيم الجن الأشرار إبليس ، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لآدم فطرده الله من رحمته .

والمحور الذى تدور عليه المبادئ الأخلاقية فى القرآن ، كما هى الحال فى كتاب العهد القديم ، هو خوف العقاب ورجاء الثواب فى الحياة الآخرة ، « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » (سورة الحديد ٢٠) وليس فيها محقق إلا شىء واحد هو الموت . وكان بعض العرب يعتقدون أن كل شىء ينتهى عند الموت ، ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة ، ويقولون « إن هذا إلا أساطير الأولين » (سورة المؤمنون ٨٣) ، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة ٣ — ٤) ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة ، بل إن الموتى سينامون إلى يوم القيامة ، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور . وعلم يوم القيامة عند الله وحده ، ولكنه تسبقه علامات تنبئ به ، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس ، وفسدت أخلاقهم ، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العوان ، وتمنى العقلاء الموت . وستكون آخر النذر ثلاث نفخات فى الصور ، فنى النفخة الأولى تكسف الشمس ، وتهوى النجوم ، وتزول السموات ، وتدك الجبال والمبانى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وتجف مياه البحر أو تتطاير لهبا (سورة طه ١٠٢ وما بعدها) . وفى النفخة الثانية تهلك الخلائق جميعها — الملائكة والجن والبشر — إلا من رحم الله ، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الأجسام من القبور وتتصل بالأرواح ، ويتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التى دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالهم وأفكارهم (*) ،

(*) المعروف فيما يختص بالنفخ فى الصور أنهما نفختان لا ثلاث نفخات ، وبعد النفخة الأولى يهلك كل الخلائق إلا من شاء الله وهم كما يقول الغزالى فى إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٧ =

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه . ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ، ويشفعون لمن آمنوا بهم . ويسير الأخيار والأشرار جميعاً على الصراط — وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف — المعلق فوق الجحيم . فيسقط منه الأشرار والكفرة ، ويجتازه المصلحون آمنين إلى الجنة ، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله(*) . ذلك أن القرآن كبعض العقائد المسيحية يعنى على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب ، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار فى الآخرة (آل عمران الآيات ١ و ٦٣ و ١٣١ وسورة النساء ٥٦ و ١١٥ والأعراف والأنفال ٥٠ والتوبة ٦٣ الخ) . وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات فى كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذى ارتكبه المذنب ، ففيها الحرارة التى تشوى الوجوه ، وفيها الزمهرير ، وحتى من يستحقون أخف العقاب يلبسون أحذية من نار ، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة ٤٠ وما بعدها) ، وربما كان دانتى قد أبصر بعض الرؤى التى وصفها فى ملهاته فى القرآن .

وتختلف صورة الجنة فى القرآن عن صورتها فى ملهاة دانتى فهى فى القرآن واضحة وضوح صورة النار . والجنة هى مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون فى سبيل الله ،

= من طبعة المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٥٦ هـ — جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت الذين يموتون أيضاً بعد حين . ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية التى بها يقوم الموتى للحشر والحساب . راجع قوله تعالى فى سورة الزمر الآية ٦٨ « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » راجع أيضاً كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جـ ٣ ص ٤١٢ باب ما بين النفختين .

(*) يشترط أن يكون العمل الصالح الذى يثاب عليه الإنسان فى الدار الآخرة قائماً على أساس الإيمان الصحيح . (ى)

والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء . ومقر الجنة فى السماء السابعة الفلكية أو ما بعدها ، وهى حديقة واسعة الأكناف تجرى من تحتها الأنهار وتظللها الأشجار الضليلة ، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس وإستبرق ، ويحلون بالجواهر ، ويتكئون على الأرائك ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ؛ ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطئ أغصانها لهم ليملئوا من ثمارها أيديهم . فيها أنهار من لبن ، وعسل ، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة فى الدنيا) فى أكواب وأباريق وكأس من معين لايصدعون عنها ولاينزفون « لا يسمعون فيها لغواً ولاكذابا » (سورة النبأ ٣٥) ، « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . . . كأنهن الياقوت والمرجان » « وكواعب أترابا » . « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ، أجسامهن من المسك مبرأة من نقائص الأجسام البشرية وآثامها . وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات(*) ، ولن تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن ، ولا من نعيم رفاقهن (سورة الدخان) وفى الجنة غير هذه المتعة الجسمية متع أخرى روحية فمن المؤمنين من يتلون القرآن ، وسيتجلى لهم الله جميعاً بوجهه « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » . ترى منذا الذى يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم .

(*) لعل الكاتب قد جاء بعدد الحور فى الجنة من أقوال بعض المؤلفين الأقدمين . ومن الآراء التى لها قيمتها فى هذا المعنى أنه يجب ألا تؤخذ هذه الأوصاف بمعناها الحرفى بل يجب أن نأخذها على أنها تقريب للأذهان لما يستمتع به الصالحون فى الجنة من نعيم روحى . (المترجم)

الفصل الثالث

القرآن والأخــلاق

القانون والأخلاق فى القرآن ، كما هما فى التلمود ، شىء واحد ، فالسلوك الدينى فى كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوى ، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله . والقرآن يشملى قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان ، والتجارة ، والسياسة ، والربا ، والدّين ، والعقود ، والوصايا ، وشئون الصناعة والمال ، والجريمة ، والعقاب ، والحرب والسلم .

ولم يكن محمد يحتقر التجارة ، فقد كان هو نفسه فى صباه تاجراً ، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً ، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة ، وكان فى بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه ، ولغة القرآن غنية بالتشبيهات التجارية ، ففيه وعد بالثراء فى الدنيا للمسلمين الصالحين ، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار . وفى الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأغلى الأسعار ، وحض على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدى للعامل أجره قبل أن يجف عرقه . ويحرم القرآن الربا أخذاً أو إعطاء (سورة البقرة ٢٧٥ وسورة آل عمران ١٣٠) ، ولسنا نجد فى التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء . وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء ٨و٩) ، وقد قبل محمد كما قبل معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما فى وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئه .

كذلك رفع من مقام المرأة فى بلاد العرب ، وإن لم ير عيباً فى خضوعها للرجل ، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ، ويكاد يصف النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التى أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم(*) . وهو يحرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لهن أن يحضرن الصلاة فى المساجد ، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن ، وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتين معهن بأطفالهن . وقد روى عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل فى أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤذى بطولها أمه . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء ٣١) وسوى بين الرجل والمرأة فى الإجراءات القضائية والاستقلال المالى ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف فى مالها كما تشاء (سورة النساء ٤ و ٣٢) ، وقضى على ما اعتاده العرب فى الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع ، وجعل نصيب الأنثى فى الميراث نصف نصيب الذكر ، ومنع زواجهن بغير إرادتهن . وفى القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (سورة الأحزاب ٣٣) ، ولكن الآية إنما تؤكد النهى عن التبرج ، ويروى أن النبى أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن . أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه

(*) ليست الذكورة أو الأنوثة سبباً لدخول الجنة والنار ، إنما يرجع ذلك إلى الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل السيئ . والله يثيب بالجنة من عمل صالحا رجلا كان أو امرأة. وهذا أيضاً شأن العقاب فى الدار الآخرة . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » ، فلم يفرق سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة ، ومثل هذا كثير جداً فى آيات أخرى . ويقول جل شأنه فى سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب . وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات فى أيام النبى وفى القرن الأول بعد الهجرة(*) .

وبعد فإن المناخ من العوامل التى تؤثر فى الأخلاق الفردية ، ولعل حرارة الجو فى بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية والنضج المبكر ، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيما نراه من نزعات الرجال فى هذه الناحية فى البلاد التى يطول فيها فصل الحر — ولقد كانت الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل الزواج(**) ، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج . ولهذا حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور ٣٣) وأوصى النبى بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف . ويشترط الدين الإسلامى رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج . فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى العريس مهر عروسه ، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضى بذلك

(*) ملبس المرأة ، وزينتها ، ونظرها إلى الرجل ، ونظر الرجل إليها ، كل هذا نوع من الحجاب نزلت فيه آيات غير قليلة فى سورة النور وسورة الأحزاب .

والخطاب فى الآيتين اللتين أشار إليهما المؤلف لنساء النبى ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون أيضاً حضاً لنساء المسلمين جميعاً . وقد ورد فى كتاب (أحكام القرآن المطبوع بالمطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ هـ جـ ٣ ص ٤٥٥) . « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً فى النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه فالمعنى عام فيه وفى غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والاقتداء به إلا فيما خصه الله به دون أمته » راجع فى هذا أيضاً أحكام القرآن لابن العربى جـ ٢ ص ١٦٦ وتاريخ التشريع للشيخ الخضرى ص ٨٨ — ٨٩ . (ى)

(**) وحتمه بعد الزواج بطبيعة الحال ، وقوله تعالى « وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » معناه إن على الذين لايجدون الوسيلة المالية للزواج أن يصبروا حتى يرزقهم الله الغنى والقدرة على الزواج . (ى)

ولعل المؤلف يشير بقوله إن الشريعة الإسلامية تزيد الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج إلى إباحة الزواج بغير واحدة ، ولكن لهذه الإباحة أسباباً كثيرة ذكرها المؤلف نفسه فى غير هذا الموضع . (المترجم)

آباء(*) العروسين أو لم يرضوا . وقد أجيز للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة . وعدم الزواج فى الإسلام ، كما هو فى الدين اليهودى ، إثم ، والزواج فيه فريضة محببة إلى الله (سورة النور ٣٢) . وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالية بين الذكور والنساء على السواء ، ولطول فترة النفاس ، وما يحدث فى البلاد الحارة من نقص سريع فى قوة الإخصاب ، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزدن على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد . وحرم الإسلام التسرى (سورة المعارج ٢٩ و ٣١) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقرة ٢٣١)(**) :

وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فمكنه بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسيه إشباعا حلالا حرم الزنى أشد التحريم ، فجعل عقوبة الزانى والزانية مائة جلدة (سورة النور(†)) لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

(*) يشترط الأحناف إجازة الولى فى حال تزويج الصغير والصغيرة وإن كانا عاقلين . والشافعى يحتم وجود الولى فى حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذى يقوم بعقد الزواج (راجع بدائع الصنائع جـ ٢ ص ٣٣ و ٢٤١) .

والزواج لابد فيه من مهر لايشترط أداؤه فعلا ليتم عقد الزواج ، وللزوجين أن يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متعارف (راجع بدائع الصنائع حـ ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨) . (ى)

(**) ليس الإمتناع عن الزواج إثماً فى كل حال بل المعروف فقهاً أن الزواج يكون واجباً إذا تاق الرجل إلى الاتصال بالمرأة ، وفرضاً إن تيقن أنه يقع فى الزنى إن لم يتزوج ، وكان مع هذا مالكا للمهر والنفقة وإلا فلا إثم عليه بترك الزواج . ويكون الزواج مكروها إن خاف ألا يعدل مع الزوجة إن تزوج كما يكون حراماً إن تيقن أنه سيجور ولا يعدل . (راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه جـ ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨) . (ى)

(†) عقوبة الزانى هى الجلد كما يقول الكاتب إن كان غير متزوج ، وإلا كانت العقوبة هى الرجم . (ى)

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود . ونهى القرآن فضلا عن هذا عن رمى المحصنات فقال « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا » (سورة النور ٤) وقد قل الاتهام بالزنى بعد نزول هذه الآية .

وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود . وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة ٢٢٩) ؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحا له فى أيام الجاهلية(*) ، فإن النبي لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » (سورة النساء ٣٥) . ولا يصبح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل(**) ولكى يرغم الزوج على أن يطيل التفكير فى إيمان الطلاق قبل صدورها ، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلقته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طلقت منه . ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته فى المحيض وليس ذلك لأنها « نجسة » فى ذلك الوقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها . والنساء حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن ينجب أبناء ، وينبغى للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه عليها فى الذكاء ، ومن ثم أن تكون

(*) الصحيح فى هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين بالمعروف فإن العشرة إن ساءت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل . (ى)

(**) الطلاق يكون نهائياً ولو كان مرة واحدة ، وانقضت عدة المرأة ، ويكون أيضاً نهائياً بعد الطلقة الثالثة كذلك إلا أنه فى هذه الحال لا يكون للزوج أن يرد إليه مطلقته ثلاثاً إلا بعقد جديد بعد أن تكون قد تزوجت بآخر ودخل بها وانقضت عدتها . (ى)

له عليها القوامة وحق الطاعة ، فإذا عصته كان له أن يهجرها ويضربها (سورة النساء ٣٤) والمرأة التى تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة(*) :

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن ، ورقة قلوبهن ، ومفاتنهن ، شأنهن فى هذا شأن النساء فى العالم كله . وقد حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلمته بلهجة رأى فيها شيئاً من قلة الاحترام ، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هى اللهجة التى تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبى رسول الله . فذهب عمر من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبى . فقيل له إن هذا ليس من شأنه وخرج عمر غاضباً . وسمع النبى بهذا فأثار ضحكه . وكان النزاع يقوم فى بعض الأحيان بين النبى وبعض أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين ، ولكنه كان على الدوام يعزهن ، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة . ويروى عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أثمن شىء فى العالم : ويذكر الله الناس فى القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً(**) ، ويروى عن النبى أنه قال ، « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

(*) دخول الجنة مشروط بفضل الله تعالى ، والعمل الصالح ، وقيام المرء بما عليه من حقوق لله ولبنى الإنسان ، ومن هؤلاء بلا ريب حق الزوج على زوجته ، وليس معنى هذا أن الزوجة التى تتوفى وزوجها راض عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات أخرى . (ى)

(**) يقول جل جلاله فى سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » : ويقول فى سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرهاً ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ، والفصال هنا معناه الرضاع .. (ى)

الفصل الرابع

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان ، أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً ، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التى يشير عليها بالتعاون الكامل . والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كل ّ كل ّ — أى بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أى الله سبحانه وتعالى . وفى هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً ، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر ، وهى لا تنمى التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة ، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية .

وقد تخطت القوانين الأخلاقية التى جاء الإسلام بها حدود القبيلة التى ولد النبى بين ظهرانيها ، ولكنها اقتصرت على الجماعة الدينية التى أنشأها . فلما تم له النصر فى مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل، وإن لم يكن فى مقدوره(*) أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً ؛ وأشعر بلاد العرب كلها ، أى أنه أشعر بلاد الإسلام كلها فى ذلك الوقت ، معنى جديداً للوحدة ، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرفته من قبل « إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات ١٠) وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق ، وفى

(*) لقد أحصى التاريخ كل غزوة أو سرية كانت فى عهد الرسول وكلها كانت بأمره ورضاه ؛ ولعل الغارات التى يشير إليها الكاتب هى السرايا التى كان يرسلها الرسول من آن لآخر دفاعاً عن الدعوة وكيان المسلمين . وليس حقاً ما يقوله من أنه لم يكن فى مقدوره أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً وبخاصة مع ما هو مقرر من حرص المسلمين على تحرى رضاء الرسول اتباعاً لأوامر الله جل شأنه فى القرآن الكريم . (ى)

ذلك يقول النبي : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة فى قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً ، وهى لعمرى أعظم معجزة للمسيحية والإسلام .

غير أن هذا الحب السامى الذى يدعو إليه الدينان يقابله عداء شديد لغير المؤمنين(*) « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » سورة المائدة ٥١ و ٥٥ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (سورة التوبة ٢٣) . لكن القرآن يأمر فى آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال فى الأخذ بهذه المبادئ فيقول « لا إكراه فى الدين » « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » (سورة البقرة ١٣٧) « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » (سورة النحل ٨٢) « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » (سورة هود ٥٧) « فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٨ و ١٧٩) . أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبى فقد أمر بقتالهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش وانسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم (سورة التوبة ٥) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

(*) لم يكن هذا العداء الشديد إلا للذين يحاربون الإسلام ، وأما أهل الذمة فقد أمر الإسلام بأن يكون لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وحسبنا فى الدليل على هذا قوله جل شأنه فى سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . (ى)

دين سهل من الوجهة الأخلاقية . كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ بالثأر ، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان(*). فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ١٩٤) « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ٤١) ، تلك أخلاق تليق بالرجال ، شبيهة بما جاء فى العهد القديم ، فهى تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة . وليس فى التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء ، ولم يفلح فى هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » (سورة آل عمران ٢٠٠) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت الذى نادى بمبادئ نتشه قبل وجود نتشه بزمن طويل .

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة ، وقد كتبوا المصاحف وزينوها وبذلوا فى سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين إليها بحبهم له ، وهو الكتاب الذى يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة ، وهو المحور الذى يدور عليه تعليمهم والذروة التى ينتهى بها هذا التعليم . وقد ظل أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً فى ذاكرتهم ، يستثير خيالهم ، ويشكل أخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث فى النفوس

(*) لم يجئ الإسلام ليساير العرب على ما كانوا عليه من عقائد باطلة وتقاليد غير مستحبة بل جاء ليغير كل هذا إلى خير ، وقد فعل ذلك حقاً . وقد أمر بالرحمة والمغفرة ولكن فى غير ذلة لأنه دين قوة لا دين ضعف وخنوع . وللرسول مواقف تتجلى فيها هذه المغفرة . من ذلك موقفه من قريش بعد فتح مكة التى آذته هو وأصحابه أشد الأذى ، فقد عفا عنهم جميعاً وكان مما قال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ويقول الله جل شأنه فى سورة فصلت « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .. (ى)

الساذجة(*) أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى ، وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير فى أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم فى الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله . وقد عرّف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحى ولا اليهودى الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (سورة البقرة الآية ١٧٧) .

(*) الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر فى كل عصر من العصور الماضية وفى هذا العصر الذى نعيش فيه ، كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر ، وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة الحقة الواضحة التى يتقبلها الجميع . (ى)

الباب العاشر

سيف الإسلام

٦٣٢ – ١٠٥٨

الفصل الأول

الخلفاء الراشدون

٦٣٢ – ٦٦٠

مات النبي ولم يعين من يخلفه من بعده ، ولكنه كان اختار أبا بكر (٥٧٣ – ٦٢٤) ليؤم المسلمين فى مسجد المدينة ، واقتنع المسلمون بعد شيء من الاضطراب والتنافس بأن هذا التفضيل يجعل أبا بكر أحق الناس بأن يختار أول خليفة لهم(*) .

ولم يكن لفظ خليفة فى بادئ الأمر لقباً لأبى بكر ، بل كان مجرد وصف له . وساء ذلك الاختيار علياً ابن عم محمد وزوج ابنته ، وظل ستة أشهر ممتنعاً عن بيعة أبى بكر ، وغضب لذلك أيضاً العباس عم النبى وعلى . ونشأ عن هذا الخلاف الأول أكثر من عشر حروب ، كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة ، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامى .

وكان أبو بكر وقتئذ فى التاسعة والخمسين من عمره ، وكان قصير القامة ، نحيف الجسم ، قوى البنية ، قليل الشعر ، أبيض اللحية حمراء الصبغة ، بسيطاً

(*) وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة جعلت المسلمين يختارون أبا بكر خليفة لهم منها شدة إيمانه ومناصرته للنبى وقوة أخلاقه والتضحية فى سبيل الدين بنفسه وبماله . (المترجم)

فى معيشته ، متقشفاً ، رحيما فى حزم ، يعنى شخصياً بجميع شئون الإدارة والقضاء جليلها وصغيرها على السواء ، لا يهدأ له بال حتى يأخذ العدل مجراه ، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله ، وظل شديد التقشف حتى أقنعه الشعب بأن ينزل قليلا عن تقشفه ، ثم أوصى قبل وفاته بأن يعود إلى بيت مال المسلمين كل ما أرغم على أخذه منه . وحسبت قبائل بلاد العرب أن تواضعه ضعف . وإذا كان بعضها لم يتمكن الإسلام من قلوب أفرادها ، ومنهم من اعتنقه كارها ، فقد ازتد هؤلاء عنه ، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التى فرضها عليهم الإسلام . ولما أصر أبو بكر على وجوب أدائها زحفوا على المدينة ، وجمع أبو بكر جيشاً فى ليلة واحدة ، وقاده بنفسه فى مطلع الفجر ، وبدد به شمل العصاة (٦٣٢) ، ثم أرسل خالد بن الوليد أشهر قواد المسلمين وأشدهم بطشا ، لقتال المرتدين فى جزيرة العرب وإرغامهم على أداء الزكاة .

وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التى أدت إلى فتح العرب غربى آسية ، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة . وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة فى بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية ، وصدت جيوش الإمبراطورية ، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين ، فأرسل إليها أبو بكر المدد ، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية . وكانت هذه فرصة مواتية لضم شتات العرب وتوحيد صفوفهم فى حرب خارجية ؛ وكان العرب — كما نعلم — قوماً ألفوا الحروب ، فلبوا نداء أبى بكر لخوض غمارها وقد بدت فى أول الأمر قصيرة الأجل . وسرعان ما أصبح بدو الصحراء المتشككون فيما مضى يضحون بحياتهم فى سبيل نصرة الإسلام .

واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب ؛ فمن الأسباب الاقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية فى القرن السابق لظهور النبى قد أدى

إلى انهيار نظم الرى فى جزيرة العرب[١] ، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية ، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار ، ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعى من العوامل التى دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح[٢] . يضاف إلى هذا عدة أسباب سياسية : منها أن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتهما الحروب ، وما حل بكلتيهما من الدمار على يد الأخرى ، فكان ضعفهما مغرياً للعرب على غزو بلادهما ؛ ولقد كانت الضرائب فى ولايات الدولتين تزداد زيادة مطردة ، والأداة الحكومية تزداد عجزاً عن تصريف شئون الحكم وحماية الأهلين ، كذلك كان للصلات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل فى هذا التوسع . فقد كان فى الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة فى قبولها حكم العرب الغزاة أولا ، ثم اعتناق دينهم بعدئذ . يضاف إلى هذا عوامل دينية : منها أن اضطهاد بيزنطية لليعاقبة والنساطرة وغيرهما من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين ، بل تعداهما إلى بعض الحاميات الإمبراطورية . ولما سار الفتح فى طريقه زادت الأسباب الدينية قوة على قوتها ؛ فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبى المتحمسين ، يصلون لله وهم يحاربون ، ويصلون أكثر مما يحاربون ، وقد بعثوا فى قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت فى الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة . وهناك فوق ذلك عوامل أخلاقية لها أيضاً شأنها فى هذه الفتوح : ذلك أن المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهبنة قد أضعفتا فى بلاد الشرق الأدنى ذلك الاستعداد للقتال الذى كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام . ولقد كانت جيوش العرب خيراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة ، يألفون المشاق وينالون جزاءهم من الفىء ، لقد كان فى وسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية ، ويعتمدوا على النصر فى الحصول على طعامهم . ولكنهم لم يكونوا فى حروبهم همجاً متوحشين ، انظر إلى ما أوصاهم

به أبو بكر : « أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منه شيئاً فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون قوما قد محصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . . . اندفعوا باسم الله الخ »[٣] .

ولم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف . وكانت هناك أخيرا أسباب حربية للغزو والفتح : ذلك أنه لما تضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انضم إليها من المجندين كان لا بد من الزحف بهم إلى أرضين جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . ونشأ من تقدمهم قوة هذا التقدم الدافعة ، فكان كل نصر يتطلب نصراً جديدا ، حتى أصبحت الفتوح العربية — التى كانت أسرع من الفتوح الرومانية ، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية — أعظم الأعمال إثارة للدهشة فى التاريخ الحربى كله .

وحدث فى أوائل عام ٦٣٣ ، بعد أن بسط خالد بن الوليد « لواء السلم » على جزيرة العرب ، أن دعته إحدى قبائل البدو الضاربة على حدود الجزيرة للانضمام إليها فى محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق ، وقبل خالد وخمسمائة من رجاله الدعوة لأنهم لم يكونوا يطيقون التعطل أو الركون إلى السلم طويلا ، وانضم إليهم ألفان وخمسمائة من رجال القبائل ، وغزوا أملاك الفرس . ولسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحملة قبل الإقدام عليها أو لم يوافق ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فالظاهر أنه قبل ما أسفرت عنه من نتائج قبول الفلاسفة . واستولى خالد على الحيرة وأصاب فيها من الفىء

ونال كل فارس منه ما أنطق أبا بكر بقالته الشهيرة : « يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ »[٤] . ولقد أصبحت المرأة وقتئذ ذات شأن كبير فى تفكير الظافرين ومغانمهم . وشاهد ذلك أنه بينما كان العرب يحاصرون حمص أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام ، ولما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تعطى سيدة منها تدعى كرامة إلى جندى عربى قال إن النبى قد وعده بها « فاشتد على أهل بيتها ، وأهل قريتها ما وقعت فيه وأعظموا الخطر فقالت : لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إليه ، ثم افتدت منه نفسها بألف درهم ، وكانت تسوى أضعاف ذلك[٥] .

وقبل أن يستمتع خالد بثمار انتصاره فى الحيرة بعث إليه الخليفة يأمره بالسير لإنقاذ قوة من العرب يتهددها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق . وكان بين الحيرة ودمشق فى ذلك الوقت شقة من الصحراء الجدباء الخالية من موارد الماء يقطعها المسافر فى خمسة أيام . فجمع خالد الإبل ، وسقاها الماء بوفرة ؛ وكان الجند فى أثناء زحفهم يأخذون الماء من بطون الإبل بعد ذبحها ، ويسقون خيولهم لبنها . ولما أن وصل هو وجنوده إلى الجيش العربى الرئيسى المعسكر على ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلا إلى الجنوب الشرقى من دمشق كانت تلك المؤن قد نفدت . وهناك كما يقول المؤرخون العرب هزم ٤٠,٠٠٠ (٢٥,٠٠٠ ؟) من العرب ٢٤٠,٠٠٠ (٥٠,٠٠٠ ؟) من الروم فى إحدى المعارك الفاصلة التى لا حصر لها فى التاريخ (٦٣٤) . وهكذا قامر الإمبراطور هرقل ببلاد الشام كلها فى معركة واحدة ، فلما خسرها أصبحت تلك البلاد قاعدة الدولة العربية الآخذة فى الاتساع .

وبينما كان خالد يقود جيوشه إلى النصر فى هذه المعركة ، إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبى بكر ويأمره فيها عمر الخليفة الجديد أن يتخلى عن القيادة لأبى عبيدة . وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة . وكان عمر أبو حفصة ابن الخطاب (٥٨٢ — ٦٤٤) أكبر معين لأبى بكر وأعظم مشير به ، وكان قد بلغ من الشهرة درجة لم يجد معها أحد سبباً للاعتراض حين اختاره أبو بكر خليفة للمسلمين من بعده . غير أن عمر نفسه كان يختلف عن صديقه أبى بكر كل الاختلاف . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، حاد الطبع شديد الانفعال ، لا يتفق معه إلا فى بساطته وتقشفه ، وفى أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته . وكانت صروف الدهر وتبعات الحكم قد أنضجت عقله فجعلته مزيجاً عجيباً نادراً من حدة الطبع والقدرة على الحكم الهادئ الصادق ؛ ويحكى عنه أنه ضرب بدوياً من غير حق ثم ألح عليه — دون جدوى — أن يكيل له من الضربات بقدر ما كاله هو له . وكان شديد التمسك بالدين يطلب إلى كل مسلم ألا يحيد قيد شعرة عن الفضيلة . وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من يراه من المسلمين خارجاً على أصول الدين(٦) . وتقول بعض الروايات إنه ضرب ابنه حتى مات من الضرب لمعاقرته الخمر(٧) . ويقول المؤرخون المسلمون إنه لم يكن له إلا قميص واحد ، وجلباب واحد رقعه عدة مرات ، وإنه كان يعيش على التمر وخبز الشعير ، ولا يشرب غير الماء ، وإنه كان ينام على سرير من جريد النخل ، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قميص الشعر ، وإن همه كله كان منصرفاً إلى نشر الإسلام بالسلم وبالحرب . ويقال إن أحد ولاة الفرس جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه ، فوجد فاتح الشرق نائماً على عتبة جامع المدينة ؛ ولكننا لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها .

وكان السبب الذى من أجله عزل عمر خالداً من القيادة أن « سيف الله » كثيراً ما لوث شجاعته بقسوته . ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة

ملؤها الشهامة ، وما هو أجمل من الشهامة ؛ فقد وضع نفسه تحت تصرف أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط . وأوتي أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد فى شئون الحرب ، ويعارض قسوته بعد النصر . وكان العرب فرساناً مهرة لا يضارعهم فى مهارتهم خيالة الفرس والروم ، ولم يكن فى أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم صيحاتهم الحربية العجيبة ، أو حركاتهم العسكرية المحيرة ، أو سرعة كرهم وفرهم ؛ وكانوا يحرصون عن أن يختاروا للنزال الأراضى المستوية التى توائم حركات الفرسان . واستولى العرب فى عام ٦٣٥ على دمشق ، واستولوا على أنطاكية فى عام ٦٣٦ ، وعلى بيت المقدس فى عام ٦٣٨ ، ولم ينته عام ٦٤٠ حتى كانت بلاد الشام فى أيدى المسلمين ، وقبل أن يختتم عام ٦٤١ كانوا قد أتموا فتح بلاد الفرس ومصر . ووافق البطريق سفرونيوس Sophronius على تسليم بيت المقدس إذا جاء الخليفة نفسه للتصديق على شروط التسليم ، وقبل عمر هذا الشرط ، وجاء من المدينة فى بساطة أفخر من الفخامة ، ومعه عدل من الحب وكيس من التمر ، ووعاء ماء ، وصحفة من الخشب . وخرج خالد وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله ، فغضب حين أبصر ثيابهم المهفهفة ، وعدد خيولهم المزركشة ، وألقى بحفنة من الحصباء فى وجوههم ولامهم على أنهم جاءوا يستقبلونه فى ذلك الزى . وقابل سفرونيوس مقابلة ملؤها اللطف والمجاملة ، ولم يفرض على المغلوبين إلا جزية قليلة ، وأمن المسيحيين على كنائسهم . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه طاف مع البطريق ببيت المقدس ، واختار فى العشرة الأيام التى أقامها فيها موضع المسجد الذى سمى فيما بعد باسمه . ولما سمع أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت المقدس عاصمة للدولة الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة .

وما كاد الأمر يستتب للمسلمين فى بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا يهاجرون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق ، وكانت هذه الهجرة شبيهة

بهجرة القبائل الجرمانية إلى الولايات الرومانية التى غزتها هذه القبائل ، وشملت الهجرة الرجال والنساء . . .

وبفضل هذه الهجرة والتسرى أصبح عدد العرب فى بلاد الشام وفارس نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام ٦٤٤ . ونهى عمر الفاتحين عن شراء الأرض وفلحها ، وكان يرجو أن يبقوا فى خارج جزيرة العرب طبقة عسكرية ، تمدهم الدولة بما يكفيهم ، لكى يحتفظوا بصفاتهم الحربية ، غير أن أوامره فى هذا قد أغفلت بعد موته ، بل إنها كاد يقضى عليها سخاؤه فى أثناء حياته ؛ ذلك أنه كان يوزع أربعة أخماس الفىء على الجيش ، ويخص بيت مال المسلمين بالخمس الباقى . ولم تلبث أقلية الرجال ذوى العقول الكبيرة أن جمعت معظم الطيبات من هذه الثروة العربية الآخذة فى النماء ، وأخذ أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة فى مكة والمدينة ، فكان للزبير بيوت فى عدة مدن مختلفة ، وكان يمتلك ألف جواد ، وعشرة آلاف عبد ؛ وكان عبد الرحمن يمتلك ألف بعير ، وعشرة آلاف رأس من الضأن ، وأربعمائة ألف دينار (٠٠٠ر٩١٢ر١ دولار) وكان عمر ينظر بحسرة وأسى إلى هذا الترف الذى أخذ مواطنوه يتردون فيه .

وطعنه مولى فارسى وهو يؤم الصلاة فى المسجد (٦٤٤) ، ولم يستطع عمر وهو على فراش الموت أن يقنع عبد الرحمن بأن يكون خليفة من بعده فعين ستة من زعماء المسلمين ليختاروا من يخلفه ؛ فاختاروا من بينهم عثمان . وكان عثمان بن عفان شيخاً مسناً ، طيب القلب ، حسن النية ، أعاد بناء مسجد المدينة وجمله ، وأعان بماله جيوش المسلمين التى نشرت الإسلام فى هيرات ، وكابل ، وبلخ ، وتفليس ، وفى ربوع آسية الصغرى حتى البحر الأسود ، ولكنه لسوء حظه كان شديد الولاء لأشراف بنى أمية الذين كانوا فى أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبى ، فأقبل بنو أمية على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة ، ولم يكن فى وسعه أن يقاوم مطالبهم . ولم يلبث أن تولى بعض المناصب المجزية أكثر من عشرة منهم كانوا يسخرون

من تزمت أتقياء المسلمين وبساطتهم . وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العداء ، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة ، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وهي المدن الإسلامية الآخذة في النماء السريع ، وبنو هاشم أهل النبي وعلى رأسهم علي ضد بني أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام وابن أبي سفيان ألد أعداء النبي في بداية الدعوة . وفي عام ٦٥٤ أخذ رجل يهودي ممن اعتنقوا الإسلام يدعو في البصرة إلى عقيدة ثورية ، مضمونها أن النبي سيبعث حياً على هذه الأرض ، وأن علياً أحق الناس بالخلافة ، وأن عثمان لا حق له فيها ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين . ولما طرد هذا الداعية من البصرة نزح إلى الكوفة ، فلما أخرج من الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته آذاناً صاغية واعتنقها كثيرون ، وخرج من مصر إلى المدينة خمسمائة من المسلمين وطلبوا إلى عثمان أن يعتزل الخلافة ، فلما أبى حاصروا بيته ، ثم اقتحموا عليه حجرته وقتلوه وهو يتلو القرآن (٦٥٦) .

وفر زعماء بني أمية من المدينة وبايع بنو هاشم علياً خليفة للمسلمين . وكان علي في شبابه مثلا أعلى للتواضع ، والتقوى ، والنشاط ، والإخلاص للدين . وكان وقت أن بويع بالخلافة في الخامسة والخمسين من عمره ، أصلع الرأس ، ممتلئ الجسم ، لطيف المعشر ، محسناً ، كثير التفكير ، متحفظاً في قوله ؛ ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التي عدت فيها السياسة على الدين ، وحلت فيها الدسائس محل الخشوع والإخلاص للإسلام والمسلمين . وطلب إليه أن يقتص من قتلة عثمان ، ولكنه تباطأ فتمكنوا من الفرار ؛ وطالب هو أن يعتزل من ولاهم عثمان مناصبهم ، فأبى معظمهم ؛ ولم يكتف معاوية برفض هذا الطلب بل نشر في دمشق قميص عثمان الملطخ بالدماء ، وأصابع زوجته التي قطعت وهي تحاول الدفاع عنه . وظاهرت قريش معاوية ؛ وكان بنو أمية هم المسيطرين وقتئذ عليها ، وخرج على علي

طلحة والزبير من أصحاب الرسول ، وطالباهما أيضاً بالخلافة . وخرجت عائشة زوج النبي من المدينة إلى مكة وانضمت إلى الثوار . ولما أعلن مسلمو البصرة انضمامهم للثائرين استنجد على بأهل الكوفة المضرسين فى القتال ، ووعدهم أن يتخذها عاصمة الدولة إذا هم لبوا نداءه . فأجابوا دعوته والتقى الجيشان فى جنوبى العراق فى واقعة الجمل — وسميت كذلك لأن عائشة كانت تحرض الجند على القتال من هودجها على ظهر الجمل . وهزم طلحة والزبير وقتلا ، وردت عائشة إلى بيتها معززة مكرمة ، ونقل علىّ العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة .

وجهز معاوية فى دمشق قوة أخرى لقتال على . وكان معاوية خبيراً بشئون الدنيا غير متزمت فى الدين ، وكان يرى فى الدين بديلا من الشرطة أقل منها نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلا بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة . وكان من الأغراض التى يبتغيها بمحاربة على أن يعيد إلى الأقلية المصطفاة من قريش السلطة والزعامة اللتين كانتا لها قبل أيام النبى . وأعاد علىّ تنظيم قواه والتقت بجيش معاوية عند صفين على نهر الفرات (٦٥٧) . وكاد النصر يتم لعلى لولا أن عمرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم « كتاب الله » ، ولعله كان يعنى بهذا اتباع الأوامر الواردة فى القرآن (الكريم) . ورضى علىّ بهذا الطلب إجابة لإلحاح جنوده ، واختير الحكمان وحدد لهما ستة أشهر يفصلان خلالها فى النزاع ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم .

ولكن بعض رجال على خرجوا عليه فى ذلك الوقت ، وألفوا منهم جيشاً مستقلا وسموا بالخوارج ، وقالوا إن الخليفة يجب أن يختاره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله ؛ وكان بعضهم فوضويين دينيين يرفضون كل حكومة ما عدا حكومة الله(٩) وكانوا كلهم يندون بما انغمس فيه حكام الإسلام الجدد من ترف وحب لمتاع الدنيا ، وحاول علىّ أن يعيدهم إلى الانضواء تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح ؛ ثم استحالت تقواهم تعصباً ، وعبروا عنها بأعمال اتسمت بالعنف

والإخلال بالنظام ، فلم يسع علياً إلا أن يعلن عليهم الحرب ، ويشتت شملهم . واتفق الحكمان فى الوقت المحدد لهما على أن يتنحى على ومعاوية عن الخلافة ، وأعلن ممثل على خلعه ، ولكن عمراً لم يخلع معاوية بل ثبته خليفة للمسلمين . وفى هذا الاضطراب هجم رجل من الخوارج على علىّ بالقرب من الكوفة وطعنه فى رأسه بسيف مسموم (٦٦١) . وأصبح المكان الذى مات فيه علىّ مزاراً مقدساً عند طائفة الشيعة التى تقدسه أعظم التقديس ، واتخذت ضريحه مكاناً تحج إليه كما يحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها .

وبايع المسلمون فى العراق الحسن بن على بالخلافة ، وزحف معاوية على الكوفة ، فاستسلم له الحسن ، وقرر له معاوية مالا يعيش منه ، وانسحب الحسن إلى مكة ، ومات فى الخامسة والأربعين من عمره (٦٦٩) ، فمن قائل إن الخليفة دس له السم ، ومن قائل إن زوجة من زوجاته دفعتها الغيرة إلى أن تدسه له . وبايع المسلمون جميعاً معاوية على كره منهم ، ولكنه أراد أن يضمن السلامة لنفسه ، ورأى أن المدينة بعيدة عن مركز العالم الإسلامى والسلطة الإسلامية ، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة . وهكذا انتصرت الأرستقراطية القرشية على الهاشميين آل بيت النبى ، واستحالت « الجمهورية » الدينية ، وهى الحكومة التى كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين ، ملكية دنيوية وراثية . وحل حكم الساميين فى غرب آسية محل حكم الفرس والروم ، وطهرت آسية من تلك السيطرة الأوربية التى ظلت قائمة فيها ألف عام ، وشكلت بلاد الشرق الأدنى ومصر وشمالى أفريقية بالشكل الذى احتفظت به فى جوهره ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

الخلافة الأموية

٦٦١ — ٧٥٠

يجب علينا ألا نظلم معاوية . لقد استحوذ على السلطة فى بادئ الأمر حين عينه عمر الخليفة الفاضل النزيه والياً على الشام ، ثم بتزعمه الثورة التى أوقد نارها مقتل عثمان ، ثم بما دبره من الدسائس البارعة التى أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة ، ومن أقواله فى هذا المعنى « لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » قيل : وكيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : « إذا مدوها خليتها وإن خلوها مددتها »(١٠) .

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرا حاكمة جديدة .

وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة ، وتشبه فى هذا بأباطرة الدولة البيزنطية ، الذين تشبهوا هم أنفسهم بملك ملوك الفرس . وإن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا هذا ليوحى بصلاحيته لحكم الشعوب الجاهلة واستغلالها . وكان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد فى أثنائه من الرخاء ، وانقطاع النزاع بين القبائل ، وما بلغته الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك . وكان يرى ألا سبيل إلى اتقاء النزاع الذى لابد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب ، وما يؤدى إليه

هذا النزاع من اضطراب وفوضى ، إلا إذا استبدل به النظام الوراثى ، فنادى بابنه يزيد وليًا للعهد ، وأخذ له البيعة من جميع ولايات الدولة العربية .

ومع هذا فإنه لما مات معاوية (٦٨٠) اشتعلت نار الحرب من أجل وراثة العرش ، كما اشتعلت فى بداية حكمه . فقد أرسل مسلمو الكوفة إلى الحسين بن على يعدونه بتأييد اختياره للخلافة إذا جاءهم واتخذ بلدهم مقراً لها . وخرج الحسين من مكة ومعه أسرته وسبعون من أتباعه المخلصين له . ولما أصبحت تلك القافلة على بعد خمسة وعشرين ميلا فى شمال الكوفة قابلتها قوة من جند يزيد بقيادة عبيد الله ، وعرض حسين أن يسلم ، ولكن من كانوا معه أبو إلا القتال . وأصاب أحد السهام الأولى قاسما ابن أخى الحسين وهو غلام فى العاشرة من عمره ، فمات بين ذراعى عمه ، ثم سقط من بعده إخوة الحسين وأبناؤه ، وبنو أعمامه ، وأبناء إخوته واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق أحد ممن كانوا معه ، واستولى الرعب والهلع وقتئذ على النساء ؛ ولما حمل رأس الحسين إلى الكوفة أقبل عبد الله ينكثه بالقضيب ؛ فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه »[11] (٦٨٠) . وأقام الشيعة فى كربلاء حيث قتل الحسين مشهدا عظيما تخليداً لذكراه ، ولا يزالون حتى اليوم يمثلون فى كل عام مأساة قتله ، ويظهرون فى ذلك أشد الحزن والأسى ، ويمجدون ذكرى على وولديه الحسن والحسين .

كذلك ثار على يزيد عبدالله بن الزبير ، ولكن جنود يزيد السوريين هزموه وحاصروه فى مكة ، وسقطت الحجارة من مجانيقهم فى فناء الكعبة ، وانكسر منها الحجر الأسود ثلاث قطع ، واشتعلت النار فى الكعبة نفسها ، والتهمتها عن آخرها (٦٨٣) . ثم رفع الحصار عنها فجأة ، فقد مات يزيد واحتيج إلى الجيش فى دمشق . وأعقبت موته سنتان سادت فيهما الفوضى وتولى الخلافة فيها ثلاثة من الخلفاء جاء بعدهم عبد الملك بن مروان ابن عم معاوية فقضى على

هذا الاضطراب وأخمد الفتنة بشجاعة وقسوة ، فلما استتب له الأمر حكم البلاد بكثير من الرأفة ، والحكمة والعدالة . وأخضع قائده الحجاج بن يوسف أهل الكوفة وأعاد حصار مكة . ودافع عنها عبد الله ، وكان وقتئذ فى الثانية والسبعين من عمره ، دفاع الأبطال ، وكانت أمه المعمرة تشجعه وتحرضه ، لكنه هزم وقتل ، وحمل رأسه إلى دمشق ؛ وبعد أن ظل جسده مصلوباً بعض الوقت ، اسلم إلى أمه (٦٩٢) . وفى سنى السلم التى أعقبت هذا القتال ، أخذ عبد الملك يقرض الشعر ، ويناصر الأدب ، ويعنى بشئون بيته ، ويربى أبناءه الخمسة عشر ، وقد تولى الخلافة منهم أربعة .

ودام حكمه عشرين عاماً مهد فيها السبيل للأعمال العظيمة التى قام بها ابنه الوليد الأول (٧٠٥ — ٧١٥) . فى عهده واصل العرب فتوحهم ، فاستولوا على بلخ فى عام ٧٠٥ ، وعلى بخارى فى عام ٧٠٩ ، وفتحوا أسبانيا فى عام ٧١١ ، وسمرقند فى ٧١٢ . وفى الشرق حكم الحجاج البلاد بحزم وجد وقام فيها بأعمال إنشائية لا تقل عما لجأ إليه فى هذا الحكم من قسوة : فقد جفف المستنقعات ، وأصلح كثيراً من الأراضى وأعدها للزراعة ، وأعاد فتح ما طمر من قنوات الرى وأصلحها . ثم لم يقنع بهذه الأعمال فأحدث انقلاباً كبيراً فى طريقة الكتابة باستعمال حركات الإعراب ، وكان الحجاج مدرساً قبل أن يكون والياً . أما الوليد نفسه فكان مثلا طيباً للحكام ، يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب ، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الجديدة وإصلاح الطرق ، وينشئ المدارس والمستشفيات — ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية — وملاجئ للشيوخ ، والعجزة ، والمكفوفين ، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويجملها ، وينشئ فى دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم لا يزال باقياً فيها حتى اليوم . وكان يجد بين هذه المشاغل كلها متسعاً من الوقت يقرض فيه الشعر ، ويؤلف الألحان الموسيقية ، ويضرب على العود ،

ويستمع إلى غيره من الشعراء والموسيقيين ، ويخصص من كل يومين يوماً للمنادمة(١٣) .

وخلفه أخوه سليمان (٧١٥ — ٧١٧) ، فأضاع المال والرجال فى محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية ، وسلى نفسه بالطعام والنساء ، ولم يذكره الناس بخير إلا لأنه أوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠) . واعتزم عمر أن يكفر فى خلافته عن جميع ضروب الفساد التى ارتكبها أسلافه من خلفاء بنى أمية . فجعل حياته كلها وقفاً على إحياء شعائر الدين ونشره فتقشف فى لباسه ، وارتدى الثياب المرقعة حتى لم يكن أحد يظن أنه هو خليفة المسلمين ، وأمر زوجته بأن ترد إلى بيت المال ما أهداه إليها والدها من الحلى النفيسة فصدعت بالأمر ، وأبلغ أزواجه أن واجبات الحكم ستشغله عن الالتفات إليهن وأذن لمن شئن منهن أن يفارقنه . ولم يلتفت إلى الشعراء ، والخطباء ، والعلماء الذين كانوا يعتمدون فى معيشتهم على بلاط الخلفاء ، بل قرب إليه أتقى العلماء فى الدولة واتخذهم له أعواناً ومستشارين . وعقد الصلح مع الدول الأجنبية ، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذى كان يحاصرها ، واستدعى الحاميات التى كانت قائمة فى المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين . وبينا كان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين فى بلاد الدولة على اعتناق الإسلام ، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم ، فإن عمر قد شجع المسيحيين ، واليهود ، والزردشتيين على اعتناقه ، ولما شكا إليه عماله القائمون على شئون المال من أن هذه السياسة ستفقر بيت المال أجابهم بقوله : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا »(١٤) .

ولما أراد بعض مستشاريه أن يقفوا حركة الدخول فى الإسلام بأن حتموا الختان على معتنقيه فعل عمر ما فعله القديس بولس من قبل ، فأمرهم بالاستغناء

عن الختان . ثم فرض قيوداً شديدة على من امتنعوا عن الإسلام ، فحرم عليهم مناصب الدولة ، ومنعهم من بناء معابد جديدة ، ودامت خلافته أقل من ثلاث سنين مرض بعدها ومات .

وكان يزيد الثانى (٧٢٠ — ٧٢٤) يختلف كل الاختلاف فى أخلاقه وعاداته عن عمر بن عبد العزيز . كان يزيد يحب جارية تدعى حبيبة بقدر ما كان عمر يحب الإسلام . وكان قد ابتاعها فى شبابه بأربعة آلاف قطعة من الذهب ، وأرغمه أخوه سليمان ، وكان هو الخليفة فى ذلك الوقت ، أن يردها إلى بائعها ، ولكن يزيد لم ينس جمالها وحنانها ؛ فلما ولى الخلافة سألته زوجته هل بقى له شئ فى العالم يرغب فيه ؟ . فأجابها « حبيبة » فبعثت زوجته الوفية من فورها إلى حبيبة ، وأهدتها إليه ، وانزوت هى فى مجاهل الحريم . ويروى أنه بينا هو يلهو مع حبيبة فى يوم من الأيام إذ ألقى أثناء لهوه ببذرة عنب فى فمها ، فاختنقت وماتت بين ذراعيه . وحزن عليها يزيد حزناً مات من أثره بعد أسبوع من وفاتها .

وحكم هشام (٧٢٤ — ٧٤٣) الدولة سبعة عشر عاماً حكماً عادلا سادت فيه السلم ، وأصلح فى خلاله الشئون الإدارية ، وخفض الضرائب ، وترك بيت المال بعد وفاته مليئاً بالأموال . ولكن فضائل القديس قد تكون سبباً فى القضاء على الحاكم : فقد منيت جيوش هشام بعدة هزائم ، وثار نقع الفتنة فى الولايات ، وعم الاستياء العاصمة التى كانت تتوق إلى خليفة مبذر متلاف . وجاء من بعده خلفاء جللوا بالعار تلك الأسرة التى امتاز خلفاؤها الأولون بالقدرة والمهارة ، فعاشوا عيشة الترف والفساد ، وأهملوا شئون الحكم . فكان الوليد الثانى (٧٤٣ — ٧٤٤) فاسد الأخلاق ، خارجاً على قواعد الدين ، منغمساً فى الشهوات البدنية ولما سمع بنبأ وفاة عمه هشام سره النبأ أيما سرور ، وقبض على ابن هشام نفسه ، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفى ،وبدد أموال الخزانة بحكمه الفاسد ،وهباته التى لاحد

لها . ويروى عنه أعداؤه أنه كان يسبح فى بركة من الخمر ، ويشفى منها غلته وهو سابح فيها ، وأنه ضرب القرآن بالنبال(*) (١٤) . وقتل يزيد بن الوليد الأول هذا الخليفة المستهتر الماجن ، وتولى الخلافة ستة أشهر ومات فى عام ٧٤٤ . وخلفه على العرش أخوه إبراهيم ، ولكنه لم يستطع حمايته ، فخلعه أحد قواده الأقوياء هو مروان الثانى ، وحكم ست سنين مليئة بالمآسى ، وكان هو آخر الخلفاء من بنى أمية فى الشرق .

وإذا نظرنا إلى أعمال الخلفاء من بنى أمية من وجهة النظر الدنيوية حكمنا بأن هذه الأعمال قد عادت بالخير على الإسلام . فقد وسعوا حدود البلاد السياسية إلى مدى لم تبلغه قط فيما بعد . وإذا ما استثنينا بعض فترات مشئومة من تاريخهم فإنهم قد حكموا الدولة الجديدة حكماً منظما حرا . لكن نظام الملكية المطلقة الوراثية أدى إلى ما يؤدى إليه عادة فى جميع البلاد ، فتولى الخلافة فى القرن الثامن خلفاء عاجزون أفقروا بيت المال ، وتركوا شئون الحكم للخصيان ، وفقدوا السيطرة على النزعة الانفرادية العربية ، التى حالت فى أكثر الأوقات بين المسلمين وبين قيام دولة إسلامية موحدة . وقد ظل النزاع بين القبائل لم تنقطع أسبابه وإن استحال نزاعاً بين الأحزاب السياسية ؛ فقد كان بنو هاشم وبنو أمية يكره بعضهم بعضا ، كأن أواشج القربى بينهم قد أضحت أشد وأقرب مما كانت فى أيامهم السابقة . ونفرت بلاد العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليها ؛ وأخذ الفرس يدعون أنهم أرقى من العرب ، وأنهم لذلك لا يطيقون أن تحكمهم بلاد الشام ، وقد كانوا من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يقلون شأناً عن العرب . وساء أبناء النبى أن يروا بلاد المسلمين يتولى شئونها خلفاء من بنى أمية الذين كان منهم أشد

(*) وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا لاقيت ربك يوم حشر ... فقل لله مزقنى الوليد

أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، وروعهم فساد أخلاق الخلفاء الأمويين ، ولعلهم قد روعهم كذلك تساهلهم الديني ، وكانوا يدعون الله أن يرسل من قبله من ينقذهم من هذا الحكم المذل .

ولم يكن ينقص هذه القوى المعادية إلا شخصية قوية مبدئة توحد صفوفها وتنطقها بمطالبها . وقيض لها هذا الزعيم فى شخص أبى العباس السفاح حفيد حفيد أحد أعمام النبي ، فتولى قيادتها من مكمن لها فى فلسطين ، ونظم الثورة في الولايات واستمال إليه الوطنيين الشيعة فى بلاد الفرس فأيدوه أشد التأييد ، حتى إذا كان عام ٧٤٩ نادى بنفسه خليفة فى الكوفة . والتقى جيش مروان الثانى بالثوار يقودهم عبد الله عم أبى العباس على نهر الزاب ، فهزم مروان وجيوشه ، وبعد عام من هزيمته استسلمت دمشق بعد أن ضرب عليها الحصار . ثم قبض بعدئذ على مروان وقتل وحمل رأسه إلى أبى العباس ، ولكن الخليفة الجديد لم يكتف بهذا ، وقال :

« لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني »

وسمى أبو العباس بالسفاح أى سفاك الدماء لأنه أمر بأن يطارد أمراء بنى أمية ويقتلوا أينما وجدوا ، ليقضى بذلك على ما عسى أن يقوم به أفراد الأسرة الساقطة من فتن . ونفذ عبد الله ، الذى عين واليا على الشام ، هذا الأمر ، فى يسر وسرعة ، فأعلن عفواً عاما عن الأمويين ، وأكده لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى وليمة . وبينا هم على الطعام إذا أشار إلى جنوده فى مخبئهم ، فخرجوا عليهم ورموا رؤوسهم بالسيوف ، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى ، واستمرت المأدبة . واستبدل بزعماء الأمويين رجال من العباسيين جلسوا فوق جثث أعدائهم ، يشنفون أسماعهم بأنين الموتى . وأخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بنى أمية ، وسيطت هياكلهم العظمية التى كادت أن تكون عارية من اللحم ، وشنقت وحرقت ، وذر رمادها فى الريح[١٥] .

الفصل الثالث

الخلافة العباسية

(٧٥٠ — ١٠٥٨)

١ — هرون الرشيد

وجد أبو العباس السفاح نفسه حاكما لدولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطى ، وتشمل بلاد السند (الشمال الغربى من الهند) ، وبلوخستان وأفغانستان ، والتركستان ، وفارس ، وأرض الجزيرة ، وأرمينية ، والشام ، وفلسطين ، وقبرص ، وكريت ، (إقريطش) ، ومصر ، وشمالى أفريقية . ورفضت أسبانيا المسلمة الخضوع إليه ، وخرجت بلاد السند عن طاعته فى السنة الثانية عشرة من حكمه . ورأى السفاح أن دمشق تكرهه ، وأنه لا يأمن على نفسه فى مدينة الكوفة المشاكسة المضطربة ، فنقل العاصمة إلى الأنبار الواقعة فى شمال الكوفة . وكانت الكثرة الغالبة ممن رفعوه إلى العرش فرساً فى ثقافتهم وأصولهم . وبعد أن ارتوى السفاح من دماء أعدائه اصطبغ بلاطه بشىء من الرقة ودماثة الأخلاق الفارسية ، وجاءت من بعده طائفة من الخلفاء المستنيرين ، استخدموا ثروة الدولة المتزايدة فى مناصرة الفنون والآداب ، والعلوم ، والفلسفة حتى ازدهرت وأثمرت أينع الثمار ؛ وبعد أن مضت مائة عام على بلاد الفرس وهى فى ذلة الخضوع غلبت غالبيها .

ومات السفاح بالجدرى فى عام ٧٥٤ ، وخلفه أبو جعفر أخوه من أبيه ولقب بالمنصور ، وكانت أمه جارية من البربر ، وكانت أمهات جميع خلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلا ثلاثة منهم جوارى . وقد أدى إلى هذا ماجرى عليه الخلفاء

من عادة اتخاذ السرارى وجعل أبنائهم منهن أبناء شرعيين. وبهذه الوسيلة كان عدد أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية يزداد على الدوام بتأثير المصادفة وطابعها الدمقراطي، ومصائر الحب والحرب. وكان الخليفة الجديد فى سن الأربعين، طويل القامة، نحيف الجسم، ملتحياً، أسمر البشرة، شديداً فى معاملاته. ولم يكن أسيراً لجمال النساء، أو مدمناً للخمر، أو مولعاً بالغناء؛ ولكنه كان يناصر الآداب، والعلوم، والفنون؛ ويمتاز بعظيم قدرته، وحزمه، وشدة بطشه. وبفضل هذه الصفات ثبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لماتت بموت السفاح. وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية، وبنى مدينة فخمة هى مدينة بغداد واتخذها عاصمة للدولة، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش فى صورتيهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة؛ وكان يشرف بنفسه على كل إدارة فى دولاب الحكومة، وعلى جميع أعمال هذه الإدارات، وأرغم الموظفين المرتشين الفاسدين — ومنهم أخوه نفسه — على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة. وكان يراعى جانب الاقتصاد بل قل الحرص الشديد فى إنفاق الأموال العامة، حتى نفر منه الأصدقاء، وأطلق عليه لشحه لقب «أبى الدوانق»[١٦]. وقد أنشأ فى بداية حكمه نظام الوزارة الذى أخذه عن الفرس، وكان له شأن عظيم فى تاريخ العباسيين: وكان أول من شغل منصب الوزير فى عهده هو خالد ابن برمك. وقد اضطلع بواجب خطير فى حكم الدولة، وكان له شأن فيما وقع فى أيام الدولة العباسية من أحداث جسام. وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء اللذين جنى ثمارهما هرون الرشيد.

ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام اثنتين وعشرين سنة وكان موته وهو فى طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج. ولم يكن فى وسع ابنه المهدى (٧٧٥ — ٧٨٥) إلا أن يسلك فى حكمه سبيل الخير. وقد شمل عفوه جميع المذنبين إلا أشدهم خطراً على الدولة، وأنفق الأموال الطائلة فى تجميل المدن

وناصر الموسيقى والآداب ، وأظهر فى حكم البلاد كفاية ممتازة . وكانت بيزنطية قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم التى فتحها العرب فى آسية الصغرى ، فسير عليها المهدى جيشاً بقيادة ابنه هرون لاسترداد هذه البلاد . وأخرج هرون الروم منها وردهم إلى القسطنطينية ، وهدد تلك المدينة نفسها تهديداً اضطر الإمبراطورة إيرينة[*] Irene أن تعقد معه صلحاً تعهدت بمقتضاه أى تؤدى للخليفة جزية سنوية مقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار (٨٣٢,٠٠٠ دولار) (٧٨٤) . ومن ذلك الوقت أطلق المهدى على ابنه اسم هرون الرشيد . وكان قبل ذلك قد اختار ابناً آخر من أبنائه اسمه الهادى ولياً للعهد ، فلما رأى ما امتاز به هرون من كفاية عظيمة طلب إلى الهادى أن ينزل عن حقة لأخيه الأصغر . وكان الهادى وقتئذ يقود جيشاً فى بلاد الشرق فأبى أن يجيب أباه إلى طلبه ، ورفض أن يطيع أمره بالعودة إلى بغداد . فخرج المهدى وهرون للقبض عليه ، ولكن المهدى توفى فى الطريق ، وكان حين وفاته فى الثالثة والأربعين من عمره . ورأى هرون اتباعاً لنصيحة الوزير يحيى بن خالد البرمكى أن يبايع الهادى بالخلافة ، على أن يكون هو ولياً للعهد ، غير أنه إذا كان فى وسع عشرة من الدراويش أن يناموا على بساط واحد فإن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها كما يقول السعدى[١٧] فى كتابه : فلم يعترف الهادى لأخيه بولاية العهد ، وسجن يحيى ، ونادى بابنه ولياً لعهده . ثم مات الهادى بعد زمن قصير (٧٨٦) ، وراجت إشاعة بأن أمه ، وكانت تفضل عليه هرون ، كتمت أنفاسه بوسادة وضعتها على فمه . وارتقى هرون العرش ، واتخذ يحيى وزيراً له ، وبدأ أشهر حكم فى تاريخ الإسلام .

وتصور لنا القصص — وخاصة قصص ألف ليلة وليلة — هرون الرشيد فى صورة الملك المرح ، المثقف ، المستنير ، العنيف فى بعض الأوقات ، الكريم الرحيم فى أغلب الأحيان ، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ

(*) هكذا يسميها المؤرخون العرب . (المترجم)

بها فى ديوان محفوظات الدولة[١٨] . وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون إذا استثنينا منها مرحه ؛ ولعل السبب فى ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين . فهم يصورونه أولا وقبل كل شيء فى صورة الرجل الورع المتمسك ، أشد التمسك بأوامر الدين ، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين ، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين ، وإنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة[١٩] . ويقال إنه كان يشرب الخمر ، ولكن هذا لم يكن إلا سراً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه[٢٠] . ويقال إنه تزوج من سبع نساء[*] وكان له عدد من السرارى رزق منهن بأحد عشر ولداً ، وأربع عشرة بنتاً ، كلهم وكلهن من الجوارى عدا الأمين ابنه من الأميرة زبيدة . وكان كريماً سمحاً فى أمواله على اختلاف أنواعها . من ذلك أنه لما أحب ولده المأمون إحدى فتيات قصر أبيه ، أهداها إليه الخليفة ، ولم يسأله ثمناً لها إلا أن ينظم بعض أبيات من الشعر[٢١] ، لأنه كان يحب الشعر أشد الحب ، ويستمتع به استمتاعاً يحمله فى بعض الأحيان على أن يثقل الشاعر الذى يعجب بشعره بالهدايا من غير حساب . من ذلك أنه أهدى الشاعر مروان على قصيدة مدحه بها خمسة آلاف قطعة من الذهب (٧٥٠ ر ٢٣ دولار)[**] ، وحلة ثمينة ، وعشر جوار من بنات الروم ، وجواداً كريماً[٢٢] . وكان أحب رفاقه إليه الشاعر الماجن أبو نواس . وكان كثيراً ما يغضب على أبى نواس لسفهه وسوء سيرته ، ولكنه كان فى كل مرة يصفح عنه لجودة شعره . وقد جمع حوله فى بغداد عدداً عظيماً من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحويين وعلماء البلاغة ، والراقصات والراقصين ، والفنانين ، والفكهين المرحين . وكان ينقد أعمالهم وأقوالهم نقد العالم الخبير صاحب الذوق السليم ، ويجزيهم عليها بسخاء ،

(*) لعل المؤلف يضيف الجوارى إلى الأزواج لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع . (المترجم)

(**) يقصد المؤلف بقطعة الذهب فى هذه الفصول الدينار ويقدره بأربعة دولارات أمريكية وثلاثة أرباع الدولار من نقود هذه الأيام ، حسب القوه الشرائية للدينار فى تلك الأيام . (المترجم)

ويتلقى فى نظير ذلك الاف القصائد فى مديحه والتغنى بجوده . وكان هو نفسه عالماً وشاعراً ، وخطيباً بليغاً. قويا(٢٣) . ولسنا نعلم فى التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوى العقول الراجحة النابهين . وكان يعاصره فى غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة فى القسطنطينية ، والملك شارلمان فى فرنسا ، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung ، ولكن هرون الرشيد بزهم جميعاً فى الثراء ، والسلطان ، وأبهة الملك ، والتقدم الثقافى الذى ازدان به حكمه .

غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك . فقد كان يشترك اشتراكا فعلياً فى تصريف شئون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله فى قضائه ، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها ٤٨٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار — على الرغم من أبهة الملك والهبات التى لم يسبق لها مثيل . وكان يقود جيوشه بنفسه فى ميادين القتال ، وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة . غير أنه كان يعهد بالشئون الإدارية وبالخطط السياسية إلى وزيره الحكيم يحيى . فقد دعا إليه عقب جلوسه على العرش يحيى البرمكى وقال إنه يعهد إليه أمر جميع رعاياه ليحكمهم كما يشاء ، فيعزل من يشاء ، ويولى من يشاء ، ويصرف الأمور كما يرى ، وأيد قوله هذا بأن أعطاه خاتمه(٢٤) . وكان هذا إفراطاً خطيراً فى ثقته بالوزير ، ولكن هرون كان يرى أنه ، وهو لا يزال شاباً فى الثانية والعشرين من عمره . لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة التى آل أمرها إليه ؛ وكان عمله هذا تعبيراً عن شكره لرجل كان أستاذاً ومربياً له يدعوه إذا دعاه بوالده ، وقد ذاق عذاب السجن فى سبيله .

وأثبت يحيى أنه أقدر الحكام فى تاريخ العالم كله . لقد كان رجلا بشوشاً ، دمث الأخلاق ، جواداً حكيماً ، مجداً لا يمل من العمل ؛ رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية ، وثبت دعائم النظام ، وأقر الأمن ، ونشر لواء العدالة ، وأنشأ الطرق ، والجسور ، والخانات ، واحتفر قنوات الرى ، فعم

الرخاء جميع ولايات الدولة ، وإن كان قد فرض عليها ضرائب عالية ليملأ بها خزانة الخليفة وخزانته هو ، ذلك أنه هو أيضاً قد حذا حذو سيده في مناصرة الآداب والفنون . وقد عين ولديه الفضل وجعفر في منصبين كبيرين من مناصب الدولة ، فسارا فيهما أحسن سيرة ، وأثريا منهما ثراء عظيما ، فأنشآ القصور ، وجمعا حولهما طائفة كبيرة من الشعراء ، والندماء ، والفلاسفة . وكان هرون يحب جعفر حباً أطلق ألسنة السوء في علاقتهما الشخصية ، ويقال إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين يلبسها هو وجعفر معا فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية[٢٥] .

ولسنا نعرف بالدقة سبب النكبة المفاجئة التي قضت على سلطان البرامكة . فابن خلدون يقول إن سببها الحقيقي هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير[٢٦] .

ولعل السبب أنه لما جاوز هرون سن الشباب ، ولم يجد في الجرى وراء الملاذ الجسمية والعقلية متنفساً لكفاياته ومواهبه ، ندم على ما خص به وزيره من قوة وسلطان . وقد حدث أن أمر الخليفة جعفر بأن يقتل أحد الخارجين عليه ، فتغاضى جعفر عن الأمر حتى تمكن الثائر من الهرب ، ولم يغفر هرون له هذا الإهمال المحبب إلى النفوس . وهناك قصة من طراز قصص ألف ليلة وليلة تقول إن العباسة أخت الرشيد ، أحبت جعفر ، وأن الرشيد كان قد أقسم بأن يحتفظ بدماء بني هاشم الذي يجرى في عروق أخواته صافية نقية لا يخالطها إلا دماء أشراف العرب ، وجعفر كما نعلم من أبناء الفرس . وأجاز لهما الخليفة أن يتزوجا ، على ألا يلتقيا إلا في حضوره . ولكن الحبيبين سرعان ما نقضا هذا العهد ، وولدت العباسة لجعفر ولدين دون أن يعلم بذلك الرشيد ، فقد أخفيا عنه وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها . وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا

السر ، وأفضت به إلى هرون . فبعث فى طلب مسرور كبير الجلادين وأمره بقتل العباسة ودفنها فى قصره ، وأشرف هو بنفسه على تنفيذ هذا الأمر . ثم أمر مسروراً أن يضرب عنق جعفر ، وأن يأتى إليه برأسه ، ونفذ مسرور أمر مولاه . ثم بعث إلى المدينة من يأتيه بولديه ، وبعد أن تحدث طويلا إلى الطفلين الوسيمين ، وأبدى إعجابه بهما أمر بقتلهما (٨٠٣) . ثم سجن يحيى والفضل ، وسمح لهما بأن يحتفظا بأسرتيهما وخدمهما ، ولكنه لم يطلق سراحهما . ومات يحيى بعد عامين من مقتل ولده ، كما مات الفضل بعد خمسة أعوام من مقتل أخيه ، وصودرت جميع أموال البرامكة ، ويقال إنها بلغت ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠ دينار (٠٠٠ر٥٠٠ر١٤٢ دولار أمريكى) .

ولم تطل حياة هرون بعد نكبة البرامكة . وظل وقتاً ما يخفف من حزنه وندمه بالعمل الكثير ، ويقال إنه كان يرحب بمشاق الحرب نفسها ؛ ولما أن امتنع نقفور الأول إمبراطور بيزنطية عن أداء الجزية التى وعدت إيرينة بأدائها ، وجرؤ على المطالبة برد ما أدته الإمبراطورة منها رد عليه هرون بقوله : « باسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد ، فقد تلقيت رسالتك يابن الكافرة ، وسيكون الجواب ما تراه عيناك لا ما تسمعه أذناك والسلام »[٢٧] . وسار إلى ميدان القتال من فوره ، واتخذ مقامه فى الرقة ذات الموقع الحربى المنيع على حدوده الشمالية ، ونزل إلى الميدان على رأس حملة قوية اخترق بها آسية الصغرى ، وقذفت الرعب فى قلب نقفور فلم يسعه إلا أن يعود إلى أداء الجزية (٨٠٦) . ورأى الرشيد أن يصطنع شارلمان ليرهب به إمبراطور الروم ... فأرسل إليه وفداً مثقلا بالهدايا منها فيل وساعة مائية معقدة التركيب ؛

ولم يكن هرون وقتئذ قد جاوز الثانية والأربعين من عمره ، ومع هذا فإن ولديه الأمين والمأمون شرعا يتنافسان على الخلافة ويتطلعان إلى موته . وأراد هرون أن يخفف من حدة النزاع فقرر أن يرث المأمون الولايات الواقعة فى شرق

نهر دجلة ، وأن يرث الأمين ما بقى من الدولة ، فإذا مات أحد الاثنين آل ملكه إلى أخيه . ووقع الأخوان هذا العهد وأقسما على الكعبة أن يتقيدا به : ولكن حدث فى ذلك العام نفسه أن شبت فتنة صماء فى خراسان فسار هرون ومعه المأمون لتقليم أظافرها ، مع أنه كان يشكو وقتئذ آلاماً شديدة فى معدته . فلما بلغ بلدة طوس فى شرق إيران عجز عن الوقوف على قدميه . وجىء له وهو يحتضر بباشين أحد زعماء الثورة ، وكان الخليفة قد برح به الألم حتى أفقده عقله فأخذ يؤنب القائد الأسير لأنه اضطره إلى الإقدام على هذه الحملة المهلكة ، وأمر أن تقطع أوصاله وشهد بعينية تنفيذ أمره [٢٩] . وفى اليوم الثانى توفى هرون الرشيد فى سن الخامسة والأربعين (٨٠٩) .

٢ — اضمحلال الدولة العباسية

وواصل المأمون الزحف إلى مرو ، وعقد اتفاقاً مع الثوار ، أما الأمين فعاد إلى بغداد ، ونادى بابنه الطفل الرضيع ولياً للعهد ، وطالب المأمون بثلاث من الولايات الشرقية ، ولما رفض المأمون طلبه أعلن الأمين عليه الحرب . وهزم طاهر قائد المأمون جيش الأمين وحاصر بغداد وكاد أن يدمرها تدميرا ، وبعث برأس الأمين إلى المأمون جريا على تلك العادة التى أضحت سنة متبعة . وكان المأمون وقتئذ فى مرو فأمر بالمناداة به خليفة (٨١٣) ، ولكن بلاد الشام وجزيرة العرب ظلت تقاومه لأنه ابن جارية فارسية ، ولم تتم بيعته خليفة على بلاد المسلمين ويدخل بغداد إلا فى عام ٨١٨ .

ويعد عبد الله المأمون هو والمنصور والرشيد أعظم خلفاء بنى العباس . نعم ، إن المأمون لم ينج من الخلتين اللتين شانتا أخلاق هرون الرشيد ، فكان فى بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادئ الطباع ، جمع فى مجلس الدولة ممثلين لجميع الأديان الكبرى فى البلاد كلها

— من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، وصابئين ، وزردشتيين — وضمن لجميع رعاياه حتى أواخر أيامه حرية الدين والعبادة . وظلت حرية التفكير وقتا ما هي السنة المألوفة في بلاط الخليفة . ويصف المسعودي مجلساً من المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون في آخر النهار فيقول :

«كان المأمون يجلس كل يوم للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم . ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون»(٣٠) .

وكان تشجيع المأمون للفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة أكثر تنوعاً ودقة منها في عهد هرون ، وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان له في عهد أبيه . فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية ، والإسكندرية ، وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية ؛ وأنشأ مجمعاً علمياً في بغداد ومرصدين فيها وفي تدمر . وكان الأطباء ، والفقهاء ، والموسيقيون ، والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه ، وكان هو نفسه يقرض الشعر ، كما كان يقرضه أحد أباطرة اليابان في القرن التاسع عشر ، وكما كان يقرضه كل مسلم شريف مهذب في ذلك الوقت .

ومات المأمون في سن مبكرة — في الثامنة والأربعين من عمره (٨٣٣) — وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه . ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأي في الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعته إلى اضطهاد

أصحاب السنة ؛ وكان أخوه أبو إسحق المعتصم ، الذى تولى الخلافة من بعده ، مثله وإن لم يكن مثله فى عبقريته . وقد أحاط هذا الخليفة نفسه بحرس خاص مؤلف من ٤٠٠٠ من الجنود الترك ، شبيه بالحرس البريتورى الذى أحاط به الأباطرة الرومان أنفسهم ، وأصبح هذا الحرس على مر الأيام فى بغداد ، كما أصبح الحرس البريتورى فى رومة ، صاحب الأمر والنهى فى أمور الدولة . وشكا سكان العاصمة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون . وخشى المعتصم أن يثور عليه سكان المدينة فغادر بغداد وبنى لنفسه قصرا فى سرمن رأى على بعد ثلاثين ميلا إلى شمال العاصمة . واتخذ ثمانية من الخلفاء(*) هذه الضاحية مسكنا لهم ما بين عامى ٨٣٦ ، ٨٩٢ ، ودفنوا فيها بعد موتهم ، وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلا على ضفتى نهر دجلة قصوراً فخمة ، ومساجد ، وحذا حذوهم كبار موظفى الدولة ، فشيدوا البيوت الفخمة ، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة ، وأنشأوا فيها الفساقى والحدائق والحمامات . وأراد المتوكل أن يبرهن على صلاحه فأنفق ٧٠٠ر٠٠٠ دينار (٣ر٣٢٥ر٠٠٠ دولار) على تشييد مسجد جامع وأنفق مايقرب من هذا المبلغ فى تشييد ضاحية جديدة له تعرف بالجعفرية(**) أقام بها قصراً يعرف «بقصر اللؤلؤة» وأحاطها كلها بالبساتين والجداول . وقد جمع مايحتاجه من المال لهذه المبانى وما يتصل بها بأن زاد الضرائب ، وباع وظائف الدولة لمن

(*) المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) ، والواثق (٨٤٢ — ٨٤٧) ، والمتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) ، والمنتصر (٨٦١ — ٨٦٢) ، والمستعين (٨٦٢ — ٨٦٦) ، والمعتز (٨٦٦ — ٨٦٩) ، والمهتدى (٨٦٩ — ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢) ، وقد عاد المعتمد قبيل وفاته إلى بغداد .

(**) يقول الطبرى إن اسم الضاحية هو الجعفرى : « أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى (جزء ١١ فى أخبار سنة ٢٤٥) . (المترجم)

يؤدى أكبر ثمن لها ، وأراد أن يستميل أهل السنة باضطهاد الخارجين عليها ، وحرض ابنه حرسه التركى على قتله ، وتولى الخلافة بعده وتسمى بالمنتصر بالله :

وأفسدت العوامل الداخلية أحوال الخلافة قبل أن تقضى عليها القوى الخارجية : فقد أنهك قوى الخلفاء إدمانهم الشراب ، وانهماكهم فى الشهوات ، واللهو ، والترف ، والبطالة ، فجلس على سرير الملك طائفة من الخلفاء الضعاف فروا من مهام الحكم إلى ملذات الحريم المضعفة للجسم والعقل . وكان لازدياد الثروة ، واستمهاد الراحة ، وانتشار التسرى وتفشى اللواط ، كان لهذه الرذائل من الأثر فى طبقة الحكام ما كان لها فى الخلفاء ، وتعدى ذلك إلى الشعب نفسه ، فضعفت صفاته الحربية . ولم يكن من طبيعة هذا الضعف وعدم النظام أن يخلق اليد القوية التى كانت البلاد فى أشد الحاجة إليها لتجمع شتات هذا الخليط المتفرق المتباين من الولايات والقبائل . وكثيراً ما أسفرت العداوة العنصرية والإقليمية عن ثورات . فلم يكن العرب ، والفرس ، والسوريون ، والبربر ، والمسيحيون ، واليهود ، والأتراك ، لم يكن هؤلاء جميعا يجتمعون إلا على احتقار بعضهم بعضا ، وزاد الطين بلة أن الدين الذى كان من قبل يجمع شملهم ويوحد صفوفهم قد تفرق شيعاً ، وزادت حدة الانقسامات السياسية والجغرافية ، وكانت هى المعبرة عن هذه الانقسامات . وكان لإهمال وسائل الرى أثر كبير فى ضعف الدولة وفساد أحوالها . ذلك أن نظام الرى هو مصدر حياة بلاد الشرق الأدنى وهلاكه معاً : فالقنوات التى تمد الأرض بالماء تحتاج على الدوام إلى كثير من الحراسة والتطهير يعجز عنها الأفراد والأسر . فلما عجزت الحكومة عن تعهد هذه القنوات أو أهملتها ، قلت موارد الطعام عن مجاراة نسبة ازدياد السكان ، وكان لابد من أن يهلك الناس من الجوع حتى لا يختل التوازن بين هذين العاملين الأساسيين اللذين لهما شأن عظيم فى تاريخ العالم . غير أن ماحل بالأهلين من فقر بسبب القحط والوباء لم يكن فى معظم الأوقات ليغل أيدى جباة الضرائب أو يخفف من قسوتهم . فكان

الفلاحون ، والصناع ، والتجار يرون مكاسبهم تذهب كلها للوفاء بنفقات الحكومة وأبهة الحكام ، فانعدم الحافز للعمل والإنتاج ، والتوسع فيهما ، والمغامرة والإقدام . وانتهى الأمر بأن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجة الحكومة ؛ وقلت الإيرادات ، ولم يعد فى وسع الحكام أن يؤدوا أجور الجند بانتظام ، أو أن يسيطروا عليهم . ويضاف إلى هذا أن الترك قد حلوا محل العرب فى القوات المسلحة ، كما حل الألمان محل الرومان فى جيوش رومة ، وكان رؤساء الجند الأتراك من عهد المعتصم إلى آخر أيام الدولة العباسية هم الذين يرفعون الخلفاء إلى العرش ويسقطونهم ، ويأمرونهم ، ويغتالونهم . وأصبحت قصور الخلفاء فى بغداد مباءة للدسائس الدنيئة ، والاغتيالات وسفك الدماء ، مما جعل الخلافة العباسية فى آخر أيامها غير خليقة بأن يبقى التاريخ على ذكراها .

وكان ضعف النشاط السياسى والقوة الحربية فى عاصمة الدولة سبباً فى تمزيق شملها وتقطع أوصالها . فأصبح الولاة يحكمون ولاياتهم دون أن يكون للخلفاء فى العاصمة سلطان عليهم اللهم إلا سلطانا اسمياً غير ذى بال ؛ وأخذوا يعملون ليحتفظوا لأنفسهم بمناصبهم طول حياتهم ، ثم لم يكتفوا بهذا بل عملوا على أن يرثها من بعدهم أبناؤهم . وكانت بلاد الأندلس قد أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية فى عام ٧٥٦ ، وحذت حذوها مراكش فى عام ٧٨٨ ، وتونس فى ٨٠١ ومصر فى ٨٦٨ . وبعد تسع سنين من ذلك العام الأخير استولى أمراء مصر على الشام ، وحكموا الجزء الأكبر منها حتى عام ١٠٧٦ . وكان المأمون قد كافأ قائده طاهر بأن عينه حاكما على خراسان وجعل ولايتها وراثية فى أبنائه من بعده . وحكمت هذه الأسرة الطاهرية بلاد الفرس حكماً شبه استقلالى حتى حلت محلها أسرة الصفاريين (٨٧٢ — ٩٠٣) ، وفيما بين عامى ٩٢٩ ، ٩٤٤ استولت أسرة من الشيعة هى أسرة بنى حمدان على شمالى الجزيرة والشام ، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية فى

العالم الإسلامى . وكان سيف الدولة الحمدانى (٩٤٤ — ٩٦٧) شاعراً بليغاً ، اجتمع فى بلاطه بجانب الفيلسوف الفارابى ، والشاعر العظيم المتنبى أحب الشعراء الأقدمين إلى قلوب الأدباء العرب . واستولى بنو بويه أبناء أحد زعماء البلاد الجبلية المجاورة لبحر الخزر على أصفهان وشيراز ، ثم استولوا آخر الأمر على بغداد نفسها فى عام ٩٤٥ . وظل الخلفاء أكثر من مائة عام يأتمرون بأمرهم حتى لم يكن أمير المؤمنين أكثر من رئيس لأهل السنة من المسلمين ، بينما كان الأمير البويهى الشيعي هو المسيطر على شئون الدولة الآخذة رقعتها فى النقصان . ونقل عضد الدولة أعظم أمراء بنى بويه (٩٤٩ — ٩٨٣) عاصمته إلى شيراز وهى مدينة من أجمل مدن الإسلام ، ولكنه كان ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته ، واستعادت بغداد فى أيامه وأيام من خلفوه من الأمراء بعض ما كان لها من المجد فى أيام هرون الرشيد .

وفى عام ٨٧٤ أقام أبناء سامان ، وهو شريف من أتباع زرادشت ، أسرة سامانية حكمت خراسان وما وراء نهر جيحون حتى عام ٩٩٩ . وفى عهد هذه الأسرة كانت بخارى وسمرقند مركزين للعلوم والفنون تنافسان فيهما بغداد نفسها ، وإن لم يكن من عادتنا إذا ذكرنا هذا الإقليم أن نعده ذا شأن عظيم فى تاريخ العلم والفلسفة . وعادت اللغة الفارسية فيه إلى الحياة وأصبحت أداة للتعبير عن أدب راق عظيم . وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها ، وفتحوا له أبواب مكتبة بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات ، وأهدى الرازى أعظم أطباء العصور الوسطى إلى أحد الأمراء السامانيين كتابه **المنصورى** وهو كتاب جامع ضخم فى الطب . ثم استولى الأتراك فى عام ٩٩٠ على مدينة بخارى وقضوا فى عام ٩٩٩ على الأسرة السامانية . فقد كان المسلمون فى ذلك الوقت يحاربون ليقفوا زحف الأتراك نحو الغرب ، كما ظل الرومان ثلاثة قرون يحاربون ليصدوا زحف العرب ، وكما كافح الترك فيما بعد

ليقفوا تيار المغول الجارف . ذلك أن ما ينشأ من تكاثر السكان من ضغط شديد على وسائل العيش يؤدى من حين إلى حين إلى هجرات ضخمة تطغى أهميتها على غيرها من حوادث التاريخ .

وفى عام ٩٦٢ غزا جماعة من المغامرين الأتراك القادمين من التركستان بلاد الأفغان . وكان يقودهم عبد محرر يدعى البتجين ، واستولوا على غزنة وأقام فيها أسرة غزنوية . وخلف البتجين سبكتكين (٩٧٦ — ٩٩٧) ، وكان أولا مولى من مواليه ، ثم زوج ابنته . وقد مد حدود ملكه حتى شمل بيشاور وبعض خراسان ، ثم استولى ابنه محمود (٩٩٨ — ١٠٣٠) على جميع بلاد الفرس من الخليج الفارسى إلى نهر جيحون ، وبعد سبع عشرة معركة حامية امتازت بضروب من القسوة أضاف البنجاب إلى ملكه ، كما أضاف كثيراً من أموال الهند إلى خزائنه . ولما أتخمه النهب ، وضاق ذرعا بالتعطل الناشئ من تسريح جنوده ، أخذ ينفق بعض ماله ، ويستخدم بعض رجاله ، فى تشييد مسجد غزنه وهو المسجد الكبير الذى يقول فيه أحد المؤرخين المسلمين : (العتبى — أبو النصر محمد فى كتاب اليمينى أو الرسالة اليمينية) :

« وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف(*) متى شهدوا الفرض أخذوا أماكنهم فيها صفوفاً وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا ، وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السماء على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين . ينتابها فقهاء دار الملك وعلماء للتدريس والنظر فى علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة ، فلهم من سهمهم جراية وافرة ، ومعيشة حاضرة . وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضى إليه فى أمن من ابتذال العيون اللوامح واعتراض الرجال

(*) فى الأصل الإنجليزى ستة آلاف . والنص الوارد هنا منقول من تاريخ اليمينى — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . (المترجم)

من بين صالح وطالح فيركب إليه على وقور سكينة وشمول طمأنينة[٣١] » .
واستقدم محمود إلى هذه المدرسة وإلى بلاطه كثيراً من العلماء منهم البيرونى ، وكثيراً من الشعراء ومنهم الفردوسى صاحب الشاهنامة أعظم قصيدة فى الأدب الفارسى ؛ وقد أهداها إليه على كره منه . وكان محمود فى ذلك الوقت أعظم رجال العالم كله من نواح عدة ، ولكن مملكته انتقلت بعد سبع سنين من وفاته إلى أيدى الأتراك السلاجقة .

ونحن نخطئ إذا صورنا الترك فى صورة أقوام همج ، فمن حقهم علينا أن نقول إنهم حين أغاروا على بلاد الإسلام كانوا قد أخذوا ينتقلون من طور الهمجية إلى طور الحضارة ، شأنهم فى هذا شأن الفيالق الألمانية التى غزت بلاد الإمبراطورية الرومانية . لقد أخذ الأتراك الساكنون فى شمالى آسية الوسطى يتحركون نحو الغرب من إقليم بحيرة بيكال ، وكانوا قد نظموا أنفسهم فى القرن السادس الميلادى جماعات يتزعم كلا منها خان أو شاغان . وكانوا يصهرون الحديد الذى يستخرجونه من جبالهم ، ويصنعون منه أسلحة صلبة كصلابة قوانينهم التى لم تكن تكتفى بجعل الإعدام جزاء الخيانة والقتل ، بل كانت تجعله أيضا عقاباً على الزنى والجبن . وكان خصب نسائهم يفوق قتلى حروبهم ؛ ولم يحل عام ١٠٠٠ م حتى كان فرع من أولئك الأتراك يسمون السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق قد سيطروا على ما وراء نهر جيحون وعلى بلاد التركستان . وظن محمود الغزنوى أن فى مقدوره أن يقف زحف هذه القوة التركية المنافسة له ، فقبض على أحد أبناء سلجوق وسجنه فى الهند (١٠٩٢) . ولكن هذا العمل لم يفت فى عضد السلاجقة بل أثار ثائرتهم فزحفوا بقيادة زعيمهم طغرل بك المحنك الشديد البأس واستولوا على معظم بلاد الفرس ، ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم فى المستقبل ، فأرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم بأمر الله فى بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام ؛ وكان الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بنى بويه ، فأرسل

إلى طغرل بك يدعوه لمعونته . ولبى طغرل الدعوة فأقبل فى عام ١٠٥٥ ، وفر بنو بويه من بغداد . وتزوج القائم بابنة أخى طغرل وخلع عليه لقب « ملك الشرق والغرب » (١٠٨٥) . وأخذت الأسر الصغيرة فى غربى آسية الإسلامى تسقط أسرة بعد أسرة أمام السلاجقة وتعترف بسيادة بغداد عليها . ولقب الحكام السلاجقة أنفسهم بلقب سلطان ولم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية ، ولكنهم بعثوا فى الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم ، كما بعثوا فى الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم . ولم يفعل السلاجقة ببلاد الإسلام ما فعله المغول بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، فهم لم يخربوا البلاد التى فتحوها ، ولم يمض عليهم إلا قليل من الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التى أقبلوا عليها ، وألفوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المحتضرة إمبراطورية جديدة ، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت به أن تصمد لذلك النزاع الطويل بين المسيحية والإسلام ، الذى نطلق عليه اسم الحروب الصليبية ، وتخرج منه ظافرة منتصرة .

الفصل الرابع

أرمينيـــة

(٣٢٥ — ١٠٦٠)

امتدت فتوح الأتراك السلاجقة إلى أرمينية فى عام ١٠٦٠ م

لقد ظلت هذه البلاد البائسة قروناً طوالا مطمعاً للإمبراطوريات الكبيرة المتنافسة التى أنشبت فيها مخالبها ، لأن جبالها حالت بينها وبين اتحادها للدفاع عن نفسها ، بينما كانت وديانها طرقاً ميسرة بين بلاد النهرين والبحر الأسود . واقتتلت بلاد الفرس واليونان لامتلاك هذه الطرق للانتفاع بها فى التجارة والحرب ، واجتازتها جنود أكسانوفون العشرة الآلاف ، واحتربت من أجلها رومة وفارس وبيزنطية والإسلام ، والروسيا وبريطانيا . ولكن أرمينية ظلت مستقلة من الوجهة الفعلية رغم ما حاق بها من الضغط الخارجى أو السيطرة الخارجية محتفظة بما لها من نشاط اقتصادى قوى فى التجارة والزراعة ، ومن استقلال ثقافى أثمر فيها دينها الخاص وآدابها وفنونها : وكانت هى أولى الأمم التى جعلت المسيحية دين الدولة الرسمى (٣٠٣) . وانحازت إلى جانب اليعاقبة فى الجدل الذى قام حول طبيعة المسيح ، وأبت أن تعترف بأنه يجوز عليه من أسباب الضعف ما يجوز على الجسم البشرى . وانفصل الأساقفة الأرمن فى عام ٤٩١ عن الكنيستين اليونانية والرومانية وأنشأوا لهم كنيسة أرمنية مستقلة لها رئيسها الخاص . وظلت الآداب الأرمنية تكتب باللغة اليونانية إلى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد حين اخترع الأسقف مسروب حروفاً هجائية خاصة بها وترجم التوراة إلى اللغة الأرمنية ، وأصبح للبلاد من ذلك الحين أدب أرمنى غزير معظمه أدب دينى وتاريخى .

وظت تلك البلاد خاضعة بالاسم إلى سلطان الخلفاء من عام ٦٤٢ م إلى عام ١٠٤٦ م ، ولكنها كانت طوال هذه المدة صاحبة السياة على نفسها مستمسكة بمسيحيتها . وأقامت أسرة البجرتونى Bagrtuni فى القرن التاسع الميلادى أسرة حاكمة اتخذ رئيسها لقب « أمير الأمراء » ، وأنشأت لها عاصمة فى آنى Ani ، وظلت البلاد فى عهدها أجيالا عدة تنعم بالتقدم والسلام النسبى . وكان أشوت Ashot الثالث (٩٥٢ — ٩٧٧) أميراً محبوباً ، شاد كثيراً من الكنائس ، والمستشفيات والأديرة ، والملاجئ ، ولم يكن يجلس للطعام (كما يقول الرواة) إلا إذا كان الفقراء معه على مائدته . وبلغ رخاء البلاد غايته فى عهد ابنه جاجيك Gagik الأول (وما أغرب ما تبدو أسماؤنا نحن للأرمن) ؛ فقد كثرت فيها المدارس ، وأثرت المدن بفضل انتشار التجارة ، وازدانت بأعمال الفن ، وأصبحت قارص مركزاً للأدب وعلوم الدين والفلسفة تنافس فيها آنى . وكان فى هذه المدينة الثانية قصور فخمة ، وكنيسة كبرى (حوالى عام ٩٨٠) ، جمعت بين الطرازين الفارسى والبيزنطى ؛ فكان فيها مجاميع من العمد والأكتاف ، والعقود المستديرة والمستدقة فى أعاليها ، إلى غير هذه من الخصائص التى دخلت فيما بعد فى الفن القوطى . ولما أن دمر زلزال قبة أياصوفيا بالقسطنطينية فى عام ٩٨٩ عهد إمبراطور بيزنطية إلى تاردات Tardat مهندس كنيسة آنى أن أعيد بناؤها ، وكان ذلك واجباً من أشق الواجبات وأعظمها خطورة[٣٢]

الباب الحادى عشر

أحوال البلاد الإسلامية

(٦٣٨ – ١٠٥٨)

الفصل الأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل – ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته. فمن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور، والهياكل، والمدارس، والآداب، والترف، والفنون، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين فى الحضارة، الإنسان الصياد يأتى بالصيد من الغاب؛ والحطاب يقطع الأشجار منها؛ والراعى يرعى قطعانه ويربيها؛ والفلاح يمهد الأرض، ويحرثها، ويزرعها، ويحصد غلاتها، ويعنى بالحدائق، والكروم، ويربى النحل، والدواجن والطيور؛ والمرأة تنهمك فى مئات الصنائع اليدوية والأعمال المنزلية؛ والعامل ينقب عن المعادن فى باطن الأرض، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن؛ والصانع ينتج السلع والأدوات، والبائع الجائل، أو صاحب الحانوت، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية، والمواد الأولية، والعقل لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع. أولئك هم العمال الصابرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المتمايلة المتأرجحة حضارة العالم المزعزعة.

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين فى بلاد الإسلام . فكان الرجال يربون الماشية ، والخيل ، والإبل ، والمعز ، والفيلة ، والكلاب ؛ ويسطون على عسل النحل ، ولبن الإبل ، والمعز ، والبقر ؛ وينتجون مائة نوع من الحبوب ، والخضر والفاكهة ، والنقل ، والأزهار . لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند فى وقت ما خلال القرن العاشر الميلادى ، وأدخلوها فى بلاد الشام ، وآسية الصغرى ، وفلسطين ، ومصر ، وأسبانيا . ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية[1] . كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروهما فى جميع أنحاء الشرق الأدنى ، ومن تلك البلاد نقلهما الصليبيون إلى أوطانهم[2] ؛ وكان العرب أول من زرع القطن فى أوروبا[3] ، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جدب قاحل بفضل وسائل الرى المنظم ؛ ولم يجر الخلفاء فى الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية للمشروعات الحرة ، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الرى الرئيسية وتتعهدها بالصيانة والتطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمين عند بغداد . وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المخربة والضياع التى هجرها سكانها . وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يعد فى أثناء القرن العاشر « إحدى الجنات الأرضية الأربع » — وكانت الثلاث الأخرى هى جنوبى فارس ، وجنوبى العراق ، والإقليم المحيط بدمشق فى بلاد الشام .

وكان الذهب والفضة ، والحديد ، والرصاص ، والزئبق ، والإثمد ، والكبريت ، وحجر الفتيلة (الأسبستوس) ، والرخام ، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض ، وكان الغواصون يستخرجون اللؤلؤ من الخليج الفارسى ؛ واستخدم

العرب النفط والقار فى بعض أعمالهم ، فقد وجد بين محفوظات هرون الرشيد ورقة سجل فيها ثمن النفط والعشب اللذين استخدما فى حرق جثة جعفر [٤] .
وكانت الصناعة لا تزال فى مرحلة العمل اليدوى ، يقوم بها الأهلون فى البيوت والحوانيت ، وينتظمون فى طوائف . وقل أن تعثر فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث ، ولا نجد دليلا واضحاً على ارتقاء الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحين الهوائية . فالمسعودى أحد مورخى القرن العاشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين فى فارس وبلاد الشرق الأدنى ، مع أننا لا نجد أثراً لها فى أوروبا قبل القرن الثانى عشر ، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامى إلى أعدائه الصليبيين [٥] . وكان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية ، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التى أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش . وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باباً يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ، ثم ينسحبون ويغلقون الباب [٦] . وكان الإنتاج بطيئاً ، ولكن الصانع كان فى وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف ، وأدوات كاملة الصنع ، وكاد يجعل من كل صناعة فنا . واشتهرت المنسوجات الفارسية ، والشامية ، والمصرية بجمالها الفنى الرائع الذى كان يتطلب من الصناع مهارة وصبراً ؛ فاشتهرت الموصل بنسيج القطن الرفيع « الموصلين » ، ودمشق بنسيج التيل « الدمقس » ، وعدن بالصوف . واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المسقى ؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذى لا يدانيه زجاج فى رقته وصفائه ، وبغداد بزجاجها وخزفها ، والرى بخزفها ، وإبرها ، وأمشاطها ؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون ، وفارس بالروائح العطرية والطنافس . وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعى والتجارى لم تصل إليها بلاد أوروبا الغربية قبل القرن الساس عشر [٧] .

وكانت أهم وسائل النقل البرى هى ظهور الإبل ، والخيل والبغال والرجال ، لكن الحصان كان بوجه عام أثمن من أن يستخدم فى حمل الأثقال ، وفيه يقول أعرابى « لا تسمه حصانى ، بل سمه ولدى ؛ فهو فى عدوه أسرع من الريح ومن طرفة العين . . . وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها »[٨] . ومن أجل هذا كان الجمل « سفينة الصحراء » يحمل معظم تجارة العرب ، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إلى ٤,٧٠٠ جمل تخترق بلاد العالم الإسلامى . وكانت طرق كبرى تتشعب من بغداد وتمر بالرى ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين ؛ أو إلى البصرة فشيراز ؛ أو إلى الكوفة فالمدينة ، ومكة وعدن ؛ أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق . وأنشئت النزل ، والخانات ، والمضايف ، وصهاريج الماء فى الطرق ليستقى منها المسافرون والدواب . وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل فى الأنهار والقنوات . وقد فكر هرون الرشيد فى حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ، ولكن يحيى البرمكى لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية[٦] . وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد ، حيث يبلغ عرضه ٧٥٠ قدماً ، ثلاثة جسور محملة على قوارب .

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين ، وكان من المزايا الاقتصادية التى يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذى كان فيما مضى مقسما بين أربع دول ؛ فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت فى داخلها جميع العوائد الجمركية وغيرها من العوائق التجارية ، هذا إلى أن العرب لم يكونوا كأشراف الأوربيين يسخرون من التجار ويزدرونهم ، ولهذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين واليهود والفرس فى نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما ، فغصت المدائن والبلدان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون

الجائلون ينادون على سلعهم أمام النوافذ الشبكية ، والحوانيت تعرض بضائعها ، أو تتردد فيها أصداء المساومات ، والموالد والأسواق تغص بالمتاجر والتجار ، والبائعين ، والمشترين ، والشعراء ؛ والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر ؛ وكانت الثغور أمثال بغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة ، والإسكندرية ، تبعث بالتجار يجوبون البحار . وظلت التجارة الإسلامية هي المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية ، تنتقل من الشام ومصر في أحد الطرفين إلى تونس ، وصقلية ، ومراكش وأسبانيا في الطرف الآخر ، وتمر في طريقها ببلاد اليونان ، وإيطاليا ، وغالة . وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة ، وتجاوزت بحر الخزر إلى منغوليا ، وصعدت في نهر الفلجا Volga من أستراخان إلى نوفجرود ؛ وفنلندة ، واسكنديناوة ، وألمانيا حيث تركت آلافاً من قطع النقود الإسلامية . ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفائنهم من الخليج الفارسي إلى الهند وسرنديب ، ثم اجتازت المضيق الذي يفصل بينهما ، وسارت بإزاء الساحل الصيني إلى خنفو (كنتون) ، واستقرت في هذا الثغر جالية إسلامية ويهودية في القرن الثامن الميلادي[١٠] ؛ ووصل هذا النشاط التجاري الذي بعث الحياة قوية في جميع أنحاء البلاد إلى غايته في القرن العاشر أي في الوقت الذي تدهورت فيه أحوال أوربا إلى الدرك الأسفل ؛ ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبقت آثارها واضحة في كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فيها ألفاظاً مثل bazaar, cravan, magazine, tariff(*).

وكانت الدولة تترك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حد كبير . وكان الخلفاء الأولون يستخدمون النقود البيزنطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك في عام ٦٩٥ عملة عربية من الذهب

(*) اللفظان الأولان من أصل عربي وهما التعريفة والمخزن ، الثالث والرابع من أصل فارسي . (المترجم)

هى الدينار وأخرى من الفضة هى الدرهم . ويصف ابن حوقل (حوالى ٩٧٥) صكا كان تعهداً بالدفع قيمته ٤٢,٠٠٠ دينار مصدراً إلى تاجر فى مراكش ؛ وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check ؛ وكان ذوو المال يستثمرون أموالهم فى الأسفار البحرية والبرية ، ومع أن الربا محرم فى الإسلام فإن المشتغلين بالشئون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها فى هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوربيون فيما بعد .

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشرا رغم هذا التحريم ؛ ولم يكد يمضى على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا فى ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء[١١] ؛ ويقال إن يحيى البرمكى عرض سبعة آلاف ألف درهم (٥٦٠,٠٠٠ دولار أمريكى) ثمناً لصندوق للآلئ مصنوع من الحجارة الكريمة ، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن ؛ وإن الخليفة المكتفى ، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التى يوردها مؤرخو العرب ، ترك حين وفاته ما قيمته ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار[*] (٩٤,٥٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى) من الجواهر والعطور[١٢] . ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بدرة من اللؤلؤ ، ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحتوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق فى عبد .

(*) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الرومانى ديناريوس ، وكان يحتوى على ٥٦ جراماً من الذهب . أو ١٣٥ و من الأوقية : أو ما قيمته ٤,٧٢٥ دولار حسب قيمة الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ . وسنقدره نحن فى هذا الباب تقديراً تقريبياً بـ ٤,٧٥ دولارات . أما كلمة درهم فهى مشتقة من كلمة درخمة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة وتبلغ قيمتها نحو $\frac{٨}{١٠٠}$ من الدولار الأمريكى . ولما كان مقدار ما فى الدرهم من الفضة قد تغير كثيراً فإن تقديرنا لقيمته تقريبى بطبيعة الحال .

أو جواد ، أو ضيعة ، أو هدية أخرى[١٣] . ولما أن صادر المقتـــدر ١٦٠٠٠٫٠٠٠ دينار من ثروة ابن الجصاس ، بقيت لهذا الصائغ الشهير بعد ذلك ثروة طائلة . وكانت ثروة بعض التجار ذوى الصلة بالأقطار النائية وراء البحار لا تقل عن ٤٠٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، وكان مئات من التجار يملكون بيوتاً تتراوح نفقاتها بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم (١٤٢٫٥٠٠ دولار)[١٤] .

وكان مركز العبيد فى الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادى . ولربما كان عددهم فى الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر منه فى المسيحية حيث كان أرقاء الأرض يحلون محل العبيد . ويقول الرواة إن بيت الخليفة المقتدر كان يضم ١١٫٠٠٠ من الخصيان ، وإن موسى بن نصير قبض فى إفريقية على ٣٠٠٫٠٠٠ أسير ، وفى أسبانيا على ٣٠٫٠٠٠ « عذراء » وباع الجميع فى أسواق الرقيق ؛ وإن قتيبة قبض فى سجديانا على ١٠٠٫٠٠٠ أسير . وخليق بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً كما هى عادة المؤرخين العرب ، وإلى أن من واجبنا ألا نأخذها كما هى وقد عمل الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء ، فقصر الاسترقاق المشروع على من يؤسرون فى الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم . أما المسلم فلا يجوز أن يسترق (كما لم يكن يجوز فى الدين المسيحى أن يسترق المسيحى) . ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من يقبض عليهم فى الغارات — كالزنوج من بلاد الشرق ، ومن أواسط أفريقية ؛ والأتراك أو الصينيين من التركستان ، والبيض من الروسيا وإيطاليا ، وأسبانيا . وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده ، ولكنه كان فى العادة يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل فى المصانع الأوروبية فى القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع ، لأنه كان آمن على حياته منه[١٥] ، وكان الأرقاء يقومون بمعظم

الأعمال الدنيا فى المزارع ، وبأكثر الأعمال اليدوية التى لا تحتاج إلى مهارة فى المدن . وكانوا يعملون خدماً فى البيوت ، وكان من رجالهم خصيان ومن النساء جوار فى الحريم . وكانت كثرة الراقصات ، والمغنيات والممثلات من الجوارى . وكان ابن الجارية من سيدها ، وابن المرأة الحرة من عبدها ، حراً من ساعة مولده . وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناؤهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة . وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجوارى الذين كان لهم شأن عظيم فى الحياة العقلية والسياسية فى العالم الإسلامى ، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوى والمماليك فى مصر .

ولم يبلغ استغلال العمال فى بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه فى البلاد الوثنية أو المسيحية ، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار ، ولا يكسب إلا ما يكفى لابتياع خرقة تستر حقويه ، أو إقامة كوخ يعيش فيه ، أو الحصول على طعام لا يكاد يقيم أوده . وكان المتسولون كثيرين فى البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن ، ولايزال الكثيرون منهم مخادعين مدعين ؛ ولكن الأسيوى الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته فى العمل البطىء ، وقل أن يوجد فى الناس من يضارعه فى تكييف نفسه لظروف التعطل عن العمل . وكانت الصدقات كثيرة متعددة ، وكان فى وسع الفقير إذا ضاقت به السبل أن ينام فى أحسن بناء فى المدينة — وهو مسجدها ؛ ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم تخمد جمرتها قط ، وكان لهيبها يندلع من آن إلى آن فى البلاد الإسلامية (٧٧٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٨ ، ٨٣٨) فى ثورات عنيفة . وكانت هذه الثورات تستتر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا فى البلاد الإسلامية شيئاً واحداً . وكان منهم شيع كالخرمية والمحيدة تعتنق آراء مزدك الفارسى الشيوعية ؛ ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أى « العلم الأحمر »[١٦] ؛ وقام فى عام ٧٧٢ رجل فى خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل فى جسمه ، وإنه بعث

ليعيد شيوعية مزدك . واجتمعت حوله عدة طوائف ، وهزم كثيراً من الجيوش التي أرسلت للقبض عليه ، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس ، ثم قبض عليه أخيراً (٧٨٦) وأعدم . وأثار بابك الخرانى الفتنة نفسها فى عام ٨٣٨ وجمع حوله طائفة سميت المحمرة ، واستولى بها على آزربيجان ، وظلت فى قبضته اثنتين وعشرين سنة ، وهزم عدة جيوش وقتل (على حد قول الطبرى) ٢٢٥,٥٠٠ جندى وأسير قبل أن يهزم ؛ وأمر الخليفة المعتصم جلاد بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً ، ثم خزق أمام قصر الخليفة ، وحملوا رأسه إلى خراسان وطافوا به فى مدنها[١٩] ، ليذكر كل من يراه أن الناس كلهم يولدون غير أحرار وغير أكفاء .

وكانت أهم «حروب الأرقاء» فى الشرق هى التى أثار عجاجها رجل عربى اسمه على(*) ادعى أنه من نسل على بن أبى طالب زوج فاطمة بنت النبي . وتفصيل ذلك أن عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعملون فى كسح السباخ بالقرب من البصرة ، فأخذ على هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة ، ويحرضهم على أن يثوروا معه على ساداتهم ، ويعدهم بالتحرر من الرق وبالثروة — وأن يكونوا هم مالكين للعبيد . وأثرت فيهم دعوته ، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد ، وهزموا الجيوش التى سيرت لقتالهم ، وأنشأوا لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعمائهم ، وسجون لأسراهم ، ومساجد لصلواتهم (٨٦٩) . وعرض أصحاب العمل أن يؤدوا لعلى خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقنعهم بهذه العودة ، فأبى . وحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عنهم ، ولكنهم حين نفدت مؤونتهم هاجموا بلدة الأبلّة ، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ، ثم نهبوها وأشعلوا فيها النار (٨٧٠) . وتشجع على بهذا النصر فهاجم عدة بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ؛ وسيطر على جنوبى إيران والعراق

(*) اسمه على بن محمد . (المترجم)

حتى دق أبواب بغداد نفسها . وتعطلت التجارة ، وقل الطعام فى العاصمة : وفى عام ٨٧١ استولى المهلبى قائد الزنوج على البصرة ، وذبح ثلثمائة ألف من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال البيض بعضهم من بنى هاشم أنفسهم — إذ صدقنا أقوال المؤرخين . وظلت نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت فى خلالها عدة جيوش لتقليم أظفارها ، وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو ، فخرج على علىّ كثيرون من رجاله ، وانضموا إلى جيوش الحكومة . ثم حوصر من بقى منهم ، وضيق عليهم الخناق ، وسلط عليهم الرصاص المصهور و«النار اليونانية» ، وهى مشاعل من النفط الملتهب ، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير الموفق إلى مدينة الثوار ، وتغلب على ما لقيه من المقاومة ، وقتل علياً وحمل رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته (٨٨٣)[٢٠] . ودامت هذه الثورة أربعة عشر عاماً حاق فيها الخطر بجميع المقومات الاقتصادية والسياسية فى البلاد الشرقية الإسلامية . وانتهز أحمد بن طولون والى مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية :

الفصل الثانى

الإيمـــان

يلى المال والنساء فى شهوات الإنسان رغبته فى النجاة من العذاب فى الدار الآخرة . فإذا امتلأت المعدة بالطعام ، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية ، وجد متسعاً من الوقت ينصرف فيه إلى الله .

ولقد كان المسلمون كثيرى التفكير فى ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعتهم ، وحكومتهم ، قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويتطلب الجزء الثانى من هذا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به ، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، والبعث ، والقضاء والقدر ، ويوم الحساب . وقواعد الإسلام بعد الشهادتين هى الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت . ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحى « ولكل أمة رسول » (سورة يونس ٤٨) . ويعتقد بعض المسلمين أن عدة أولئك الرسل ٢٢٤٠٠٠ ، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله . ولهذا فإن على المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل ، ويعتقد أن ما ورد فيهما من وحى الله ، فإذا ما اختلفا عن القرآن فى شىء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد . وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتب السماوية ، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسله . والمسلمون يعتقدون أن محمداً بشر من خلق الله ، ولكن احترامهم إياه لا يقل عن احترام النصارى للمسيح ، وفى ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين

إنه لو كان حياً فى زمان النبى لما تركه يطأ الأرض بقدمه المباركة ولحمله على كتفيه أينما أراد .

والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد فى القرآن وحده ، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسنن النبوية التى احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون . ذلك أن المسلمين قد واجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جواباً صريحاً فى القرآن . كذلك وردت فى القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح . ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبي أو الصحابة وما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات . ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث ، وامتنعوا عن تدوينها فى القرن الأول من الهجرة(*) . وأنشأوا مدارس للحديث فى مختلف المدن يلقون فيها دروساً عامة فى الحديث والسنن النبوية ، ولم يكن من غير المألوف أن يسافر الواحد منهم من الأندلس إلى بلاد

(*) يقول المؤلف إن المسلمين امتنعوا عن تدوين أحاديث الرسول فى القرن الأول الهجرى ، والحق أنه كان من الصحابة من لا يرى تدوين الحديث لكى تكون الهمة مقصورة على القرآن وحده ، ولكن من الحق أيضاً أن تدوين الحديث بدئ منذ فجر الإسلام فى القرن الأول ، بل أن بعض ذلك يرجع إلى عهد الرسول نفسه .

لقد جاء فى صحيح البخارى أن الرسول أمر فكتبت خطبته التى خطبها يوم فتح مكة ، وفى هذا الباب أيضا نجد أبا هريرة يقول : ما من أحد أحفظ منى لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أكثر منى رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبى صلى الله عليه وسلم ولم أكن أكتب . وفى سنن أبى داود ومسند الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الغضب والرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى عليه وسلم فقال : « اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق » وأومأ بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك . راجع مسند أحمد ، ج ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ ، سنن أبى داود ، ج ٢ : ٢٢٠ ، وجامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ، ج ١ : ٧١ . وراجع أيضاً بحثا قيما فى ذلك ، للعلامة السيد سليمان عبد القدوس ، الرسالة المحمدية طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ ه ص ٥٣ وما بعدها . (ى)

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته . وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السنن الشفوية إلى جانب القرآن شبيهة بالمشنا والجمارا اللذين تجمعا حول التوراة ، وفعل البخارى بهذه الأحاديث فى عام ٨٧ ما فعل يهودا هاناسى بشرائع اليهود غير المكتوبة فى عام ٨٩ ، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو ستمائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقدها ٧٢٧٥ ونشرها فى صحيحة منسوبة فى سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبى نفسه .

تُلقى الكثير من أحاديث النبي ضوءا جديداً على العقائد الإسلامية . نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتى بمعجزات ، ولكن ثمة أحاديث تروى بعض ما قام به من خوارق العادات : كيف أطعم عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكفى شخصاً واحداً ، وكيف أخرج الشياطين من جسم بعض الناس ، وكيف أنزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة ، وكيف مسّ ضرع ماعز جافة فأدرت اللبن ، وكيف شُفِيَ المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه .

وتحث بعض الأحاديث على حب الأعداء ، وإن كانت آراء محمد فى هذه الناحية أشد من آراء المسيح . وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل(*) كما يعزى إلى محمد حديث يروى قصص الزراع ، وضيوف العرس وعمال الكرم ، وقصارى القول أن رواة الأحاديث قد وصـــفوا النبي بخير ما نجده فى المسيحية من فضائل على الرغم من زوجاته التسع ، ويقول بعض النقاد المسلمين : إن كثيراً من الأحاديث قد دستها على النبي الدعاوة الأموية أو العباسية أو غيرها . وقد اعترف ابن العوجاء الذى أعدم فى الكوفة سنة ٢٧٢ أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين لا يصدقون معظم الأحاديث ومنهم من زيف بعضها وصاغها فى صيغة الأحاديث الصحيحة .

(*) الصلاة الربانية عند المسيحيين هى التى تبدأ بقولهم : أبانا الذى فى السموات .. الخ »

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة في إحدى المجموعات المتفق على صحتها ، من الصفات التي يمتاز بها المسلمون المتمسكون بدينهم والذين يطلق عليهم اسم السنيين . ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جبريل النبي عن ماهية الإسلام فيجيبه النبي بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج هي الواجبات الأربعة المفروضة على كل مسلم ، وهي مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله « أركان الإسلام الخمسة » .

ولا بد أن يسبق الصلاة الوضوء ، وإذ كانت الصلاة تؤدى خمس مرات في اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق : فالإسلام كاليهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الخلق ، وهما في هذه الناحية يعملان بالمبدإ القائل إن الإنسان لا يعقل الشيء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين : وكان النبي يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ؛ ويحث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة ، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء ؛ أما تلك الفرائض فهي : غسل الوجه واليدين والقدمين(*) (سورة المائدة ٦) وعلى الجنب أن يستحم ، وعلى المرأة التي خرجت من الحيض ، أو الوضع ، أن تتطهر قبل الصلاة . ويصعد المؤذن في بلاد الإسلام المئذنة عند طلوع الفجر ، وفي منتصف النهار ، ووقت العصر ، وعند غروب الشمس ، وفي المساء ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد

(*) ومسح الرأس . (المترجم)

أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ألا ما أقوى هذه الدعوة ، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس ، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة ، وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله فى سكون الليل ، وما أحلى وقع صوت المؤذنين على الآذان ، آذان المسلمين وغير المسلمين ، وهم يدعون النفوس الحبيسة فى الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل ، وتتصل به ذلك الاتصال الروحى الجليل . فى هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم فى جميع بقاع الأرض أن يقف كل عمل أيا كان ، ويتطهر ، ويولى وجهه نحو مكة والكعبة ويقيم الصلوات القصيرة ، بنفس الصورة الدقيقة التى يؤديها بها غيره من المسلمين ، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة فى حركتها الظاهرة حول الأرض .

فمن أمكنه وقته ، وشاءت إرادته ، ذهب إلى المسجد يؤدى الصلاة ، والمساجد تظل فى العادة مفتوحة الأبواب طول النهار ، يؤمها كل مسلم صالح أو زنديق ليتوضأ أو يصلى أو يستريح . وهناك تحت سقفها الظليلة كان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون فى الخصومات ، والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها ليتحدثوا فى كل ما يعنيهم ، ويستمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا فى الأعمال التجارية والمالية فى بعض الأحيان . ذلك أن المسجد كان كالبيعة عند اليهود ، والكنيسة عند المسيحيين ، مركز الحياة اليومية ، والبيت العام للمجتمع كله . وفى يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها يقوم المؤذن ويصلى على النبى ويدعو لأسرته وإلى الصحابة ، ويدعون

المسلمين إلى الصلاة (*) . ويستحب فى هذا اليوم أن يستحم المصلون ، ويلبسوا أثواباً نظيفة ، ويتعطروا ، قبل المجيء إلى المسجد ، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا فى المسجد (**) .

وقد جرت العادة أن تبقى النساء فى بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد ، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله . ويترك المصلون أحذيتهم عند باب المسجد ، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب ، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنباً إلى جنب صفا واحداً أو عدة صفوف ، وولوا وجههم نحو المحراب الذى يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة . ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن ، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات . وليس فى صلاة المسلمين أناشيد ، أو مواكب ، أو قداس ، أو مقاعد مستأجرة ، ذلك أن الدين والدولة شيء واحد عند المسلمين ؛ وهذا فإن الشئون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة . وليس الإمام كاهنا كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادى يكسب قوته بعمل دنيوى يؤديه ، ويعين فى المسجد فترة من الزمان ، ويتقاضى أجراً قليلا ليؤم المصلين (+) ؛ فالدين الإسلامى لا يعترف بالكهانة والقسوسة . والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أراد منهم أن يؤدى عمله المعتاد كما يؤديه فى أى يوم آخر . وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

(*) يحدث هذا أحياناً ولكن الآذان الشرعى مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلاح والتكبير والشهادة . (ى)

(**) ليس على المسلم أن يتوضأ فى المسجد بل الذى عليه أن يكون متوضئا قبل الصلاة فى البيت أو فى المسجد على حد سواء .

(+) ومن الأئمة من لا يتقاضى أجراً . وفى الصلوات الخمس يستطيع أى إنسان أن يؤم المصلين إن كان أهلا لهذه الإمامة . (المترجم)

«المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية ، وتألفت قلوبهم من حيث لا يشعرون باشتراكهم فى هذه الشعائر العامة .

والواجب الثانى المفروض على المسلم هو أداء الزكاة . لقد كان النبى ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح ، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحا اجتماعيا اشمأزت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقر عامة الشعب ، ويبدو أن معظم أتباعه فى أول الأمر كانوا من الفقراء .

وكان من أول ما قام به من الأعمال فى المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف فى المائة على جميع الأملاك المنقولة ، لمعونة الفقراء(*) . وكان فى الدولة الإسلامية موظفون مختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها . وكان جزء من حصيلتها ينفق فى بناء المساجد ، وفى أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيوش . ولكن الحرب كانت تأتى بالغنائم التى تزيد كثيراً من نصيب الفقراء . وما أكثر ما يُروى من قصص المسلمين الأسخياء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء ، فالحسن بن على مثلا يروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات فى حياته وأنه فى مرتين وهبهم كل ما يملك .

والواجب الثالث على المسلمين هو صوم رمضان .. ونقول هنا إن الخمر ، والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والكلب ، محرمة بوجه عام على المسلمين ، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية ، فهو يبيح أكل الطعام المحرم عند الضرورة ، وسئل محمد مرة عن جبن لذيذ يحتوى على لحم محرم ، فقال

(*) فرضت الزكاة بالمدينة حقا وفى السنة الثانية من الهجرة ، ولكنها لا تسمى ضريبة بل تسمى « زكاة » ومعنى الزكاة فى اللغة : الطهارة والنماء والبركة ، وإخراج المقدار الواجب شرعا يطهر به مال المزكى وينميه حقا .

أما المقدار الذى ذكره المؤلف وهو اثنان ونصف فى المائة فهو زكاة للمال النقدى ، وفى سائر الأموال كالزروع والثمار والحيوان مقادير أخرى محددة معروفة فى كتب الفقه . (ى)

للسائل : « اذكروا اسم الله وكلوا(*) » . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم الرهبنة على المسلمين (سورة الأعراف ٣٢) فقد أحل للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها . ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة ، ولتصح به أجسامهم من جهة أخرى . وكان النبي بعد أن أقام فى المدينة بضعة أشهر قد رأى اليهود يصومون صومهم السنوى فأمر أتباعه أن يحذوا حذوهم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام ، فلما تبين أنه لم يستملهم إليه استبدل به صوم رمضان ، فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوما فى بعض السنين وثلاثون فى بعضها الآخر أمسك المسلمون فى أثناء النهار عن الطعام والشراب ، والتدخين وعن الصلات الجنسية . وأبيح الإفطار للمرضى ، والمسافرين المتعبين ، والصغار ، والشيوخ الضعاف ، والحاملات والمراضع ، ولما فرض الصيام فى أول الأمر كان شهر رمضان فى فصل الشتاء حين يقصر النهار ، ولكن رمضان يقع فى فصل الصيف كل ثلاث وثلاثين سنة ، فيطول ويشتد الظمأ فى حر البلاد الشرقية حتى يكون أشبه شيء بالعذاب . ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام . ويفطر المسلمون أثناء الليل فيأكلون ، ويشربون ، ويدخنون ، ويباشرون النساء حتى مطلع الفجر ، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل تؤمها الجماهير ليأكلوا ويستمتعوا ، والفقراء يعملون كعادتهم فى أيام الصوم ، أما الأغنياء ففى وسعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم فى أثناء النهار .

ويقضى الأتقياء الصالحون الليالى العشر الأخيرة من رمضان فى المساجد

(*) عن ابن عباس قال : جيء إلى النبى صلى الله عليه وسلم بجبنة فى غزاة فقال : أين صنعت هذه ؟ قالوا : بفارس ، ونحن نرى أنه يجعل فيها ميتة ، فقال : اطعنوا فيها بسكين ، واذكروا اسم الله وكلوا . رواه أحمد والبزار والطبرانى ، وواضح هنا أن ذلك كان لضرورة وهى الغزاة . (المترجم)

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبي فى إحدى هذه الليالى ، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خير من ألف شهر ، وإذ كانوا لا يعرفون أى الليالى العشر هى ليلة القدر فإن كثيراً من المسلمين يحيونها كلها . فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر ، فيستحمون ، ويلبسون ثياباً جديدة ، ويهنئ به بعضهم بعضا ، ويخرجون الزكاة ، والهدايا ويزورون قبور الموتى .

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحج . ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة فى بلاد الشرق ، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون فى يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان قبل النبي بزمن طويل يحجون إلى الكعبة ، وأقر الإسلام هذه السنَّة القديمة ، وكان هذا الإقرار من الأسباب التى ساعدت على انتشار الإسلام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية . وبذلك أصبحت الكعبة ، بعد أن طهرت من الأصنام ، بيت الله . وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها ، كلما استطاعوا(*) ، ولكن سرعان ما فسر هذا بأنه يعنى مرة فى العمر . ولما أن انتشر الإسلام فى أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم ، وفى مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط .

وقد وصف دوتى Doughty ، وصفا لا يضارعه فى روعته وصف سواه ، منظر قافلة الحجاج وهى تجتاز الصحراء فى حر الشمس اللافح ، ولهيب الرمال المحرقة ، وتتألف من سبعة آلاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد ، راجلين

(*) لم يفرض الحج إلا مرة واحدة فى العمر . (ى)

ولعل المؤلف قد أخذ قوله هذا من إضافة « من استطاع إليه سبيلا » إلى الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو فهم خاطئ بلا شك ، إذ المقصود بهذه العبارة أن يؤدى الفريضة من يستطيع ، أى من تمكنه من أدائها حالته الصحية وموارده وغيرها من ظروفه . (المترجم)

أو ممتطين صهوة الجياد ، أو ظهور الحمير ، أو البغال ، أو الهوادج الفخمة ، ولكن كثرتهم الغالبة تهتز على ظهور الإبل ، وتنحنى بأجسامها فى كل خطوة من خطواتها الطويلة . . . وتسجد خمسين مرة فى كل دقيقة أرادت ذلك أو لم ترده فى اتجاه مكة ، مجتازة ثلاثين ميلا فى اليوم ، وخمسين ميلا فى بعض الأحيان ، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها لتستريح . وفى هذا السير الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون ، ومنهم من يموتون فيتركون(*) تنهشهم السباع المترصدة فى الطريق ، أو يحتضرون فيتركون ليموتوا على مهل ، ويزور الحجاج فى المدينة قبر النبى ، ويشهدون قبر أبى بكر وقبر عمر فى مسجد الرسول ، ويعتقد بعضهم أن فى جوار هذه القبور مكان احتفظ به لعيسى بن مريم .

فإذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها حرم مقدس . ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثواباً بيضاء غير مخيطة ، ويركبون أو يسيرون على أقدامهم مسافة طويلة ، يبحثون عن مساكن لهم فى أحياء المدينة(**) . ويفرض عليهم طوال إقامتهم فى مكة أن يمتنعوا عن جميع المنازعات ، وعن العلاقات الجنسية ، وعن كل ما هو حرام(†) ، وتصبح البلدة

(*) لا شك فى أن هذا الوصف لا ينطبق كله على الكثرة الغالبة من الحجاج فى هذه الأيام أيام الطائرات والسيارات والطرق المعبدة ووسائل الراحة المهيأة لجميع الحجاج . (المترجم)

(**) يحتاج هذا الوصف إلى شىء من الدقة ، فإن كون مكة حرما مقدسا لا يمنع أن يدخلها الحجاج بقوافلهم ، بل هذا ما يحدث فعلا ، ثم إن الإحرام يكون قبل ذلك لا بعده وله مواقيت — وأمكنة معينة معروفة لا يجاوزها الحاج إلا محرما مهما كان البلد الآتى منه ، وأقربها إلى « مكة » بينه وبينها مرحلتان (راجع مثلا دور الحكام للقاضى مثلا خسرو الحنفى ج ١ ص ٢١٨) . (ى)

(†) ليس فرضا على الحجاج الامتناع عن الصلات الجنسية طول مدة إقامته بمكة ، بل ذلك يكون ما دام محرما فقط ، كما هو معروف فى كتب الفقه (انظر التعليق السابق) هذا وليس الامتناع عن المحرمات مقصورا على أيام الحج ، بل هو مفروض على المسلمين فى جميع الأوقات . (ى)

المقدسة فى أشهر الحج ملتقى المسلمين من كافة الأمم ، والأجناس والطبقات ، يشتركون كلهم على قدم المساواة فى مناسك الحج وفى الصلاة ، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنبات شغلتهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التى فوق الجدران ، وعما فيه من عقود وعمد . وعند بئر زمزم التى يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين ، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومهما يكن تأثيره ، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى إلى وطنه ليشرب منه فى بعض أيامه وحين تحضره الوفاة(*) . ويصل الحجاج آخر الأمر ، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب ، إلى قلب المسجد ، إلى الكعبة نفسها ، وهى بناء صغير الحجم مضاء من داخله بمصابيح من الفضة معلقة فى سقفه ، ومكسوة جدرانه الخارجية بكسوة من الحرير الثمين ، وفى أحد أركانه الحجر الأسود الشهير . ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ، ويقبل الحجر الأسود أو يلمسه أو ينحنى تعظيما له . ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها فى داخل المسجد غير عابئين بما عانوا من شدة التعب والسهر ، يجلسون على أبسطته يتحدثون ، ويصلون ويفكرون فى دهشة ونشوة فى الغرض الذى جاءوا من أجله .

وفى اليوم الثانى(**) يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة ، وهما فى خارج المدينة ، إحياء لذكرى هاجر وهى تبحث عن الماء لتروى به ولدها . وفى اليوم السابع يخرج من يبغون « الحج الأكبر » إلى جبل عرفات الذى يبعد عن

(*) من الحجاج من يصر على التزود من ماء زمزم والاحتفاظ بشىء منه فى عودته إلى بلده ولكنا لانعلم ولا نظن أن منهم من يستبقى شيئا منه ليشربه حين تحضره الوفاة . (ى)

(**) السعى بين الصفا والمروة لا يكون فى اليوم الثانى من الوصول إلى مكة ، بل إنه هذا السعى واجب يوم وصوله إليها وطوافه بالكعبة بالمسجد الحرام . وهذا الطواف يسمى طواف القدوم أو طواف التحية أيضا (راجع الكتاب السابق ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٤) . (ى)

بمكة مسيرة سبع ساعات — وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات(*) ، ثم يقفون وهم عائدون فى منتصف الطريق ويقضون ليلة فى المزدلفة . وفى اليوم الثامن يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاثة أعمدة ، اعتقاداً منهم بأن إبراهيم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما حاول أن يثنيه عن ذبح ولده . . . وفى اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرهما من الماشية ذات القرون ، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات(**) ، وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبى نفسه فى مثل ذلك الوقت من حياته ، والمسلمون فى جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح فى هذا اليوم العاشر من شهر ذى الحجة ويوزعون اللحوم والصدقات تقرباً لله . وبعد هذا يحلق الحجاج شعورهم ويقصون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا فى الرمال ، وبذلك ينتهى الحج الأكبر ، ولكن الحجاج فى العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى مخيم القافلة . وهناك يعودون إلى حالتهم الأولى ويلبسون ثيابهم العادية ويبدأون رحلتهم الطويلة إلى أوطانهم مطمئنى البال فخورين بما وفقوا إليه من عمل صالح .

ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة . فهى تقوى إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم ، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفى الجماعى بين المسلم ودينه وبيئته وبين إخوانه المؤمنين ، شأنها فى هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم ، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى رومة . فالحج وما ينطوى عليه من مناسك التى

(*) يخطب الإمام فى موسم الحج ثلاث خطب ، ولكل منها مناسبة يعلم الحجاج فيها ما هم مقبلون عليه من الحج وأعماله وليس منها خطبة واحدة تدوم ثلاث ساعات ، والذين يدرسون الفقه الإسلامى وسيرة الرسول ، يعرفون أن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تجمع بين الإيجاز وكل ما تجب معرفته .

(**) لا تكون الأضحية فى اليوم الثامن من ذى الحجة بل تكون فى اليوم العاشر أى يوم العيد كما هو معروف .

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء ، وبين البربر وزنوج إفريقية ، والشوام ، والفرس ، والأتراك ، والتتار ، والهنود المسلمين ، والصينيين والمصريين ، وغيرهم من الشعوب الإسلامية — يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة ، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهى اللغة العربية ، ولعل هذا هو السبب فى ضعف حدة الفوارق العنصرية فى الإسلام .
وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التى لا تنطبق على العقل . ولكن المسلم يبتسم حين يرى أمثال هذه العادة فى الأديان الأخرى ، ويهوله أن يرى المسيحين فى إحدى شعائرهم « يأكلون الله » . فالمسلمون لا يفهمون من هذا الطواف إلا أنه رمز خارجى لصلة روحية وغذاء روحى . وفى الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام .

والأديان جميعها مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى ، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التى خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح فى كفاحها للخلود . لهذا نرى أن معظم المسلمين(*) يؤمنون بالسحر(**) ، وقلما يشكون فى قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز المخبوءة ، وغرس الحب فى النفوس وتعذيب الأعداء ، وشفاء المرضى ، واتقاء الحسد . ومنهم من يعتقد فى قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك العقائد هى المحور الذى تدور عليه قصص ألف ليلة . ففيها ترى الأرواح فى كل مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء ، وتستولد النساء غير الحريصات ما لا يشتهين من الأبناء ويلبس معظم المسلمين(٣) كما يلبس نصف المسيحيين تمائم لترد عنهم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون

(*) يقصد المؤلف بقوله معظم المسلمين غير المتعلمين . ويلاحظ أنه يقول : إن هذه كلها ليست من الدين بل هى من الخرافات التى لا صلة بينها وبين مبادئه الأولى . (المترجم)

(**) أصح من هذا أن يقول : عامة المسلمين أو جهالهم الذين يؤمنون بالسحر كما يؤمن به الجهال فى كل أمة . (المترجم)

أن من الأيام ما هو سعد ومنها ما هو نحس ، وأن الأحلام قد تنبئ عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان فى الأحلام . ويؤمن العامة فى مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم فى مختلف البلاد المسيحية بالتنجيم ؛ فقد رسمت خرائط للسماء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوراً على معرفة اتجاه القبلة فى المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، أى خلقه ومصيره كما تدل عليه النجوم التى كانت فى السماء وقت مولده :

والدين الإسلامى(*) ، وإن بدا للعالم الخارجى وحدة قوية شاملة خالية من الفروق فى شعائره وعقائده ، قد انقسم من أقدم العهود شيعاً لا تقل فى عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية . ومن هذه الشيع الخوارج ذوو النزعة الحربية المتزمتة الدمقراطية ، ومنها المرجئة التى تعتقد أن المسلم لا يقضى عليه بالعذاب الدائم فى الدار الآخرة ، والجبرية التى تنكر حرية الإرادة ، وتعتقد أن الإنسان مسير فى كل شىء وفق ما قدر له منذ الأزل ، والقدرية التى تؤمن بحرية الإرادة وتدافع عنها ، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها ، وحسبنا أن نحيى فيها إخلاصها لمبادئها وسعة علمها . لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم فى التاريخ ، تلك هى طائفة الشيعة . فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية ، واستولوا على بلاد الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الأثر فى الأدب والفلسفة . ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل على وولده الحسين وأسرته ، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمداً نبياً له ورسولا ، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ما عدا علياً ،

(*) يريد المسلمين فهم الذين انقسموا شيعا ، أما الدين نفسه فينهى عن هذه التفرقة « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » . (المترجم)

مغتصبون لا حق لهم في الخلافة ؛ وقد اغتبطوا حين ولى علىّ الخلافة ، وحزنوا لمقتله ، وروعوا لمقتل الحسين . وأصبح على والحسين بعد موتهما فى رأيهم من أولياء الله الصالحين ، وهم يعظمون ضريحيهما تعظيما لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول . ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر ، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس — أى تجسد القديسين مراراً بعد موتهم — فقالت إن أبناء على هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية . وهى ترى أن الإمام الرضا ، ثامن أولئك الأئمة الذى يقوم ضريحه فى مشهد بشمالى فارس ، هو « مجد العالم الشيعى » : وقد حدث فى عام ٨٧٣ أن اختفى الإمام الثانى عشر محمد بن حسن وهو فى الثامنة عشرة ، فاعتقد الشيعة أنه لم يمت ، ولكنه سيعود فى الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة ؛

وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء(*) يفوق عداءها لمن يعيش فى البلاد الإسلامية من الكفرة ، شأنها فى هذا شأن الفرق المختلفة فى سائر الأديان(**) . ولقد كان أهل الذمة المسيحيون ، والزردشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام . فلقد كانوا أحراراً فى ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زى ذى لون خاص وأداء فرضة عن كل شخص . تختلف باختلاف دخله وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير (من ٤٫٧٥ إلى ١٩ دولاراً أمريكياً) . ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ، ويعفى منها الرهبان

(*) إذا كان العداء قد استحكم فى يوم من الأيام بين بعض الفرق والبعض الآخر فإنه لم يكن بالشدة التى يصفه بها المؤلف ، ومهما يكن هذا العداء فى الماضى فإنها الآن تعيش فى وئام وقلما يعرف الرجل العادى إلى أى الفرق ينتمى زملاؤه ومواطنوه . (المترجم)

(**) لا نعلم من تاريخ الإسلام وما نشأ فيه من فرق مختلفة ، أن فرقة من هذه الفرق كانت تشعر نحو غيرها بعداء يفوق عداءها الكفرة الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . (ى)

والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ، والعمي والشديدو الفقر . وكان الذميون يعفون فى نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها – ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنين ونصف فى المائة من الدخل السنوى ، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم ، ولم تكن تقبل شهادتهم فى المحاكم الإسلامية ، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتى يخضعون فيه لزعمائهم ، وقضاتهم وقوانينهم ، وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة ، فكان الخلفاء الراشدون أشداء عليهم(*) ، وكان الأمويون يعاملونهم باللين بوجه عام ، والعباسيون يعاملونهم باللين تارة وبالقسوة تارة أخرى . وقد أخرج عمر بن الخطاب اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام المقدسة ، وتعزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة « عهداً » قيد فيه حقوقهم بوجه عام ، لكن هذا العهد ، إن كان قد عقد ، قد أغفل العمل به ، وظلت الكنائس المسيحية فى مصر تتمتع فى أيام هذا الخليفة بالميزات التى منحتها إياها الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربى .

وكان اليهود فى بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين ، إلا أنهم فى عهدهم قد فرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حين إلى حين ، غير أنهم مع هذا كانوا يعاملون على قدم المساواة

(*) من العجيب أن يذكر الكاتب أن الخلفاء الراشدين كانوا يعاملون بالشدة الذميين الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . إن الدين نفسه يجعل لهؤلاء الذميين كل ما لنا من حقوق ويجعل عليهم ما علينا من واجبات ، والقرآن الكريم يحثنا على مودة المخالفين لنا فى الدين ما داموا مسالمين . وعناية عمر بن الخطاب بعد الخليفة الأول أبى بكر الصديق بغير المسلمين من أهل الذمة معروفة غير خافية . لقد جعل للفقراء المحتاجين منهم ما يكفيهم هم وعيالهم من بيت المال . على أن الكاتب نفسه ذكر قبل ذلك بسطور أن أهل الذمة كانوا ينعمون فى عهد الأمويين بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام ، ومعروف أن الأمويين كانوا على عصبية شديدة أحيانا لغير العرب حتى ولو كانوا من الموالى المسلمين . (ى)

مع المسيحين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية فى حياتهم وفى ممارسة شعائر دينهم فى بيت المقدس. ، وأثروا كثيراً فى ظل الإسلام فى آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين.

وكان المسيحيون فى بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجزيرة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامى . ويحدثنا المؤرخون أنه كان فى بلاد الإسلام فى عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار . وكان المسيحيون أحراراً فى الاحتفال بأعيادهم علنا ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية فى فلسطين ، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة فى الشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر الميلادى ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا . وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه ، ولقد ذهب المسلمون فى حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية فى القرن التاسع الميلادى حرسا خاصا يمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضا فى الكنائس . وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم فى الزراعة ، وفى إصلاح الأراضى البور ، وكانوا يتذوقون النبيذ المعصور من عنب الأديرة ، ويستمتعون فى أسفارهم بضيافتها ، وبلغت العلاقة بين الدينين فى وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين ، وكانت طوائف الموظفين الرسميين فى البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا فى الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين فى بعض العهود . فقد كان سرجيوس والد القديس

يوحنا الدمشقي خازن بيت المال فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذى كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون فى بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وعلى الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين ، والوثنيين إلا عددا قليلا جداً منهم ، وكثيرون من اليهود فى آسية ، ومصر وشمالى أفريقية . فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة ، وكان فى وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان . واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم ، ولبسوا الثياب العربية ، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام . وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى ، فى هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمساكا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين ، وأندونيسيا ، والهند ، إلى فارس ، والشام ، وجزيرة العرب ، ومصر وإلى مراكش ، والأندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها ، وأوحى إليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به فى هذه الأيام نحو ثلثمائة وخمسين مليونا من الأنفس ، يوحد هذا الدين بينهم ، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية .

الفصل الثالث

الشعب

كان العرب فى عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من الدولة . وكان جميع الذكور القادرين من أبناء العرب ، يخضعون ، فى نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية ؛ يدعون إليها فى أى وقت من الأوقات . وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النقى فى زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى . وكان العربى يحرص أشد الحرص على أن يضيف إليه اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلا ، وكان فى بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته وموطنه الأصلى ، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلا : أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدى . غير أن نقاء الدم لم يلبث أن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جوارى من أهل البلاد المفتوحة ، وأدخلوا أبناءهم منهن فى زمرة العرب ؛ ولكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل . وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل ، فى أثواب من الحرير الأبيض ، وسيوفهم مشرعة بأيديهم . أما العامة فكانوا يخرجون فى سراويل منتفخة ، وعمامات مطوية ، وأحذية ذات أطراف رفيعة . واحتفظ البدوى بجلبابه الفضفاض ، وشاله ومنطقته ، وقد نهى النبى عن لبس السراويل الطويلة ، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا ، وكانت جميع طبقات الشعب تزدان بالحلى ، وكانت الإناث يستهوين الذكور بصديرياتهن ، ومناطقهن البراقة ، ونُقبهن(*) الواسعة الزاهية اللون . وكن يعقصن شعرهن على جباههن ، أو يرسلنه على جانبى رؤوسهن ، أو يجدلنه

(*) النقب جمع النقبة وهى ثوب كالإزار تجعل له حجزة مطيفة وهى skirt بالإنجليزية . (المترجم)

غدائر تنوس على ظهورهن ، وكن أحياناً يكثرنه بخيوط سوداء من الحرير ، وفى أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأزهار . وأخذن بعد عام ٧١٥ يغطين بالنقاب وجوههن أسفل عيونهن ، وازداد انتشار هذه العادة تدريجاً بعد ذلك العام ، وبهذا كان فى وسع كل امرأة أن تكون فاتنة جذابة ، لأن عينى المرأة العربية مهما يكن سنها جميلتان تسبيان العقول . والفتاة العربية تبلغ الحلم فى سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً فى سن الأربعين ، وهى بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء .

والمسلم لا يحترم العزوبة ، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ، ولا يرى أن هذا الامتناع حال طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء : وحدود الزواج أوسع فى الإسلام منها فى كثير من الأديان ، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ، ولهذا قل البغاء فى أيام النبى والخلفاء الراشدين . ولكن الانهماك فى إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنبيه ، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح لهن شأن كبير فى حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً . وإذ كان المقصود من الآداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم ، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور فى البلاد المسيحية ؛ فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل ، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المقوية للباه(٤٢) . والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط ، ولكن ازدياد الثروة خفف عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة ، وغض الحكام البصر فى كثير من الأحيان عن اللواط(٤٣) . ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء فى ثيابهم وعاداتهم ، يضفرون شعورهم ، ويصبغون أظافرهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليع(٤٤) . وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخصاء من كان فى مكة من المخنثين ، وأبصر الهادى امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

على الفور(٤٥) . ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث فى بلاط هرون الرشيد ، وفى قصائد شاعره المحبوب أبى نواس ولما يمض على زمن الهادى إلا بضعة أعوام . ذلك أن الرجل الذى حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج ، وملهن بعده ، عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة ، والمرأة التى حجبها أهلها عن جميع الرجال زلت هى الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل

وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللواط فى البلاد الإسلامية . لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون بها على الدوام ، وقد ثاروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزى لهـا بإثارة الشكوك التى يثيرها الذكور عادة حول فضيلة المرأة وقوة عقلها . وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهن(٤٦) ، ولكن المسلمين فى القرن الأول من التاريخ الهجرى لم يحجبوا النساء ، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران فى الشوارع جنباً إلى جنب ، ويصليان معاً فى المساجد(٤٧) . وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعابها مصعب فى ذلك فقالت « إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »(٤٨) . ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان فى أيام الوليد الثانى (٧٤٣ — ٧٤٤) . وكان منشأ عادة عزلة النساء فى بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس . وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصف به الرجل فى الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال ، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه ، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن فى البيوت ، فحرم عليهن أن يسرن فى الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات ، وكان فى وسعهن أن تتزاورن ، ولكن ذلك كان فى العادة داخل هودج مسجف ، ولم يكن أحد يراهن خارج البيوت أثناء الليل . وكان يفصلهن عن الرجال فى

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص ، ثم انتهى الأمر بمنعهن منها منعاً باتاً (٤٩) ، وأصبح الدين الذى وصف فى العالم المسيحى اللاتينى بأنه لا بد منه للأناث ، وأنه ضرورى لهن لا يزيد عليه فى ذلك إلا الغريزة الجنسية ، نقول أصبح الدين فى العالم الإسلامى ، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة ، وقفاً على الذكور دون الإناث . وكان أشد من هذا قسوة عليهن منعهن من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهن منها ، فكن يبعثن إليها من يقضى حاجاتهن ، وكان البائعات المتنقلات ، وكن فى العادة من النساء يأتين إليهن ليعرضن عليهن بضائعهن فى داخل البيوت ، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا ، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائه ، وأقاربه الأدنين ؛ وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمح له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن . وكان فى هذا النظام مرضاة للرجل ، فهو فى البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع ، ويجعله فى خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة . أما عن النساء أنفسهن ، فإنا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضن فى العزلة أو فى النقاب ، بل كن يستمتعن بما فى جناح الحريم من سرية ، وطمأنينة ، وراحة ، وكن يغضبن إذا فرط أزاجهن فى واجب المحافظة على عزلتهن ، ويرين فى ذلك إهانة لهن (٥٠) ؛ وظلت الزوجات الشرعيات يضطلعن من سجنهن الظاهرى بقسط موفور فى مجريات الحوادث التاريخية ، وكان لخيزران أم الرشيد ، ولزوجته زبيدة فى القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان ، وكانتا تستمتعان بكثير من الأبهة والسلطان .

وقلما كان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة ، وقليلاً من سور القرآن ، والفنون المنزلية . أما نساء الطبقات العليا فكن يتلقين تعليما متسع الآفاق ، يقوم به فى العادة معلمون خصوصيون ، ويتلقينه أحياناً فى المدارس والكليات (٥١) . وكن يتعلمن قرض الشعر ، والموسيقى ، وضروباً من أشغال

الإبرة ، ومنهن من تبحرن فى العلوم واشتغلن بالتدريس . واشتهر عدد منهن فى أعمال البر المستنيرة . وكن يربين على الخفر اللائق بعاداتهن ؛ فإذا فوجئن فى الحمام أسرعن بتغطية وجوههن(*) ؛ وكن يدهشهن عدم احتشام الأوربيات اللاتى يذهبن إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية ، ويعانقن الكثيرين من الرجال أثناء الرقص ؛ ويعجبن من رحمة الله الذى يمهل تلك النسوة الآثمات فلا يأخذهن بذنوبهن ويهلكهن لساعتهن(٥٢) .

وكانت شئون الزواج يتولاها الآباء ، كما يتولونها فى معظم البلاد المتمدينة ، فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد ؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تختار . وكانت البنات يزوجن فى العادة قبيل سن الثانية عشرة ، ويصبحن أمهات فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومنهن من كن يتزوجن فى سن التاسعة أو العاشرة ، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة فى سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة . وكان عقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبقى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث . وقلما كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج . وكان يدخل بها بعد ثمانية أيام أو عشرة من عقده عليها ؛ وليس الزواج فى حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه دعاء قصير ، ويصحبه فى بعض الأحيان موسيقى ، ووليمة وبعض الهدايا ، وإضاءة منزل العريس والشارع الذى هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زجته الخاصة ، ويرفع النقاب عن وجهها وهو يقول « بإسم الله الرحمن الرحيم »(٥٣) .

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر ، كان فى وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هى ومؤخر صداقها . وكان معنى تعدد الزوجات

(*) لاشك أن هذه إحدى الفكاهات التى يلجأ إليها المؤلف فى كثير من المواضع . (المترجم)

فى الإسلام فى أكثر الأحيان أن تتلو الواحدة منهن الاخرى ، ولم يكن معناه الجمع بينهن فى وقت واحد ، ولم يكن يستطيع ذلك الجمع إلا ذوو الثراء[٥٤] . وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من الأزواج واحدة بعد واحدة ، ويقال إن ابن الطيب ، وهو صباغ فى بغداد ، عاش إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر ، وتزوج من تسعمائة زوجة[٥٦] . وكان فى وسع المسلم ، فضلا عن زوجاته ، أى يكون له أى عدد من الجوارى ، وكان لهرون الرشيد عدد كبير منهن ، وكان للمتوكل أكثر مما كان لهرون[٥٧] ، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقى والغناء ، وفنون فتنة الرجال ، ثم يبيعونهن بأثمان عالية قد تصل إلى مائة ألف درهم (نحو ٨٠,٠٠٠ دولار أمريكى)[٥٨] . ولكن ليس من حقنا أن نظن أن بيت الحريم كان ماخوراً خاصاً . فقد كانت الجوارى يصبحن فى أغلب الأحيان أمهات ، يفخرن بمن يلدن من الأبناء ، وبعدد الذكور منهم ، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من الحب الصادق الأكيد . وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام ويرينه من الأمور الطبيعية ، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار[٥٩] ؛ وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوى من الأبناء بقدر ما تحتويه ضاحية لإحدى المدن الأمريكية . من ذلك أن أحد أبناء الوليد الأول كان له ثمانون ولداً وعدد من البنات لم يذكره المؤرخون . واستتبع نظام الحريم وجود الخصيان ، وإن كان هذا محرماً فى الشريعة الإسلامية . واشترك المسيحون واليهود فى استيرادهم أو تهيئتهم ، وكان الخلفاء ، والوزراء ، والكبراء يبتاعونهم بأثمان غالية ، وسرعان ما أصبحت نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الخصيان المحدودى الكفاية . وكان من النتائج التى ترتبت على نظام الحريم فى القرون الأولى التى تلت الفتوح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

المفتوحة ، وأن تضاعف عددهم إلى الحد الذى كانوا فى حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع . ولربما كان لهذا النظام أثره فى قوة أقدر الرجال على الإخصاب ؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المأمون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام ، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين .

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدره تقديس الرابطة الزوجية . والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد فى وقت واحد ، ولم يكن فى وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة ؛ ذلك أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها ، ولم تكن هذه الخيانات مما يعبأ به كثيراً من الناحية الأخلاقية . أما خيانتها هى فكان عقابها الموت ؛ ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبته النساء رغم هذا العقاب الصارم والتضييق الشديد . وكانت المرأة تسب وتبجل ، وتحقر وتقمع ، وتحب فى معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان ، ويقول أبو العتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما فى العالم من ثراء[٦٦] . وأمثال هذا القول كثيرة وهى فى بعض الأحيان صادقة . وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة فى بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة ، تلك هى أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه فى شىء من أملاكها . وكانت فى داخل بيتها الأمين تغزل وتنسج ، وتطرز ، وتدير بيتها ؛ وتعنى بأبنائها ، وتمارس بعض الألعاب ، وتأكل الحلوى ، وتتحدث إلى أترابها ، وتحيك الدسائس . وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوى الفائدة الاقتصادية فى المجتمع الزراعى الأبوى ، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها ، وفى ذلك يقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « لحصير فى ناحية البيت خير من امرأة لا تلد »[٦١] . ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار فى داخل البيوت . وكانت

القابلات تنقل إلى النساء قديمها ، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها . وقد أفرد الرازى (المتوفى سنة ٩٢٤) فى أحد كتبه فصلا لموانع الحمل ، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية[٦٢] . وأورد ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧) فى كتاب القانون الذائع الصيت عشرين وصفة لمنع الحمل .

وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحى فى النواحى الخلقية الخارجة عن نطاق الناحية الجنسية . فالقرآن مثلا يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعا (سورة المائدة : ٩٠) ولكن بعض الميسر وكثيراً من الخمر ظلا باقيين فى كلتا الحضارتين . وانتشر الفساد والرشوة فى أعمال الحكم والقضاء فى بلاد الإسلام فى بعض العصور كما كانا منتشرين فى البلاد المسيحية . ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحى فى خلقه التجارى[٦٣] ، وفى وفائه بوعده ، وإخلاصه للمعاهدات التى يعقدها مع غيره[٦٤] ؛ ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك فى الحروب الصليبية . والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب ، فهم يبيحون الكذب ، إذا كان فيه نجاة من موت ، أو حسم لخصومة ، أو إدخال السرور على زوجة ، أو خدعة فى الحرب لأعداء الدين[٦٥] . والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبشاشة ، وحديث المسلم ملىء بالتحية والمبالغة فى التأدب . والمسلمون كاليهود يحيى بعضهم بعضا ، وينحنى الواحد منهم لصاحبه ويصافحه ويقول له : « السلام عليكم » ، والرد الصحيح لهذه التحية هو « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ، وإكرام الضيف من صفاتهم العامة ، والدين الإسلامى يحث على نظافة الجسم وإن كانت النظافة عادة تتأثر بالدخل ، فالفقراء يهملونها حتى تتراكم الأقذار على أجسادهم ، أما الأغنياء فيتليفون ، ويدرمون أظافرهم ، ويتعطرون . والختان عادة متبعة عند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها فى القرآن ، لأنها فى رأيهم من أسباب المحافظة على الصحة ، وكان الأولاد يختتنون فى سن الخامسة

أو السادسة[٦٦] . وكانت الحمامات الخاصة من مميزات بيوت الأغنياء ، ولكن الحمامات العامة كانت ولا تزال كثيرة فى البلاد الإسلامية . فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت فى القرن العاشر الميلادى تحتوى على ٢٧٫٠٠٠ حمام[٦٧] : وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء ، وقد اشتهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر ، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين ، وكان فى كثير من البيوت حدائق غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة ؛ وكانت الأزهار محببة للشعب وخاصة فى فارس ، وكانت تضفى على الحياة بهجة ومتعة .

بقى أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هى وسائل التسلية عندهم ؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم ، والصيد ، ومغازلة النساء ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء ؛ وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة ، والرقص على الحبال ، والشعوذة ، والسحر ، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز) . . . . ويدل كتاب القانون لابن سينا على أن المسلمين كان لديهم فى القرن العاشر الميلادى كل ما عندنا تقريبا من الألعاب الرياضية : الملاكمة ، والمصارعة ، والعدو ، والرمى بالنبال ، وقذف الحراب ، والحركات الرياضية الجسمية ، والمثاقفة ، وركوب الخيل ، والجحف(*) ، ورفع الأثقال ، وأنواع مختلفة من لعبة الكرة والمضرب[٦٨] . وإذ كانت ألعاب الحظ محرمة ، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب النرد قليلة ؛ وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار ، وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبى قد نهى عن صنع قطعه فى صور الآدميين . وكان سباق الخيل منتشراً ، يبسط عليه الخلفاء رعايتهم ؛ ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة فى سباق . وقد ظل صيد الحيوان مقصوراً على

(*) الجحف اللعب بالكرة وهو المعروف بالبولو فى هذه الأيام . (المترجم)

أرق طبقات الأشراف ، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه فى أيام الساسانيين ، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالبزاة أو الصقور . وكانت الحيوانات المصيدة تربى أحياناً وتدلل ، وكان عند بعض الأسر كلاب ، وعند بعضها قردة ، وعند بعض الخلفاء آساد ونمورة يرهبون بها رعاياهم أو سفراء الدول الأجنبية .

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدنية ، شجعاناً إلى درجة التهور ، كثيرى العنف ، سريعى الانفعال ، متشككين ؛ وكان الإسلام قد خفف من حدة هذه الصفات ، ولكن معظمها لم يكن قد انمحى بعد ؛ وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة التى كان يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد فى مجموعه على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمروڤنجيون ، وأهل الشمال ؛ ولكنه رغم هذا مما يسربل بالعار كل حضارة . ولما يروى عن سليمان بن عبد الملك أنه فى رحلة له إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، دعا رجال حاشيته ليجربوا سيوفهم فى رقاب أربعمائة من الروم ، أسروا حديثاً فى إحدى الحروب ؛ وقبل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعمائة رجل ، ليتسلى الخليفة بذلك المنظر(٦٩) . ولما جلس المتوكل على العرش ألقى فى السجن بوزير كان قد عامله مرة منذ بضع سنين بشىء من الاحتقار ؛ ومنع السجين من النوم عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله ، ثم سمح له أن ينام أربعاً وعشرين ساعة ؛ فلما عادت إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فيها مسامير ، منعته أن يتحرك ليقضى حاجته الطبيعية ، وبقى على هذه الحال يعانى أشد الآلام حتى مات(٧٠) . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال الشاذة ، أما المألوف فإن المسلم كان مثال الرقة ، والإنسانية ، والتسامح ؛ وكان ، إذا وصفنا أوساط الناس ، سريع الفهم ، حاد الذكاء ، سريع التهيج ، يسهل

إدخال السرور على قلبه ، والمرح على نفسه ، يجد الرضا فى البساطة ، ويصبر على بلواه فى هدوء ، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر ، وكرامة ، وشمم ، وكبرياء . وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل ، أخذ معه كفنه المنسوج من الكتان ، استعداداً منه فى أى وقت للقاء ربه ، فإذا أنهكه المرض والتعب وهو سائر فى الصحراء ، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم . ثم توضأ هو لآخر مرة ، واحتفر بنفسه حفرة يتخذها قبراً له ، ولف نفسه فى كفنه ، ونام فى الحفرة ، ينتظر أن توافيه منيته ، وأن تغطى جسمه الرمال السافية(٧١) .

الفصل الرابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية فى الثلاثين السنة التى تلت وفاة النبى جمهورية دمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذى كان مفهوما من هذه العبارة فى الزمن القديم ، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين فى اختيار رأس الدولة وتحديد سياستها . أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من أعيان المدينة . ولم يكن ينتظر شىء غير هذا بطبيعة الحال ؛ ذلك أن الناس يختلفون فى ذكائهم وفى ضمائرهم ، ولهذا فإن الدمقراطية فى أحسن صورها لابد أن تكون نسبية ؛ ولا محيص من أن تنشأ صورة ما من صور الألجركية فى المجتمعات التى لا تتيسر فيها سبل الاتصال والتى تقل فيها نسبة المتعلمين . وإذا كانت الحرب والدمقراطية لا تجتمعان معاً ، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية قد ساعد على قيام حكم الفرد ، لأن وحدة الرياسة والإسراع فى اتخاذ القرارات لا بد منهما لقيام السياسة الحربية والاستعمارية . ولهذا أضحت الحكومة فى عهد الأمويين ملكية صريحة ، الخلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها قوة السلاح .

كذلك كان منصب الخليفة من الوجهة النظرية منصبا دينيا أكثر مما كان منصبا سياسيا . فقد كان الخليفة قبل كل شىء رئيس مجتمع دينى هو مجتمع المسلمين ، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين ، ولهذا كانت الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين . لكن الخليفة لم يكن بابا أو قسا ، ولم يكن فى مقدوره أن يصدر قرارات جديدة فى الشئون الدينية . ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان ، ولا طبقة وراثية من

الأشراف ، ولا هيئة من رجال الدين ، بل كان الذى يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده — وكان فى وسع من يستخدمهم من العلماء(*) ويؤدى لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد . وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص فى هذه الحكومة المطلقة . ذلك أنه كان فى مقدور أى إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء .

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا فى بلاد الشام بنظام بيزنطية الإدارى ، وفى بلاد فارس بنظام الساسانيين ، وكان لا بد أن تسير الحياة فى الشرق الأدنى على النسق القديم ، بل إن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد تخطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى فى العلوم والفلسفة الإسلامية : ونشأ فى عهد العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية ، والإقليمية ، والمحلية ، تسيره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلا باغتيال الجالسين على العرش ، أو بالثورات التى تحدث فى داخل القصر . وكان على رأس النظام الإدارى الحاجب أو رئيس التشريفات ، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات فى القصر ، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكمه فيمن يدخلون على الخليفة . وكان يليه فى مرتبته ، ولكن يفوقه فى السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير ؛ وهو الذى يعين موظفى الحكومة ، ويشرف عليهم ، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها . وكان أهم الدواوين ديون الخراج ، والحسابات ، والشرطة ، والبريد ، والنظر فى المظالم وهو الذى أصبح بمثابة محكمة ترفع إليها الأحكام القضائية والإدارية ؛ وكان يلى الجيش فى الأهمية عند الخليفة ديوان الخراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

(*) لاشك فى أن فى هذا الحكم الشامل مغالاة كثيرة . فالتاريخ الإسلامى يفيض بالشواهد الدالة على ما لرجال الدين من مواقف مشرفة ضد الخلفاء ، لاقوا بسببها كثيراً من العنت والاضطهاد . (المترجم)

البزنطية فى عنادهم وشدتهم ؛ وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القومى لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام . وكان إيراد بلاد الخلافة كل عام فى عهد هرون الرشيد يزيد على ٥٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم (نحو ٤٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) فضلا عما أضيف إليه فى ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عديدها[٧٢] . ولم يكن ثمة دَيْن قومى ، بل حدث عكس هذا فى عام ٧٨٦ إذ كان فى الخزانة رصيد يبلغ ٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم .

وكان البريد العام ، كما كان فى عهد الفرس والرومان ، لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص ، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات ، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحليين . وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها التجار والحجاج ، تحوى أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كل واحد منها عن الآخر ، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب ، وكان الحمام يدرب ويستخدم فى نقل الرسائل — وكان هذا أول استخدام له معروف فى التاريخ (٨٣٧) . وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار ؛ وكان فى بغداد ألف وسبعمائة « امرأة عجوز » يعملن جاسوسات . غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين ابتزاز الأموال العامة أو الارتشاء . فقد كان الولاة فى بلاد العرب ، كما كانوا فى بلاد الرومان ، يرون أن سنى خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا به سلم المناصب ، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب . وكان الخلفاء فى بعض الأحيان يرغمونهم على أن يردوا ما اغتصبوه ، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يخلفونهم ، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر ٧٦٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله . وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية ، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء ، وقد ورد فى أحد الأحاديث أن النبى نفسه كان يرى أن اثنين على

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون فى النار[٧٣] .

وكان المفروض أن الشريعة التى تحكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن . ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين ، كما كانا عند اليهود ، شيئاً واحداً . فكل جريمة خطيئة ، وكل خطيئة جريمة ، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين . فلما أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها فى القرآن وضع بعض المشترعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً ، وبهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامى(*) ، وكان من المصادفات الغريبة المتكررة أن هذه الأحاديث تردد أصداء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبيزنطية ، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنا وجمارا اليهود وأحكامهما[٧٤] . وكانت الزيادة المطردة فى هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء فى البلاد الإسلامية ، وخلع على الفقهاء الذين يفسرون القانون أو يطبقونه من السلطان والتعظيم ما لا يقل عما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين . وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم فى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد تحالفوا مع الملكية ، وأيدوا حكم العباسيين المطلق ، ونالوا جزاءهم على هذا التأييد .

ونشأت فى البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب : أولاها مذهب أبى حنيفة ابن ثابت (المتوفى عام ٧٦٧) ، وقد أحدث انقلاباً كبيراً فى الشريعة الإسلامية باتباع مبدإ العباس فى تفسير القرآن . وهو يرى أن القانون الذى سن فى أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعى أو حضرى . وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

(*) لسنا ننكر أن هناك أحاديث منحولة ولكننا نعتقد أن الأحاديث الصحيحة السند معين لا ينضب للتشريع . (المترجم)

ويشبه هذا ما فعله هلل فى فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون . ومن أقوال أبى حنيفة فى هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق ، فهى تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التى أوجدتها(٧٥) . وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يجيز هذه الفلسفة الحرة التقدمية فى التشريع ، وهو مالك بن أنس (٧١٥ — ٧٩٥) . وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبعمائة من الأحاديث التشريعية ، ويقول إنه لما كانت كثرة هذه الأحاديث قد صدرت فى المدينة ، فإن إجماع أهل المدينة هو الذى يجب أن يؤخذ به فى تفسير الحديث والقرآن . ويرى محمد الشافعى (٧٦٧ — ٨٢٠) الذى عاش فى بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة ، وأن الإجماع فى كل بلاد الإسلام هو المحك الأخير للشرائع والسنة والحقيقة . ويرى تلميذه أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغى ، وأنشأ مذهباً آخر أساسه أن القرآن والحديث وحدهما يجب أن يكونا أساس التشريع . وندد بمذهب المعتزلة العقلى فى الفلسفة ، وألقى به المأمون فى السجن لتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة ، ولكنه استمسك بآرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته .

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة ، التى يعترف بها أهل السنة فى الإسلام ، من الاتفاق فى التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف فى المبادئ ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذى ظل قائماً مائة عام . فهى كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله ، وبأن كل شريعة خليقة بأن يحكم بها الجنس البشرى الذى لا يخضع بفطرته للقانون ، يجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله . وهى كلها تسرف فى وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافا لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودى ، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعمال السواك ، وسنن الزواج ، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

والنساء ، والطريقة الصحيحة لتصفيف الشعر ، ويروى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد فى القرآن أو الحديث ما يعرف منه الطريقة الصحيحة التى يأكله بها(٧٦) . ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامى ، ولكن اختلاف الآراء فى القانون الواحد وتجاوز منفذى القانون عن مخالفته فى بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى . غير أنه رغم هذا ، ورغم انتشار مذهب أبى حنيفة وما فيه من تسامح وحرية ، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هى النزعة المحافظة والاستمساك القوى بالسنن استمساكا يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية ، والآداب الشخصية والتفكير(*) .

ولا يسعنا إلا أن نسلم — مع هذه التحفظات — بأن الخلفاء الأولين من أبى بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية فى رقعة واسعة من العالم ، وأنهم كانوا من أقدر الحكام فى التاريخ كله . ولقد كان فى مقدورهم أن يصادروا كل شىء ، أو أن يخربوا كل شىء ، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب . ولما أن فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين ، وأيده الخليفة فى هذا الرأى وأمره أن يتركها فى أيدى الشعب يتعهدها فتثمر(٧٧) . وفى زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضى ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها ، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قبيل الفتح الإسلامى صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جناناً فيحاء ؛ وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملا وحجارة فأصبحت خصبة ، غنية ، عامرة بالسكان(٧٨) . وما من شك

(*) وهذا ما لا نوافق عليه المؤلف وما لا يتفق مع الواقع ، فالإسلام بشهادة كثيرين من علماء الغرب سمح لا يعطل التفكير أو الاقتصاد أو الآداب . (المترجم)

فى أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقى فى عهد الحكومات الإسلامية كما يبقى فى عهود كل الحكومات ، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ، وهيئوا الفرص لذوى المواهب ، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون فى أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ، وازدهرت العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والفنون ازدهاراً جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة .

الفصل الخامس

المــدن

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشأوا هذه الحضارة وميزوها عن غيرها من الحضارات ، ونصف أعمال هؤلاء الرجال ، أن نصور لأنفسنا البيئة التي كانوا يعيشون فيها . إن الحضارة ريفية فى أصولها وقواعدها ، ولكنها مدنية فى صورتها ؛ إذ لا بد أن يجتمع الناس فى المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضا .

ولقد كانت البلدان الإسلامية جميعا تقريباً غير كبيرة فى سعتها لا يزيد سكان الواحدة منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك ، يحشرون فى رقعة من الأرض ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار ، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل ، ذات بيوت صغيرة مطلية بالجص ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار . وكان جلال المدينة كله محصوراً فى مسجدها ، ولكن كانت تقوم فى أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجمال والمعرفة والسعادة

وكانت مكة والمدينة ، ولا تزالان ، فى نظر المسلمين مدينتين مقدستين ، لأن فى أولاهما الكعبة التى كان العرب يقدسونها فى الزمن القديم ، كما أن فيها مسقط رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولأن الثانية هى المكان الذى هاجر إليه وأقام فيه . وقد جدد الوليد الثانى بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخما ذا روعة وجمال : وأرسل إمبراطور بيزنطية بناء على طلب الوليد ، وفى نظير ثمانين ألف دينار ، أربعين حملا من أحجار الفسيفساء ، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الصناع من مصر وبلاد اليونان ، حتى لقد شكا المسلمون من أن مسجد

خراج مصر فى تشييد عدد صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف ، وشيد فى الطرف الجنوبى من المدينة (٦٩١ — ٦٩٤) المسجد الأقصى . وقد دمر زلزال هذا المسجد فى عام ٧٤٦ ، ثم أعيد بناؤه فى عام ٧٨٥ ، وأدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة ، ولكن القبلة لاتزال كما كانت فى أيام عبد الملك ، كما أن معظم العمد مأخوذة من باسلقا جستنيان التى كانت قائمة فى أورشليم . ويرى المقدسى أن بيت المقدس أجمل من المسجد الأموى العظيم المقام فى دمشق ، ويقول المسلمون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإنه صلى فيه معهم ، وإنه رأى بالقرب منه الصخرة (التى يعتقد بنو إسرائيل أنها سرة الدنيا) والتى أراد إبراهيم أن يضحى عندها بإسحق(*) ، والتى تلقى عندها موسى تابوت العهد ، والتى شاد عندها سليمان وهيرود هيكليهما . ويعتقد بعض المسلمين أن النبي صعد عندها إلى السماء ؛ وأن الإنسان لو أوتى إيماناً قوياً لأبصر فى الصخر آثار قدميه . ولما أن استولى عبد الله بن الزبير علي مكة فى عام ٦٨٤ وعلى ما يدخل فيها من إيراد الحج أراد عبد الملك أن يجتذب إلى الشام أموال الحجاج ، وأن يحج الناس إلى الصخرة بدل أن يحجوا إلى الكعبة ، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخى (٦٩١) « قبة الصخرة » الشهيرة على الطراز البيزنطى — السوورى ، وسرعان ما أضحت هذه القبة « رابعة عجائب العالم الإسلامى » (والثلاث الأخرى هي مساجد مكة والمدينة ودمشق) . ولم يكن هذا البناء فى أول أمره مسجداً ، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة ؛ وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم « مسجد عمر » . ويبلغ ارتفاع القبة ١١٢ قدما ، وهى قائمة على بناء ذى ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة . ويبلغ محيط هذا البناء ٥٢٨ قدما . والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

(*) التى يعتقد المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق . (المترجم)

الأصفر المذهب ذى النقوش البارزة . وللبناء أربعة أبواب جميلة — عتباتها مصفحة بالبرنز — تؤدى إلى الداخل الذى تقسمه صفوف من العمد المتخذة من المرمر المصقول ، متتالية ومتحدة فى المركز ، إلى أشكال مثمنة الأضلاع كل منها أصغر من الذى فى خارجه . وهذه العمد الفخمة من الآثار الرومانية القديمة ، وتيجانها بزنطية الطراز . وتمتاز الأجزاء التى بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء ، التى تصور أشجاراً لا تقل فى جمالها عن تصوير كوربية Courbet . وأجمل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة . وعلى الطنف التى فوق العمد الخارجية نقش بالخط الكوفى ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء ، أمر به صلاح الدين فى عام ١١٨٧ ، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المعمارية الفذة . وتحيط العمد بهذه الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التى يبلغ محيطها مائتى قدم . وقد وصفها المقدسى بقوله :

« فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أرفى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة»(٨٠).

وقد أخفق عبد الملك فيما كان يسعى إليه من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة ، ولو أنه نجح فيما كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التى كانت تتنافس فى الاستحواذ على روح الإنسان فى العصور الوسطى .

ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم تكن عاصمة ولاية فلسطين ، بل نالت الشرف بلدة الرملة . وكانت فى الأماكن التى تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة فى عهود الإسلام الأولى . ومن تلك المدن عكا التى كتب عنها المقدسى فى عام ٩٨٥ يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة . وكتب الإدريسى فى عام ١١٢٤ عن صيدا يقول إنها مدينة مترامية الأطراف تحيط بها الحدائق والأشجار ، ووصف اليعقوبى فى عام ٨٩١ مدينة صور بأنها بلدة جميلة مشيدة على صخرة ،

بارزة فى البحر ، ويقول ناصر خسرو فى عام ١٠٤٧ إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أو ست ، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضاً فى أسواقها النظيفة[٨١]. وكان لطرابلس القائمة فى شمالها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة . واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة . وكتب ياقوت الرحالة المسلم فى عام ١٢٢٤ عن الناصرة يقول : « فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ! . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلا »[٨٢](*) .

ويصف اليعقوبى بعلبك بأنها من أجمل بلدان الشام ، ويضيف المقدسى إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء . وكانت أنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها فى عظمتها إلا دمشق وحدها . وقد امتلكها المسلمون من عام ٦٣٥ إلى عام ٩٦٤ ، ثم استولى عليها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأخير حتى عام ١٠٨٤ . ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنائسها الكثيرة الفخمة ، وبما فى بيوتها الجميلة من شرفات عالية ، وبحدائقها وبساتينها الغناء ، ويقولون إن الماء يدخل فى كل بيت من بيوتها . وكانت طرسوس من كبريات المدن ؛ ويقدر ابن حوقل (٩٧٨) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف ، وقد استعادها نقفور إمبراطور الروم فى عام ٩٦٥ ، وهدم جميع ما فيها من المساجد ، وحرق جميع المصاحف ، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل . ويصفها المقدسى بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة ، ذات شوارع تظللها الأشجار ، وتقوم على جانبها الحوانيت ويؤدى كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد . وكان فى هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور ، ومنبر تبتهج العين لرؤيته . وكان بالقرب منه خمس مدارس ، وبيمارستان ، وست كنائس مسيحية . وكتب

(*) هذه هى ترجمة النص كما أورده المؤلف أما النص كما جاء فى كتاب معجم البلدان لياقوت فهو « . . . وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » . (المترجم)

اليعقوبي فى عام ٨٩١ يقول إن حمص أكبر مدن الشام ، وكتب الاصطخرى فى عام ٩٥٠ يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة . ويقول المقدسى إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة(٨٣) .

ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق روئى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها فى موضع أقرب إلى وسطها من مكة أو بيت المقدس . وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم — وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين . وكان يلتقى عندها خمسة أنهار ، تجعل الإقليم الذى من خلفها « جنة الشرق » بحق ، وتمد بالماء مائة فسقية ، ومائة حمام عام ، ومائة وعشرين ألف بستان(٨٤) ، ثم تجرى نحو الغرب إلى « وادى البنفسج » الذى يبلغ طوله اثنى عشر ميلا وعرضه ثلاثة أميال . ويقول الإدريسى إن « مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكانا ، وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وأكثرها مياها ، وأغزرها فواكه ، وأعمها خصبا ، وأوفرها مالا وأكثرها جنداً(٨٥)(*) » .

وفى قلب هذه المدينـــة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذى شاده معاوية الأول ، والذى يلمع فيه الذهب والرخام ، وتتلألأ فى أرضه وعلى جدرانه الفسيفساء ، والذى تلطف جوه الفساق والشلالات التى يتدفق منها الماء على الدوام . وفى الناحية الشمالية من المدينة يقوم مسجدها العظيم وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسمائة مسجد فى المدينة ، والأثر الوحيد الباقى من دمشق الأموية . وكان موضعه فى أيام الرومان يزدان بهيكل لجوبتر ، ثم أقام ثيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩) . وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالى عام ٧٠٥ أن يعدل بناء الكنيسة

(*) ويضيف إلى ذلك « ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة . . . وبها ضياع كالمدن » (ولم يقل الإدريسى إنها أجل بلاد (الله) الخ كما قال المؤلف) . (المترجم)

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه فى ذلك المكان ، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد فى أى مكان يختارونه ليقيموا فيه كنيسة جديدة .
ولكن المسيحيين احتجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته ، وقالوا إنه قد ورد فى كتبهم أن من يجرؤ على هدم تلك الكنيسة سيموت مختنقا ، ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه . ويقول المؤرخون إن جميع خراج الأرض فى الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد ، هذا إلى المال الكثير الذى أعطى للمسيحين لينشئوا به كنيسة جديدة . وجيء بالصناع والفنانين من الهند ، وفارس ، والقسطنطينية ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، وكان من استخدم فى بنائه من العمال اثنى عشر ألف عامل ، أتموه فى ثمان سنين . والرحالة المسلمون يجمعون على أنه أفخم بناء فى بلاد المسلمين ، ويرى المهدى والمأمون من الخلفاء العباسيين — وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق — أنه لا يضارعه بناء غيره فى جميع أنحاء العالم . ويتكون البناء من سور محصن ، فى داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام . ويقوم المسجد نفسه فى الجهة الجنوبية من هذا المكان المتسع ، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن — منها واحدة هى أقدم ما شيد من المآذن فى الإسلام ، وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الرومانى ، وما من شك فى أنهما قد تأثرا بطراز أياصوفيا . وكان السقف والقبة — ويبلغ طول قطرها خمسين قدما — مكفتين بصفائح الرصاص . أما داخل المسجد الذى يبلغ طوله ٤٢٩ قدماً فيشتمل على صفين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من طرقات . وتيجان هذه العمد كورنثية الطراز مكفتة بصفائح الذهب ؛ ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حذاء الفرس ؛

وهذا الطرز الثانى من العقود أول ما أقيم من نوعه فى بلاد الإسلام(*) . وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس ، كما غطيت جدرانه بالفسيفساء ، المصنوعة من الرخام الملون وبالقاشانى المطعم بالميناء ، وفى داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات . وفى أحد جدرانه المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكاً من الزجاج الملون ومن اثنى عشر ألف قنديل . ويصفه أحد الرحالة بقوله : « ولو أن رجلا من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى »(**) .

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم : « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ فى بلادى إن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالا »(†) .

وإذا اتجه الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الخليفة هرون الرشيد ، فإذا عبر نهر دجلة وصل

(*) وأقدم ما عرف من العقود المصنوعة على شكل حذاء الفرس عقد فى هيكل فى كهف ببلدة نازك فى الهند لعل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد(٨٦) . ثم استخدم هذا الطراز فى كنيسة مسيحية شيدت فى نصيبين بالعراق عام ٣٥٩ م .

(**) هذا من قول المقدسى وفى الأصل الإنجليزى « مائة سنة » ولكن المقدسى يقول سنة واحدة .

(†) وأتلفت النار أجزاء كثيرة من مسجد دمشق العظيم فى عام ١٠٦٩ ثم جدد بناؤه ، ولكن تيمورلنك أحرقه حتى لم يكد يبقى منه شىء فى عام ١٤٠٠ . ثم أعيد بناؤه مرة أخرى ، ثم أتلفته النيران إتلافاً شديداً فى عام ١٨٩٤ . وبعد هذا حل الجص والجير محل النقوش القديمة . وفى وسع الإنسان أن يشاهد حتى الآن النقش الذى كان يعلو إسكفة الكنيسة المسيحية ، والذى لم يمحه المسلمون . ونص هذا النقش هو « مملكتك أيها المسيح مملكة خالدة ، وسلطانك باق إلى أبد الدهر »(٨٨) .

إلى الموصل ، وعلى مسافة منها فى اتجاه الشمال الشرقى أيضاً تقع مدينة تبريز التى بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذى نتحدث عنه . وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (وكانت لا تزال وقتئذ بلدة صغيرة) ، ثم تليها دامغان وبعدها — فى شرق بحر الخزر — تقع جرجان . وكانت هذه البلدة الأخيرة فى القرن العاشر الميلادى قاعدة إحدى الولايات الإسلامية ، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المثقفين ، أشهرهم كاهم شمس المعالى قابوس ، الشاعر العالم الذى استضاف ابن سيناء فى بلاطه ، والذى ترك وراءه مدفناً له على شكل برج ضخم يعلو فى الجو ١٦٧ قدماً يعرف باسم جنبادى قابوس ، وهو البناء الوحيد الذى بقى حتى الآن من تلك المدينة التى بلغت فى أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان . وعلى الطريق الشمالى المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور ، التى لا يزال الناس يرددون اسمها فى شعر عمر الخيام ، وتليها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة ؛ ثم مرو التى كانت فى وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى ؛ ثم بخارى وسمرقند — وكانتا فى العادة بعيدتين عن منال أيدى الجباة . وعلى سلاسل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة : ويحدثنا الشعراء عن قصور أميرها محمود الغزنوى الفخمة ، وعن أبراجها العالية التى تطاول قمم السماء . ولا يزال يقوم فيها حتى اليوم « برج النصر » الذى شاده السلطان محمود ، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثانى . وكان الإنسان إذا رجع نحو الغروب فى القرن الحادى عشر التقى بنحو اثنتى عشرة مدينة زاهرة فى إيران — هيراة ، شيراز (ذات الحدائق الغناء الذائعة الصيت والمسجد العظيم) ، ويزد ، وإصفهان ، وكاشان ، وقزوين ، وقوم وهمذان ، وكرمنشاه ، وسامانا ؛ ثم التقى فى العراق بمدينتى البصرة والكوفة العامرتين بالسكان . وكان السائح يشاهد فى كل مكان يمر به قبابا براقة ، ومآذن متلألئة ، ومدارس ، ودوراً للكتب ، وقصوراً ، وحدائق ، وبيمارستانات ، وحمامات ، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء . ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد

التى يتغنى بها الشاعر الأنورى فى شعر فارسى يقول :

طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن ، التى لا يستطيع إنسان أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها ، إن أرباضها لتنافس فى جمالها قبة السماء الزرقاء ، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذى يبعث الحياة فى الأجسام ، وأحجارها تضارع فى تلألؤها الماس والياقوت . . . وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بلخ ؛ وجناتها المليئة بالحور العين لتعدل فى ذلك كشمير ، وآلاف القوارب ترقص وتتلألأ فوق الماء تلألؤ أشعة الشمس فى الهواء(٥٩) .

وكان فى موقع بغداد مدينة بابلية قديمة ، وهى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، وقد عثر فى عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الآجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر : وازدهرت المدينة القديمة فى عهد الملوك الساسانيين ، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامى عدة أديرة مسيحية ، معظمها للنساطرة . ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو فى الصيف ، خال من البعوض الذى يكثر فى البصرة والكوفة ؛ ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين ، اللتين كانتا فى ذلك الوقت البعيد غاصتين بالصعاليك الثوريين ؛ وما من شك فى أنه وجد فى موقعها هذا ميزة حربية ، فهو موقع أمين فى داخل البلاد ، ولكنه على اتصال مائى بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات الكبرى المتصلة به ؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخليج الفارسى وبجميع ثغور العالم . من أجل هذا كله نقل مقره هو من الهاشمية كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد ، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة أسوار دائرية وخندق ، واستبدل ببغداد اسمها القديم ومعناه « هبة الله » اسما جديداً هو مدينة السلام ، واستخدم مائة ألف من العمال فى بناء أربعة قصور عظيمة من الآجر له ولأهله وللدواوين الحكومة ؛ وكان يقوم فى وسط

المدينة قصر الخليفة المسمى « بالباب الذهبى » نسبة إلى بابه المذهب أو « القبة الخضراء » نسبة إلى قبته البراقة . ثم شاد المنصور فى خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم « قصر الخلد » ، وكان هرون الرشيد يقيم فى هذا القصر معظم أيامه . وكان فى وسع من يقيم فى هذين القصرين أن يرى من نوافذهما مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التى جاءت بها من نصف العالم المعروف .

وفى عام ٧٦٨ أنشأ المنصور قصراً ومسجداً على ضفة النهر الشرقية الفارسية لكى يستطيع ولده المهدى أن يتخذ له فى القصر مسكناً مستقلا . وسرعان ما نشأت حول هذين الصرحين ضاحية جميلة هى ضاحية الرصافة(*) التى كان يصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب . وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون يقيمون فى هذه الضاحية ، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها فى اتساعها وثرائها ، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فإنما يعنون بها الرصافة نفسها . وكانت شوارع ضيقة ملتوية أنشئت على هذا النحو لتقى الأهلين من وهج الشمس وتقوم على جانبيها الحوانيت الصاخبة ، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء ، وكان لكل طائفة من طوائف الصناع شارعها الخاص أو سوقها الخاصة — فهذا حى بائعى العطور ، وذاك حى صانعى السلال ، وهنا حى صانعى الأسلاك ، وهناك حى الصيارفة مستبدلى النقود ، وذاك حى البزازين ، وهذا حى الوراقين وما إلى ذلك . وكانت بيوت الأهلين تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورائها . وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الأغنياء مقامة من اللبن ، تبقى ما بقى صاحبها حياً ولكنها لا تدوم كثيراً بعده . وليس لدينا إحصاء لسكان المدينة موثوق به ، والراجح أنهم كانوا يبلغون

(*) الرصافة ككناسة بلد بالشام ومحلة ببغداد ، وبلد بالبصرة ، وبلد بالأندلس ، وبلد بأفريقية . (المترجم)

٨٠٠ر٠٠٠ ، وإن كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين[٩٠] ؛ ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت فى القرن العاشر الميلادى أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم . وكان فيها حى للمسيحيين مزدحم بهم ، تقوم فيه كنائس ، وأديرة ، ومدارس ؛ وكان لكل من النساطرة ، واليعاقبة ، والمسيحيين أصحاب العقيدة الصحيحة ، أمكنة عبادتهم الخاصة بهم . وقد جدد هرون بناء مسجد أقامه المنصور ووسعه ، ثم جدد المعتهد بناء هذا المسجد نفسه وزاد مساحته ؛ وما من شك فى أن مئات من المساجد قد شيدت ليتعبد فيها سكان المدينة .

وبينا كان الفقراء يواسون أنفسهم فى حياتهم الشاقة بأملهم فى نعيم الدار الآخرة ، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة . ذلك أنهم شادوا فى بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة ، والبيوت ذات الحدائق ، والدور التى تبدو بسيطة من الخارج ولكنها كانت فى الداخل « لازوردا وذهبا » . وفى وسعنا أن نتصور ما كانت عليه من الفخامة من وصف لها بقلم أبى الفداء لا يكاد يصدقه العقل يقول فيه إن قصر الخليفة فى بغداد قد فرشت على أرضه ٢٢ر٠٠٠ طنفسة ، وعلقت على جدرانه ٣٨ر٠٠٠ قطعة من القماش المزركش و ١٢ر٥٠٠ قطعة من الحرير[٩١] ؛ وكانت قصور الخليفة وأسرته ومساكن الوزير ورؤساء دواوين الحكومة تشغل فى المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع(*) . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكى هجرة الطبقة الموسرة إلى بغداد حين شاد لنفسه فى الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصراً فخماً كانت عظمته من أسباب هلاكه . وقد حاول جعفر أن يتقى حسد هرون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون ؛ وقبل الرشيد الهدية لابنه ، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم فى « القصر الجعفرى » إلى آخر أيام حياته . ولما أخذت قصور المنصور

(*) أى أكثر من ستمائة فدان . (المترجم)

وهرون تنهار ، أقيمت فى مكانها قصور أخرى : وقد أنفق المعتمد على قصره المعروف « بقصر الثريا » (٨٩٢) ٤٠٠,٠٠٠ دينار (أى ما يقرب من ١,٩٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) : وفى وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان فى اسطبلاته ٩٠٠٠ من الإبل والبغال[٩٢] : وشاد المكتفى بجواره « قصر التاج » (٩٠٢) ؛ وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة . وشاد المقتدر « بهو الشجرة » وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان فى البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب ، على أوراقها وأغصانها الفضية تجثم طيور من الفضة ، تنطق ألسنتها بأناشيد آلية . وبز سلاطين آل بويه جميع أولئك الخلفاء فأنفقوا ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى بناء قصر المعزية . وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة ؛ حتى إذا استقبل المقتدر فى عام ٩١٧ سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً ، وإيواناتها ذات العمد الرخامية ، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطئها الحصر تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والجدران ، وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيول الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وما فى الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى فى نهر دجلة وتنتظر أهواء الخليفة :

وكانت الطبقات العليا تعيش فى وسط هذا النعيم عيشة الترف ، واللهو ، والقلق ، والدسائس . فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الخيل أو لعب الجحفة ، ويحتسون الخمر المعتقة المحرمة ، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصى البلاد بأغلى الأثمان ، ويرتدون هم ونساؤهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب ، ويعطرون ثيابهم ، وشعرهم ، ولحاهم ، ويستنشقون رائحة العنبر والكندر ، ويزينون رؤوسهم ، وآذانهم ، ورقابهم ، ومعاصمهم ،

وسيقانهم بالحلى الثمينة . ويقول شاعر يتغزل فى فتاة إن رنين خلاخيلها قد سلبه عقله(٩٣) . ولم تكن النساء فى العادة يحضرن مجتمعات الرجال ، وكان يحل محلهن الشعراء ، والمطربون ، والسمار الفكهون ، وما من شك فى أنهم كانوا يتحدثون عن الحب ، وكانت الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح الرجال أسرى لهن . وفى المجتمعات التى كانت أكثر من هذه أدباً كان الناس يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم . ومنهم من أنشأوا ندوات فلسفية كإخوان الصفا ، ويحدثنا المؤرخون عن نادى قائم حوالى عام ٧٩٠ مؤلف من عشرة أعضاء ، واحد من السنيين ، وآخر من الشيعة ، وثالث من الخوارج ، ورابع من المانوية(*) ، ومن شاعر غزلى ، وفيلسوف مادى ، ومسيحى ، ويهودى ، وصابئى ، وزردشتى . ويقول المؤرخون إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل ، والفكاهة الحلوة ، والنقاش الهادئ الذى يمتاز بالأدب والمجاملة(**)(٩٤) . ويمكن القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الرقى ؛ وما من شك فى أن الشرق من عهد قورش إلى لى هونج تشانج قد فاق الغرب فى الرقة والكياسة ؛ وكان من المظاهر التى تشرف بها الحياة فى بغداد أن الفنون والعلوم التى لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يشجعها ويأخذ بناصرها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة فى جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء .

ولا يحدثنا المؤرخون بالشىء الكثير عن حياة الدهماء ، وكل ما نستطيع أن نفترضه هو أنهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرح الفخم بخدماتهم وكدحهم .

(*) أتباع مانى وهو رجل من أهل إكباتانا (همذان) (٢١٥ – ٢٧٦) ، وكان يقول إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر .

(**) ما أشبه هذا بالمجتمع الخيالى الذى يحدثنا عنه لويس دكنسن فى كتابيه « معرض الآراء الحديثة » و « العدالة والحرية » وقد ترجما إلى اللغة العربية . (المترجم)

فبينما كان الأغنياء يلهون بالآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والعلم ، كان عامة الشعب السذج يستمعون إلى المغنين فى الشوارع ، أو يعزفون على أعوادهم وينشدون أغانيهم . وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبدل من ضجيج الشوارع ورائحتها ؛ وكان الناس فى أيام الأعياد يتزاورون ، ويتبادلون الهدايا ، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلانه منها ، ويطعمون فى تلك الأيام بشهية أقوى من شهية الذين يطعمون فى صحاف الذهب . وحتى الفقير نفسه كان له حظ فى جلال الخليفة وفخامة المسجد ، ولم يكن محروماً من دريهمات من دنانير الخراج الذى كان يرد إلى بغداد . وكان يسير فخوراً معتزاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة ، وكان فى قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه .

(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق

(شكل ٤) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام

الباب الثانى عشر

الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

٦٣٢ – ١٠٥٨

الفصل الأول

التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبى كان يحث على طلب العلم ويعجب به ، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول : « من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء »[١] .

ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية فى بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ، ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا فى بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام . فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء ، وبعض البنات ، وجميع الأولاد ، عدا أبناء الأغنياء (الذين كان لهم معلمون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة فى العادة بأحد المساجد ، وفى بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة فى الخلاء . وكان التعليم فى هذه المدارس عادة بالمجان ، فإن لم يكن فقد كان أجره تافها يستطيع أداءه جميع الناس ؛ فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام ٧٩٤ على يد الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد . ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا . وقبل هذا نجد الورق مستخدما في بلاد الصين منذ عام ١٠٥ م ، ثم نجده في مكة سنة ٧٠٧ ، وفي مصر سنة ٨٠٠ ، وفي أسبانيا سنة ٩٥٠ ، وفي القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفي صقلية سنة ١١٠٢ ، وفي إيطاليا سنة ١١٥٤ ، وفي ألمانيا سنة ١٢٢٨ ، وفي إنجلترا سنة ١٣٠٩[٧] . ويسر هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبي إنه كان في بغداد على أيامه (٨٩١) أكثر من مائة بائع للكتب ، كانت حوانيتهم تستخدم ، فضلا عن بيع الكتب ، لنسخها ، وكتابة الخط المزخرف ، كما كانت ندوات أدبية . وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات ، وبيعها لتجار الكتب ، ونسمع في القرن العاشر الميلادي عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم ، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثمانا عالية للمخطوطات النادرة[٨] . ولم يكن المؤلفون يحصلون على شيء من بيع كتبهم ؛ وكانوا يعتمدون في معاشهم على وسائل للرزق أثبت من هذه وأقوى أساساً ، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوي المال أو الحسب والنسب .

وكانت في معظم المساجد مكتبات ، كما كان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وكان في مدينة الموصل عام ٩٥٠ مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين ، يجد فيها من يؤمونها حاجتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التي اشتملت عليها مكتبة الري العامة عشر مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطي رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ؛ وقضى ياقوت الجغرافي في مكتبتي مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التي يتطلبها كتابه معجم البلدان . ولما أن

دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة[٩] ، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة ، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتنى الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب . ودعا سلطان بخارى طبيبا مشهوراً ليقيم فى بلاطه فأبى محتجاً بأنه يحتاج إلى أربعمائة جمل لينقل عليها كتبه[١٠] ؛ ولما مات الواقدى ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه . « وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما فى دور الكتب الأوربية مجتمعة »[١٢] . ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب فى بلد آخر من بلاد العالم — اللهم إلا فى بلاد الصين فى عهد منج هوانج — ما بلغه فى بلاد الإسلام فى القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر . فى هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الدين ، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ؛ وكان بلاط مئات الأمراء يرددون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ؛ ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون . وسرعان ما استوعب العرب ذوو البديهة الوقادة ثقافة الأمم التى فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثرة الغالبة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم فى العلوم والآداب . وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هؤلاء الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء .

وقد قوى علماء الإسلام فى ذلك العهد دعائم الأدب العربى الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذى جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس ؛ وبما وضعوه من المعاجم التى جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات فى دقة ونظام ؛ وبموسوعاتهم ، ومختصراتهم ، وكتبهم الجامعة ، التى جمعت كثيراً من أشتات الآداب والعلوم

لولاها لخسرها العالم ، وبمؤلفاتهم فى النصوص ، والأدب ، والنقد التاريخى ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام ، وحسبنا أن نعترف بفضلهم ونمجد أعمالهم .

وأكثر من تحتفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون ، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التى لولاهم لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمبليون . ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام ٧٦٧) كاتب سيرة النبى ؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣) فكانت أقدم كتاب عربى منثور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا — إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه . وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة فى سير الأولياء الصالحين ، والفلاسفة ، والوزراء ، والمشترعين ، والأطباء ، والخطاطين ، وكبار الحكام ، والعشاق ، والعلماء . وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ للعالم ، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحت إليه أن يجعل نصيب الدين الذى ينتمى إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحيز المتواضع الذى يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أى دين فى كتاب تاريخ جامع لأحداث الدهر الكثيرة . وأخرج محمد بن النديم فى عام ٩٨٧ كتابه « فهرست العلوم » أرخ فيه لكل كتاب ظهر فى اللغة العربية ، مؤلفاً كان أو مترجماً ، فى كل فرع من فروع العلم ، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفيها ، ذكر فيها فضائل كل مؤلف وعيوبه . وفى وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامى فى أيامه إذا عرف أن الكتب التى ذكرها — على ما نعلم — لم يبق منها الآن واحد فى الألف[١٣] .

وشبيه بليفى فى الغرب أبو جعفر محمد الطبرى (٨٣٨ — ٩٢٣) عند المسلمين[١٤] . وكان أبو جعفر من أصل فارسى كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين ، ولد فى طبارستان الواقعة فى جنوب بحر قزوين . وبعد أن ظل عدة

سنين يطوف فى بلاد العرب والشام ومصر ، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه ، استقر فى بغداد واشتغل بالقضاء . ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه كتاب *أخبار الأمم والملوك* قص فيه تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام ٩١٣ . والجزء الباقى إلى الآن من هذا الكتاب يشمل خمسة عشر مجلداً كبيراً ، ويقول المؤرخون إن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباقى . ويرى الطبرى ، كما يرى بوسويه Boussuet ، يد الله فى كل حادثة تقع فى العالم ، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله « فى امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته » وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم ، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض(١٦) . ونهج الطبرى نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ اليهود ، وقال إن مريم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جبريل نفخ فى كمها)(١٧) . وختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء . أما الجزء الثانى فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول ، وفيه يقص تاريخ فارس فى عهد الساسانيين قصصاً مقبولا حياً ، ذا روعة فى بعض المواضع : ويتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام ، وهى فى العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل بها إلى من شاهدها بعينه ، أو وقعت فى أيامه . وفضل هذه الطريقة أنها تعنى بذكر المصادر ؛ ولكن الطبرى لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة ، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكداساً من ثمار الجهد المضنى لا عملا من أعمال الفن .

ويرى المسعودى ، وهو أعظم من جاء بعد الطبرى من المؤرخين ، أن الطبرى أعظم من سبقه منهم . كان أبو الحسن على المسعودى من أصل عربى فى بغداد ، وجاب بلاد سوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وزنجبار ، وفارس ، وأواسط آسية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

الصين . وقد جمع ثمار رحلاته هذه فى موسوعة تشتمل على ثلاثين مجلداً ، رآها علماء الإسلام أنفسهم ، وهم المعروفون بغزارة مادتهم ، أطول مما يطيقون ؛ ثم نشر موجزاً لها كان هو الآخر أطول مما يجب ، ولعله رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذى يصرفونه فى القراءة مثل ما يجده هو منه ليصرفه فى الكتابة ، فاختصر كتابه مرة أخرى إلى الحد الذى نعرفه الآن وسماه بذلك الاسم الغريب « مروج الذهب ومعادن الجوهر ». ودرس المسعودى جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين إلى فرنسا من النواحى الجغرافية والنباتية ، والحيوانية ، والتاريخية ، كما درس عادات أهلها ، وأديانهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، فكان فى العالم الإسلامى كما كان پلنى وهيرودوت فى العالم الغربى . ولم يوجز المسعودى فى كتابته إلى الحد الذى يجعلها عقيمة جافة ، بل كان فى بعض الأحيان يتبسط فيها ، وينطلق على سجيته ، فلا يحاجز نفسه عن أن يروى بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية . وكان متشككاً بعض الشىء فى الدين ، ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه . وقد لخص فى آخر سنة من حياته آراءه فى العلم ، والتاريخ ، والفلسفة فى كتاب الاستذكار لما مر فى سائر الأعمار ، وكتاب ذخائر العلوم وما فى سائر الدهور . وقد أشار إلى تطور الكائنات من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان[١٨] . ولعل هذه الآراء قد جرته إلى المشاكل مع المحافظين من أهل بغداد ، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة المدينة التى ولد فيها وشب وترعرع ، وجاء إلى القاهرة وهو آسف على فراق موطنه . وقال فى هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس جميعاً ويباعد بينهم . . . وإن الله يبارك للأمم إذا أحب أبناؤها مواطنهم ، وإن

من أمارات التقى والاستقامة أن يحن الإنسان إلى مسقط رأسه ، ومن علامات النبل وكرم المحتد أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه[١٩] .

ووافته المنية فى القاهرة بعد عشر سنين قضاها بعيداً عن بلده .

وخير ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم فى اتساع دائرة جهودهم ، ونواحى نشاطهم ، واهتمامهم ، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صحيحاً ، وأنهم لا يفوتهم شىء مما يتصل ببنى الإنسان ، وأنهم يعلون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين فى العالم المسيحى . ولكنهم مع هذا كله كثيراً ما يضلون فى دياجير السياسة ، والحرب ، والبلاغة اللفظية ، وقلما يعنون ببحث العلل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسانية التى تتحكم فى الحوادث ، وإن مجلداتهم الضخمة لتعوزها الطريقة البنائية المنتظمة ، فلسنا نجد فيها إلا أكداساً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة — عن الأمم ، والحادثات ، والشخصيات ، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً(*) دقيقاً نزيهاً ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً ، مصدره شدة تقواهم واستمساكهم بالدين ، على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلا قد تكون حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة . ومن أجل هذا تهبط قصتهم فى بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال ، وتمتلئ بالنذر ، وأخبار المعجزات ، وبالأساطير . وكما أن فى وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جبن Gibbon على الدوام) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى ، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذيلا موجزاً للحروب الصليبية ، كذلك اقتضب كثيرون من المؤرخين المسلمين تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبي محمد . على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربى أن يصدر

(*) لا شك أن الكاتب ينظر إلى هؤلاء المؤرخين بعين هذه الأيام ويقيسهم بمؤرخى القرن العشرين . (المترجم)

على الشرق حكماً صحيحاً نزيها ؟ إن اللغة العربية تفقد جمالها فى الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها ، وإن الموضوعات التى تمتلئ بها صحائف المؤرخين المسلمين ، وهى التى تبدو ذات روعة وجمال لبنى أوطانهم ، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب الذين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم .

الفصل الثانى

العــلوم (*)

لم يدخر المسلمون فى هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً فى العمل على إيجاد هذا التفاهم الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق : فلقد أدرك الخلفاء تأخر العرب فى العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلفه اليونان من ثروة علمية غزيرة فى بلاد الشام . لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية ، أو الصابئية ، أو الفارسية ، قائمة فى الإسكندرية ، وبيروت ، وأنطاكية ، وحران ، ونصيبين ، وغنديسابور لم يمسوها بأذى ، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب فى الفلسفة والعلم ، معظمها فى ترجمته السريانية . واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية ، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدى النساطرة المسيحيين أو اليهود . وشجع الأمراء من بنى أمية وبنى العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة ، وأرسل المنصور ، والمأمون ، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية — وأرسلوهم فى بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين — يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية ، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية . وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس فى الهندسة إلى أيدى المسلمين . وأنشأ المأمون فى بغداد عام ٨٣٠ بيت الحكمة وهو مجمع علمى ، ومرصد فلكى ، ومكتبة عامة ،

(*) واجب على كل كاتب عن العلوم عند المسلمين أن يسجل ما هو مدين به إلى چورج سارتن Geroge Sarton صاحب كتاب « المدخل فى تاريخ العلوم » . فليس هذا الكتاب القيم من أجل الأعمال فى تاريخ البحث العلمى فحسب ، بل إنه فوق ذلك قد أدى خدمة تجل عن التقدير إذ كشف عن غنى الثقافة الإسلامية واتساع مداها ، وإن العلماء فى كل مكان ليرجون من صميم قلوبهم أن يقدم كل ما يستطاع تقديمه من المعونة لإتمام هذا العمل الجليل .

وأنفق فى إنشائه مائتى ألف دينار (نحو ٩٥٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال . ويقول ابن خلدون[٢٠] إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمى باليقظة الإسلامية الكبرى التى اهتزت بها أرجاؤه والتى تشبه فى أسبابها — وهى انتشار التجارة ، وإعادة كشف كنوز اليونان — وفى نتائجها — وهى ازدهار العلوم والفنون — نقول إنها تشبه فى أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التى أعقبت العصور الوسطى :

ودامت هذه الأعمال ، أعمال الترجمة المخصبة المثمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ ، وفى هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية ، واليونانية ، والفهلوية ، والسنسكريتية . وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين فى بيت الحكمة طبيب نسطورى هو حنين بن إسحق (٨٠٩ — ٨٧٣) : وقد ترجم وحده — كما يقول هو نفسه — إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية ، وإلى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة أخرى . وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وترجم حنين فضلا عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغورياس) والطبيعة ، والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وكتب الجمهورية ، وطيماوس ، والقوانين لأفلاطون ؛ وعهد أبقراط ، وكتاب الأقرباذين لديوسقريدس Dioscorides . وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية . وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التى ترجمها ذهباً . ولما ولى الخلافة المتوكل عينه طبيبا لبلاطه ، ولكنه زج به سنة فى السجن حين أبى أن يركب له دواء يقضى به على حياة عدو له مع أن الخليفة أنذره بالموت إن لم يفعل . وكان ابنه إسحق بن حنين يساعد أباه فى أعمال الترجمة ، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو

كتب الميتافيزيقا ، والنفس ، وفى توالد الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسى ، وهو كتاب كان له أثر كبير فى الفلسفة الإسلامية .

ولم يحل عام ٨٥٠ بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة فى علوم الرياضة ، والفلك ، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية . وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطى على كتاب بطليموس فى الفلك ، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥ ، ٦ ، ٧ من المخروطات لأبولونيوس البرجاوى Apollonius of Perga وكتاب الحيل لهيرو الإسكندرى وكتاب الخصائص الآلية للهواء والغازات لفيلون البيزنطى . ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعلهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليونانى والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية ، فقد سار المسلمون فى ركاب الفرس فى هذه النواحى من النشاط العلمى والأدبى بدل أن يسيروا فى ركاب اليونان . وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدى المسلمين إلا فى الصورة التى أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة : فقد وصلت إليها كتب أفلاطون كما فسرها پورفيرى Porphyry ، ووصلت كتب أرسطو ممسوخة فى صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوجيا أرسطوطاليس ، وقد ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش فى القرن الخامس أو السادس ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه . ولم يكد العرب يتركون كتاباً من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية ، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة فى كثير من المواضع ؛ ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن ، ولجأوا إلى الشروح التى كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان فى صورتها الأصلية . ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

الحقة إلى أيدى المسلمين إلا ما كان منها فى المنطق وعلم الطبيعة .

وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالا مستمراً من مصر ، والهند ، وبابل ، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطية ، إلى بلاد الإسلام فى الشرق وفى أسپانيا ، ومنها إلى شمالى أوربا وأمريكا ، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأنا فى تاريخ العالم . لقد كانت علوم اليونان حية فى بلاد الشام حين أقبل عليها العرب فاتحين ، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها بسبب ما اكتنفها قبلئذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد فى الحكم . وكان الراهب سفيرس سبخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين إحدى مدن أعالى الفرات يكتب باليونانية رسائل فى الفلك ، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية فى خارج بلاد الهند . (٦٦٢) . لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتى الهند فى هذا فى المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان . ففى عام ٧٧٣ أمر المنصور بترجمة السدهنتا وهى رسائل هندية فى علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق . م . وربما كانت هذه الرسائل هى الوسيلة التى وصلت بها الأرقام « العربية »(*) والصفر من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام[٢١] . ففى عام ٨١٣ إستخدم الخوارزمى الأرقام الهندية فى جداوله الرياضية ؛ ثم نشر فى عام ٨٢٥ رسالة تعرف فى اللاتينيه باسم Algoritmi de numero Indorum « أى الخوارزمى عن أرقام الهنود » . وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على العدّية العشرية . وفى عام ٩٧٦ قال محمد بن أحمد فى مفاتيح العلوم إنه إذا لم يظهر فى العمليات الحسابية رقم فى مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف[٢٢] . وسمى المسلمون هذه الدائرة « صفراً »

(*) يسمى الإفرنج هذه الأرقام بالعربية لأنهم أخذوها من العرب ولكن العرب أنفسهم يسمونها بالأرقام الهندية لأنهم أخذوها عن الهنود . (المترجم)

أى خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية Cipher ؛ وحور العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero .

ويدين علم الجبر ، الذى نجد أصوله فى مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليونانى من رجال القرن الثالث ، باسمه إلى العرب ، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات . وأبرز الشخصيات فى هذا الميدان العلمى هى شخصية محمد بن موسى (٧٨٠ — ٨٥٠) المعروف بالخوارزمى نسبة إلى مسقط رأسه فى خوارزم (خيوة الحديثة) الواقعة شرقى بحر الخزر ، وقد كتب الخوارزمى رسائل قيمة فى علوم خمسة : كتب عن الأرقام الهندية ، وجمع أزياجاً فلكية ، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت فى بلاد الأندلس الإسلامية هى المعمول بها فى جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان فى الصين ؛ وهو الذى وضع أقدم الجداول المعروفة فى حساب المثلثات ، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء فى وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون ، وأورد فى كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولا تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية . ولقد ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ، لكن جرارد الكريمونائى Gerard of Cremona ترجمه فى القرن الثانى عشر . وظلت ترجمته تدرس فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف . واشتهر ثابت بن قرة (٨٢٦ — ٩٠١) ، فضلا عما ترجمه من الكتب الكثيرة ، بمؤلفاته فى الفلك والطب ، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين . وارتقى أبو عبد الله البتانى (٨٥٠ — ٩٢٩) وهو رجل صابئى من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albategnus ، بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التى كان عليها فى أيام هپارخوس وبطلميوس ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هپارخوس . وهو الذى صاغ

حساب المثلثات النسب بالصورة التى نستخدمها الآن فى جوهرها .

واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكى ، ويدرسوا كلف الشمس . واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار فى وقت واحد . وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى ميل — وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا فى الوقت الحاضر . ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل . ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية ، وكانوا يسيرون فى بحوثهم على قواعد علمية خالصة ، وكتب أحدهم —الفرغانى من أهل فرغانة وهى ولاية وراء جيحون (حوالى عام ٨٦٠) — كتاباً فى الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوربا وغربى آسية سبعمائة عام . وأوسع منه شهرة البتانى الذى ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها . وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من « المعاملات » الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام — منها تقديره زيوح الاعتدالين(*) بـ ٥٤٫٥″ فى العام ، وميل مستوى الفلك بـ ٥٥′ ٢٣° (٢٣) . ومنهم أبو الوفا الذى كان يعمل تحت رعاية سلاطين بنى بويه الأولين حكام بغداد والذى كشف (كما يقول سادلو Sadilot وإن كان قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو براهى Tycho Brahe بستمائة عام(٢٤) . وقد أقيمت للفلكيين المسلمين آلات غالية الثمن لم تقتصر على الاسطرلاب ، والكرات ذوات الحلق التى كانت معروفة لليونان الأقدمين ، بل كانت تشمل كذلك آلات لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدما ، وآلات سدس نصف قطرها ثمانون قدما . وقد أدخل المسلمون على الاسطرلاب تحسينات كثيرة ،

(*) Procession of the Equinoxes

ووصل منهم إلى أوربا فى القرن العاشر الميلادى ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه ، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً .

وهذا الاهتمام العظيم بتصوير السماء قد فاقه اهتمامه بتصوير أقاليم الأرض لأن المسلمين كانوا يعيشون على فلح الأرض وعلى التجارة فى أقاليمها المختلفة . فقد حمل سليمان التاجر — الذى عاش حوالى عام ٨٤٠ سلعه إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكتب أحد المؤرخين غير المعروفين (٨٥١) وصفاً لرحلة سليمان هذا ، كان هو أقدم وصف عربى لبلاد الصين ، وكتبه قبل رحلات ماركو پولو Marco Polo بأربعمائة وخمسة وعشرين عاما . وفى ذلك القرن نفسه كتب ابن خرداذبه وصفاً لبلاد الهند ، وسيلان ، وجزائر الهند الشرقية ، وبلاد الصين ، ويبدو أنه اعتمد فيما كتب على رحلاته فى تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه . ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية ، وكتب أحمد اليعقوبى ، من أهل أرمينية وخراسان فى عام ٨٩١ **كتاب البلدان** الذى وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من الدول الأجنبية وصفاً خليقاً بالثقة . وزار محمد المقدسى جميع البلاد الإسلامية فضلاً عن بلاد الأندلس ، ولاقى فى أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد ، ثم كتب عام ٩٨٥ **كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، وهو أعظم كتاب فى جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيرونى عن الهند :

ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨) العالم الإسلامى فى أحسن صورة له . فقد كان البيرونى فيلسوفا ، ومؤرخاً ، ورحالة ، وجغرافياً ، ولغوياً ، ورياضياً ، وفلكياً ، وشاعرا ، وعالماً فى الطبيعيات — وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان من هذه الميادين . وكان عند المسلمين كما كان ليبنتز ، ويوشك أن يكون كما كان ليوناردو دافنشى ، عند

الغربيين : وقد ولد كما ولد الخوارزمى بالقرب من مدينة جنوى الحالية ، وتمثل فيه: كما تمثل فى الخوارزمى زعامة موطنه فى غرب بحر قزوين من الناحية العلمية فى هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التى بلغ فيها العلم ذروته . وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً فى بلاطهم . وسمع محمود الغزنوى بكثرة من كان فى خوارزم من الشعراء والفلاسفة ، فطلب إلى أميرها أن يبعث إليه بالبيرونى ، وابن سينا ، وغيرهما من العلماء ؛ وأدرك الأمير أن هذا أمر واجب الطاعة (١٠١٨) ، وسافر البيرونى ليحيا حياة الجد والهدوء والعزة والكرامة فى بلاد المليك المحارب فاتح الهند . ولعل البيرونى قد دخل الهند فى ركاب محمود نفسه ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف فى الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وآثارها القديمة ، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذى لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له . ويقال إن رجلا من شمالى آسية زار محموداً ووصف له إقليما ادعى أنه رآه بعينه ، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبداً . ولم يصدق محمود هذا القول ، وغضب على الرجل وأوشك أن يزج به فى السجن لجرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول ، فما كان من البيرونى إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحا أقنع به الملك وأنجى الزائر[٣٦] ، وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ ينفح البيرونى بالهدايا والأموال ، وكثيراً ما كان البيرونى نفسه يردها إلى بيت المال لزيادتها على حاجته .

وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم **الآثار الباقية** فى التقاويم والأعياد عند الفرس ، وأهل الشام ، واليونان ، واليهود ، والمسيحيين ، والصابئين ، والزردشتيين ، والعرب . والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة ، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية . وكان البيرونى يميل إلى مذهب الشيعة ، وكان ذا نزعة متشككة خالية من المباهاة والادعاء ؛ غير أنه ظل يحتفظ

بقسط من الوطنية الفارسية ، وأنحى باللائمة على العرب لقضائهم على ما كان فى العهد الساسانى من حضارة عظيمة[٢٧] . أما فيما عدا هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية ، المجد فى البحث العلمى ، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) ، المدقق ، النزيه ، ذى الضمير الحى فى أحكامه ، وكثيراً ما كان يعترف بجهله ، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تنكشف له الحقيقة . وقد قال فى مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن فى بعض كتبه « . . . بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغلب بالرياسة ، وأشباه ذلك . . . . . وبغير ذلك ، لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد » .

وبينا كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها ، كان البيرونى يقضى السنين الطوال فى دراسة شعوبها ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وثقافتهم ، ومختلف طوائفهم . وأثمرت هذه الدراسة كتابه تاريخ الهند الذى نشره فى عام ١٠٣٠ والذى يعد أعظم مؤلفاته . وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره ، وذكر أنواع الكذابين الذين ألفوا كتباً فى التاريخ[٢٨] . ولم يخص تاريخ الهند السياسى إلا بحيز صغير فى كتابه ولكنه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلا من فصوله وخص أديانها بأحد عشر .

وكان من أهم ما سحر لبه البهاجافادجيتا وأدرك ما بين تصوف القدانتا ، والصوفية ، والفيثاغورية الحديثة ، والأفلاطونية الحديثة من تشابه . وأورد مقتطفات من كتابات مفكرى الهنود ، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان ، وفضل آراء اليونان عن آراء الهنود ، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط ، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام[٢٩] . ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكأنما أراد أن يوفى بدينه للهند

فترجم إلى السنسكريتية كتاب أصول الهندسة لإقليدس والمجسطى لبطليموس .

وكادت عنايته تشمل جميع العلوم ، فقد كتب عن الأرقام الهندية أوفى بحث في العصور الوسطى ؛ وكتب رسالة عن الاسطرلاب ، ودائرة فلك البروج ، وذات الحلق ، ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود . ولم يكن يخالجه أدنى شك فى كرية الأرض ، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها ، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة فى كل يوم ، وحول الشمس مرة فى كل عام ، بنفس السهولة التى تفسر بها إذا افترضنا العكس(٣٠) . وقال إن وادى نهر السند ربما كان فى وقت من الأوقات قاع بحر(٣١) ، وألف كتاباً ضخما فى الحجارة وصف فيه عدداً عظيما من الأحجار والمعادن من النواحى الطبيعية وشرح قيمتها التجارية والطبية . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التى تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذى يزيغه(٣٢) . وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الالتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة ، كما تحدث فى القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحبات الرمل . ووضع فى الهندسة حلولا لنظريات سميت فيما بعد باسمه . وألف موسوعة فى الفلك ، والتنجيم ، والعلوم الرياضية ؛ وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأوانى المستطرقة(٣٣) . وألف تواريخ حكم السلطان محمود ، وسبكتجين ، وتاريخا لخوارزم . ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ العلماء . وإن كثرة مؤلفاته فى الجيل الذى ظهر فيه ابن سينا ، وابن الهيثم ، والفردوسى لتدل على أن الفترة الواقعة فى أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر هى التى بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها ، وهى التى وصل فيها الفكر فى العصور الوسطى إلى أعلى درجاته .

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذى اقتصر فيه اليونان — على ما نعلم — على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة . فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم ، وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلا كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات فى الحجارة ، وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التى تميل إليها ، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية ، وركبوا مئات منها(*) . وكان علم تحويل المعادن إلى ذهب ، الذى أخذه المسلمون من مصر هو الذى أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق ، عن طريق مئات الكشوف التى تبينوها مصادفة ، وبفضل الطريقة التى جروا عليها فى اشتغالهم بهذا العلم وهى أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة . ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين فى ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع فى نهاية أمرها إلى أصول واحدة ، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر . وكان الهدف الذى يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن « الخسيسة » كالحديد ، أو النحاس ، أو الرصاص ، أو القصدير إلى فضة ، أو ذهب . وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة — يدأبون على البحث عنها ولا يصلون إليها — إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح ، حدث فيها التغير المطلوب . وكان الدم ، والشعر ، والبراز ، وغيرها من المواد تعالج « بكواشف » متنوعة ، وتعرض لعمليات التكليس ، والتصعيد ، وللضوء ، والنار ، علها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحرى[٣٦] . وكان الاعتقاد السائد أن الذى يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

(*) الكحول كلمة عربية ولكن هذه المادة ليست من مخترعات العرب . وقد ذكر أول ما ذكر فى مؤلف إيطالى ظهر فى القرن التاسع أو العاشر(٣٥) الميلادى ، وكان الكحل عند المسلمين مسحوقاً تطلى به الحواجب .

يطيل حياته . وكان أشهر الكيميائيين المسلمين جابر بن حيان (٧٠٢ — ٧٦٥) المعروف عند الأوربيين باسم جبير Gebir . وكان جابر ابن عقار كوفى ، اشتغل بالطب ، ولكنه كان يقضى معظم وقته مع الأنابيق والبوادق . ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ، ولكنها فى الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم فى القرن العاشر : وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التى لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل فى تقدم علم الكيمياء فى أوربا : وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم ، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثلثمائة عام لا يرفع فيها رأسه .

وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين فى ذلك العصر . ومن هذه الآثار كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى الذى رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاقير أخرى كثيرة . وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم ، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز ، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر[٣٧] : وشرح عثمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة ٨٦٩) نظرية فى التطور شبيهة بنظرية المسعودى فقال إن الحياة قد ارتقت من الجماد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ثم من الحيوان إلى الإنسان[٣٨] : واعتنق الشاعر الصوفى جلال الدين هذه النظرية ، ولم يضف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً فى الماضى ، فإن الناس فى المرحلة الثانية سيصبحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله[٣٩] ».

الفصل الثالث

الطب

وما فتئ الناس فى هذه الأثناء يحبون الحياة ، وينفقون الأموال الطائلة فى تأخير ساعة الموت ، وإن كانوا دائمى الافتراء عليها والتنديد بها . ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون من الطب إلا معلومات بدائية ، ولم يكن لديهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذى لا يغنى . فلما أن ازدادت الثروة نشأت فى الشام وفارس طائفة من الأطباء ، واسعة العلم ، عظيمة المقدرة ، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند . وإذ كان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء فى كتب جالينوس ، أو على دراسة الجرحى من الناس ؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامى هو الجراحة ، وكان أقواها هو الطب العلاجى وخواص العقاقير الطبية . وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر ، والكافور ، وخيار الشنبر ، والقرنفل العطرى ، والزئبق ، والسنالمكى ، والمر ، وأدخلوا فى الأدوية مستحضرات طبية جديدة — منها أنواع الشراب ، والجلاب ، وماء الورد وما إليها . وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات ، وهم الذين أنشأوا أول مدرسة للصيدلة ، وكتبوا الرسائل العظيمة فى علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمى التحمس فى دعوتهم إلى الاستحمام ، وخاصة عند الإصابة بالحميات[٤٦] ، وإلى استخدام حمام البخار ؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبة ؛ وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق فى بعض العمليات الجراحية[٤٧] ؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

المخدرات على النوم العميق[٤٣] ؛ ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا كانت قائمة فى البلاد الإسلامية فى ذلك الوقت[٤٤] ، ويلوح أنها أنشئت على نمط المجمع العلمى والمستشفى الفارسى الذى كان فى جنديسابور ؛ وأنشئ أول بيمارستان معروف لنا فى بغداد فى أيام هرون الرشيد ، ثم أنشئت فيها خمسة أخرى فى القرن العاشر الميلادى ؛ ويحدثنا المؤرخون فى عام ٩١٨ عن مدير لها فى بغداد[٤٥] ؛ وكان أعظم بيمارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيمارستان الذى أنشئ دمشق عام ٧٠٦ ؛ وفى عام ٩٧٨ كان به أربعة وعشرون طبيباً . وكانت البيمارستانات أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب ؛ ولم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة . كذلك كان الصيادلة ، والحلاقون ، والمجبرون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم . وقد نظم على ابن عيسى الوزير — الطبيب — هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون فى مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (٩٣١) ؛ وكان أطباء يذهبون فى كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها ؛ وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية . غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلق فى معظم الأماكن ما هى خليقة به من العناية ، ودليلنا على ذلك أن أربعين وباء اجتاحت فى أربعة قرون هذا البلد أو ذاك من بلاد الإسلام .

وكان فى بغداد وحدها عام ٩٣١ ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً[٤٦] . وكانت أجورهم ترتفع بنسبة قربهم من بلاط الخلفاء . فقد جمع جبريل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد ، والمأمون ، والبرامكة ثروة يبلغ مقدارها ٠٠٠ر٨٠٠ر٨٨ درهم أى نحو ٠٠٠ر١٠٤ر٧ دولار أمريكى) ؛ ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتقاضى من الخليفة مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين فى العام ، ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهلا كل نصف عام[٤٧] . وقد نجح فى علاج الشلل الهستيرى فى جارية

بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس . وجاء بعد جبريل في بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر ، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) ، الذى درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، ومنهم حنين بن إسحاق ، المترجم ، صاحب كتاب **العشر مقالات فى العين** ، وهو أقدم كتاب دراسى منظم فى طب العيون ؛ وعلى بن عيسى أعظم أطباء العيون المسلمين ، وقد ظل كتابه **تذكرة الكحالين** يدرس فى أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازى (٨٤٤ — ٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases . وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء فى وقته فارسياً يكتب بالعربية . وكان مولده فى بلدة الرى القريبة من طهران ، ودرس الكيمياء بنوعيها ، والطب فى بغداد ، وألف ١٣١ كتاباً نصفها فى الطب ، ضاع معظمها . ومن أشهر كتبه كتاب **الحاوى** وهو كتاب فى عشرين مجلداً ، ويبحث فى كل فرع من فروع الطب . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber cntinens ؛ وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لهذا العلم فى بلاد الرجل الأبيض ، وكان من الكتب التسعة التى تتألف منها مكتبة الكلية الطبية فى جامعة باريس عام ١٣٩٤[٤٨] . وكانت رسالته فى الجدرى والحصبة آية فى الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق ، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، وأول مجهود يبذل للتفرقة بين هذين المرضين . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامى ١٤٩٨ ، ١٨٦٦ . وأشهر كتب الرازى كلها كتاب طبي فى عشر مجلدات يسمى **كتاب المنصورى**

أهداه إلى أحد أمراء خراسان . وقد ترجمه جرار الكريمونى إلى اللغة اللاتينية . وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم Nonus Almansoris متداولا فى أيدى طلاب الطب فى أوربا حتى القرن السادس عشر . وقد كشف الرازى طرقا جديدة فى العلاج كمرهم الزئبق ، واستخدام أمعاء الحيوان فى التقطيب . وهدأ من تحمس الأطباء لتحليل البول فى عصر أقبل فيه الأطباء على تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض ، دون أن يروه فى بعض الأحيان . ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « فى أن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس فى الوسع » ورسالته الأخرى « العلة التى من أجلها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء فى المدن فى علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعذر الطبيب فى ذلك » . ولقد كان الرازى بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريرى (الكلينيكى) فى العصور الوسطى(٤٩) . ومات الرجل فقيراً فى الثانية والثمانين من عمره .

وقد علقت فى مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين هما : الرازى وابن سينا . وكان أبو على الحسين بن سينا (٩٨٠—١٠٣٧) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه ، وتشهد سيرته التى كتبها بيده — وذلك النوع من السير نادر فى الأدب العربى — بكثرة ما كان يحدث فى العصور الوسطى من تقلب فى حياة العلماء والحكماء . فقد كان ابن سينا ابن أحد الصيارفة فى بخارى ، وتلقى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر فيما ينطوى عليه عقله العلمى من نزعة صوفية . ويقول عنه ابن خلكان بشىء من المغالاة المألوفة عند المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عمره « كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة »(٥٠) .

وقد تعلم الطب من غير مدرس ، وأخذ وهو شاب يعالج المرضى من غير أجر

وشفى وهو فى السابعة عشرة من عمره نوح بن منصور أمير بخارى من مرضه ، وعين فى منصب فى بلاطه ، وكان يقضى فى الدرس ساعات طوالا فى مكتبة السلطان الضخمة : ولما قضى على سلطان السامانيين فى أواخر القرن العاشر الميلادى لجأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم . ولما استدعى محمود الغزنوى ابن سينا والبيرونى وغيرهما من جهابذة العلماء فى بلاط المأمون ، لم يطع ابن سينا أمره ، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء . وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميله ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قاسى كثيرا من الصعاب ، وفيها عين فى منصب فى بلاط قابوس . ونشر محمود الغزنوى فى بلاد الفرس صورة لابن سينا ، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية ، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير . ولما قتل قابوس دعى ابن سينا لعلاج أمير همذان ، وشفى الأمير على يديه فاتخذه وزيراً له ، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه ، فقبض عليه ، ونهب بيته ، وأراد أن يقتله . واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ فى بيت صيدلى ، وبدأ وهو فى مخبئه يؤلف كتبه التى كانت سبباً فى شهرته . وبينا هو يدبر لنفسه أمر الفرار سراً من همذان قبض عليه ابن الأمير وزج به فى السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف . واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن ، وتخفى فى زى أحد رجال الطرق الصوفية ، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ فى بلاط علاء الدولة البويهى أمير إصفهان ، ورحب به الأمير وكرمه ، وهنا التف حوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه . ويستدل من بعض القصص التى وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب ، كما يستمتع بملاذ الدرس . غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس ، والتعليم ، والشئون العامة ، وينقل لنا ، ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلى جدتها :

اجعل غذاءك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ماء الحياة يراق فى الأرحام

وأثرت حياة الكدح فى صحته فمات فى السابعة والخمسين من عمره وهو مسافر إلى همذان ، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم .

ولقد وجد ابن سينا فى صروف حياته ، فى مناصبه أو فى سجنه ، متسعاً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن كل فرع تقريبا من فروع العلم والفلسفة . هذا إلى أن له قصائد من الشعر الجيد وصلت إلينا منها خمس عشرة قصيدة انزلقت واحدة منها إلى رباعيات عمر الخيام ، ومنها قصيدته العينية فى النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم علوى ومطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع (*)

ولا يزال الطلاب فى بلاد الشرق الإسلامى حتى اليوم يحفظونها عن ظهر قلب . وقد ترجم كتاب إقليدس فى الهندسة ووضع عدة أزياج فلكية ، وابتكر آلة شبيهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم . وله دراسات مبتكرة فى الحركة ، والطاقة ، والفراغ ، والضوء ، والحرارة ، والكثافة النوعية . وله رسالة فى المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر علم طبقات الأرض عند الأوربيين . وقد كتب فيها عن تكوين الجبال كتابة تعد أنموذجا للوضوح فى العلم . فقد قال إن الجبال قد تنشأ من سببين مختلفين : فقد تكون نتيجة اضطرابات فى القشرة الأرضية كما يحدث فى أثناء الزلازل العنيفة ، وقد تكون نتيجة لفعل الميـــاه التى تشق لنفسها طريقا جديدا بنحت الأودية . ذلك أن طبقات الأرض مختلفة فى أنواعها ؛ فنها الهش ومنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول

(*) ومنها :

محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع

لكنهما تتركان صخور النوع الثانى على حالها . وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال . . . ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات المائية فى كثير من الجبال يدل على أن المياه هى أهم الأسباب التى أحدثت هذه النتائج(٥٢).

ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولها كتاب الشفاء (شفاء النفس) ، وهو موسوعة فى ثمانية عشر مجلداً فى العلوم الرياضية ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وعلوم الدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والموسيقى ؛ وثانيهما كتاب القانون فى الطب ، وهو بحث ضخم فى وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والعلاج ، والأقرباذين ، يتطرق من حين إلى حين إلى الموضوعات الفلسفية . وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى فى بعض الأحيان إلى درجة كبيرة فى البلاغة ، ولكن شغفه الشديد بالتصنيف والتمييز يصبح عنده آفة لا يجد لها الرئيس دواء . ويبدأ المؤلف بتحذير لا يشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يحفظ عن ظاهر قلب(٥٢ ا) هذا الكتاب الذى يحتوى ألف ألف كلمة . والطب فى رأيه هو فن إزالة العقبات التى تعترض طريق عمل الطبيعة السوى . وهو يبحث أولا فى الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها ، وتشخيصها ، وطرق علاجها . وفى الكتاب فصول عن طرق الوقاية والوسائل الصحية العامة والخاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، والحجامة ، والكي ، والاستحمام ، والتدليك . وهو ينصح بالتنفس العميق ، وبالصياح من حين إلى حين لتقوية الرئتين والصدر — واللهاة . ويلخص الكتاب الثانى ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث فى بعض الأمراض وطبائعها ، وفيه بحوث قيمة ممتازة عن التهاب البلورا والدُّبيلة(*) ، والنزلات المعوية ، والأمراض التناسلية ، وفساد الشهوة ، والأمراض العصبية ، بما فيها العشق ،

(*) هذا هو الاسم الذى يطلقه ابن سينا على هذا المرض ويسميه أبو القاسم الزهراوى الذبيلة بالذال المنقوطة وهو معروف بالأمبييما أى تجمع الصديد فى جوف البلورا . (المترجم)

ويبحث الكتاب الرابع فى الحميات ، وفى الجراحة ، وأدهان التجميل ، ووسائل العناية بالشعر والجلد . وفى الكتاب الرابع — الخاص بعلم العقاقير الطبية — تعليمات مفصلة عن طرق طبخ سبعمائة وستين نوعاً من العقاقير . وحل كتاب القانون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر محل كتب الرازى وجالينوس ، وأصبح هو الذى يعتمد عليه فى دراسة الطب فى المدارس الأوربية . وقد احتفظ فيها بمكانته العالية ، وظل الأساتذة يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه فى جامعتى منبلييه ولوفان إلى أواسط القرن السابع عشر .

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب فى الطب فى العصور الوسطى ، وأن الرازى أعظم أطبائها ، والبيرونى أعظم الجغرافيين فيها ، وابن الهيثم أعظم علمائها فى البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها . تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحى فى الوقت الحاضر إلا القليل ، وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا فى معرفة تاريخ العصور الوسطى . وليس فى وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً ما تلوثت بالأوهام شأنها فى هذا شأن سائر العصور الوسطى ، وأن تفوقها كلها — عدا علم البصريات — يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التى تجمعت لديها أكثر من تفوقها فى الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة ، لكنها مهما يكن قصورها فى هذه الناحية قد نمت فى علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية ، وهى أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره . ولما أن أعلن روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوربا بعد أن أعلنها جابر بخمسمائة عام كان الذى هداه إليها هو النور الذى أضاء له السبيل من عرب الأندلس ، وليس هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين فى الشرق .

الفصل الرابع

الفلسفة

لقد استعار الإسلام فى الفلسفة ، كما استعار فى الطب ، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية ، ثم رد هذا الدين إلى أوربا المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية . وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثيرة هى التى أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة ، وإلى فلسفات الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد . فقد جاءت أفكار الهند إلى بلاد الإسلام عن طريق غزنة وفارس ، وكان للآراء الزردشتية والبهودية عن الحشر والحساب بعض الأثر فى الفلسفة الإسلامية ؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل فى بلاد الشرق الأدنى فى صفات الله ، وفى طبيعة المسيح وكلمة الله ، وفى الجبرية والقدرية ، والوحى والعقل . لكن العامل الذى كان له أكبر الأثر فى التفكير الإسلامى فى آسية — كما كان له أكبر الأثر فى إيطاليا أيام النهضة — هو كشف آثار اليونان الفكرية من جديد ؛ فقد أدى هذا الكشف — وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك فى صحتها — إلى ظهور عالم جديد : عالم كان الناس يفكرون فيه فى كل شىء ولا يخشون أن يصيبهم أذى بسبب هذا التفكير ، ولا تقيد عقولهم نصوص الكتب المقدسة ، ولا يرون أن السماء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً(*) أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التى لا تستند إلى قانون من قوانين العقل ، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

(*) لم يكن هذا التفكير مقصوراً على اليونان وحدهم ، بل قد جاء به القرآن نفسه فى عدة آيات : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » : سورة الأنبياء : ١٦ ؛ وسورة ص : ٢٧ وسورة الحجر : ٨٥ ؛ وسورة الدخان : ٣٨ .

يحكمها جميعاً وتتضح آثاره في كل جزء من أجزاء الكون . وقد افتتن المسلمون بالمنطق اليوناني في صورته الكاملة الواضحة التي جاء بها كتاب أورغانون (الآلة الفكرية) لأرسطو وبعد أن أتيح لهم الفراغ الذي لا بد منه للتفكير ، ووجدوا فيه الأدوات التي يحتاجونها لتفكيرهم ؛ وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لبهم بهجة الفلسفة المحببة كما سلبت لب الشباب في أيام أفلاطون . وسرعان ما أخذ صرح العقائد التعسفية يتصدع وينهار ، كما انهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين ، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية ڤلتير اللاذعة .

وكانت البداية التقريبية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خلق القرآن . ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها هي حكمة الله الأبدية ، وما جاء به الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان »[٥٣] ، وعقيدة المسيحيين العارفين(*) وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية ويقولون إنها هي أداة الخلق الفعالة ، وعقيدة اليهود في أزلية التوراة — كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً في عقل الله ، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهرون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

(*) القائلين بأن الخلاص بالمعرفة لا بالإيمان . (المترجم)

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التى يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم الكلام أى المنطق . وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة القرآن والتى تقول إن لله يدين وقدمين ، وإنه يغضب ويكره ، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعرى ، إذا كان يتفق مع أغراض النبى الأخلاقية والسياسية فى أيام الرسالة ، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنيرون فى أيامهم ، وإن العقل البشرى عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته الحقة ، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هى أساس الحقائق عامة . وفضلا عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن من الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أن يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحادثات كلها مقدرة تقديراً كاملا من عند الله ، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيثاب ومن سيعذب .

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التى يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سرًّا فى بادىء الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين ، ثم جهر بها رجال فى ندوة الخلفاء المسائية ، ثم وجدت من يدعو إليها فى المحاضرات التى تلقى فى المدارس والمساجد ، بل تغلبت فى أماكن متفرقة على غيرها من الآراء . وافتتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الآخذة فى القوة ، وبسط عليها حمايته ، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمى . ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ؛ وأصدر فى عام ٨٣٢ أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق فى وقت بعينه ، وأتبع هذا بأمر آخر يقضى بألا يعين قاضياً فى المحاكم من لا يعلن قبوله هذه العقيدة الجديدة أو أن

تقبل فيها شهادته . وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة ، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين ، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التى يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وتوفى المأمون فى عام ٨٣٣ ولكن المعتصم والواثق اللذين توليا الخلافة بعده واصلا هذه الحملة الفكرية ، وقاوم الإمام ابن حنبل هذا الاضطهاد الفكرى وندد به ؛ ولما استدعى لمناقشته فى أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة ، فضرب حتى أغمى عليه ، وألقى فى السجن ، ولكنه أصبح فى أعين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين ، وكان تعذيبه هذا من العوامل التى مهدت السبيل للانتقاض على الفلسفة الإسلامية .

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت فى ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الذى ولد فى الكوفة عام ٨٠٣ م . وكان والد الكندى من ولاة الأعمال فى المدينة ؛ وتلقى هو العلم فيها وفى بغداد ، وذاعت شهرته فى الترجمة ، والعلم والفلسفة فى بلاط المأمون والمعتصم ، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله فى مجد الإسلام الفكرى فى عدد كبير من العلوم ، فدرس كل شىء ، وكتب ٢٦٥ رسالة فى كل شىء — فى الحساب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والظواهر الجوية ، وتقويم البلدان ، والطبيعة ، والسياسة ، والموسيقى ، والطب ، والفلسفة . . . وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس فى وسع إنسان أن يصبح فيلسوفاً من غير أن يكون قبل ذلك عالما فى الرياضة ؛ وحاول أن يبنى علم الصحة ، والطب ، والموسيقى على نسب رياضية . وقد درس فيما درس ظاهرة المد والجزر ، وبحث القوانين التى تحدد سرعة الأجسام الساقطة فى الهواء ، كما بحث ظاهرة الضوء فى كتابه عن البصريات الذى كان له أكبر الأثر فى

روجر بيكن Roger Bacon . (وقد أدهش الكندى العالم الإسلامى برسالته فى الدفاع عن المسيحية)[٤٥](*) واشترك هو وزميل له فى ترجمة كتاب أرسطو فى الإلهيات (أو ثولوجيا) . وتأثر الكندى أشد التأثر بهذا الكتاب المنحول وسره كل السرور أنه يوفق بين أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة . ذلك أن فلسفة الكندى نفسه هى الأفلاطونية الجديدة مصبوغة صبغة جديدة : فالنفس عنده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التى هى فيض من هذه النفس الثانية . وإذا استطاع الإنسان أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود . ويلوح أن الكندى قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتنق آراء أهل السنة ، ولكنه أخذ عن أرسطو[٥٦] التفرقة بين العقل الفاعل أى العقل الإلهى ، وعقل الإنسان المنفعل الذى لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير . ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذى أثار به العالم واتخذه حجة ضد القائلين بالخلود الفردى . وانتهى الكندى بالانضمام إلى المعتزلة ، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه ، وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا من هذه العاصفة ، واسترد مكتبته ، وعاش حتى عام ٨٧٣ .

إن المجتمع الذى يرتبط فيه نظام الحكم ، والقانون ، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى فى كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعى نفسه . ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التى طغى عليها الفتح العربى

(*) ليس للكندى الفيلسوف رسالة فى الدفاع عن المسيحية . أما كاتب هذه الرسالة فهو عبد المسيح بن إسحق الكندى ، وقد كتبها رداً على رسالة بعث بها إليه عبد الله بن إسماعيل الهاشمى يدعوه فيها إلى الإسلام ، فبعث هو إليه بهذه الرسالة يدعو عبد الله إلى النصرانية . وقد اختلط الأمر على المؤلف لتشابه الاسمين . وقد ورد ذكر الرسالتين فى كتاب الآثار الباقية للبيرونى . (المترجم)

وهى الفلسفة اليونانية والمسيحية الغنوسطية ، والقومية الفارسية ، والشيوعية المزدكية ؛ وكان نشاطها عنيفاً ، فأخذت تجادل فى القرآن ، وجهر شاعر فارسى بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه ، فكان جزاؤه على قوله هذا قطع رأسه (٧٨٤)[٥٧] ، وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد أصبح وشيك الانهيار . غير أن عوامل ثلاثة فى هذه الأزمة الشديدة جعلت النصر النهائى لأهل السنة : وهذه العوامل هى وجود خليفة محافظ مستمسك بدينه ، واشتداد ساعد الحرس التركى ، وولاء الناس الطبيعى لعقائدهم الموروثة . فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة فى عام ٨٤٧ استمد العون من الشعب ومن الأتراك . وكان الترك حديثى العهد بالإسلام ، حاقدين على الفرس ، غريبين عن الفكر اليونانى ، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة لتأييد السياسة التى ترمى إلى نصرة الدين بحد السيف . فنقض المتوكل السياسة الحرة العنيفة التى جرى عليها المأمون ، وألغى ما أصدره فيها من المراسيم ، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحدين من مناصب الدولة والوظائف التعليمية ، وحرم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة فى الأدب والفلسفة ، وسنّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلى غير مخلوق ، واضطهد الشيعة وهدم مشهد الحسين فى كربلاء (٨٥١) . وجدد المتوكل الأمر المعزو إلى عمر بن الخطاب ضد المسيحيين ، والذى وسعه هرون الرشيد حتى شمل اليهود (٨٥٠) ، ثم أهمل العمل به بعيد صدوره ، جدد المتوكل هذا الأمر ففرض على اليهود والمسيحيين أن يلبسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من غيرهم من أفراد الشعب ، وأن يضعوا رقعاً ملونة على أكمام أثواب عبيدهم ، وألا يركبوا غير البغال والحمير ، وأن يثبتوا صوراً خشبية للشيطان على أبواب بيوتهم ؛ وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية واليهودية الجديدة ، وحرم رفع الصليب علناً فى المواكب المسيحية ، ولم يسمح لمسيحى أو يهودى أن يتلقى العلم فى المدارس الإسلامية .

واتخذ رد الفعل فى الجيل التالى صورة أقل عنفاً من هذه الصورة السابق

وصفها . فقد قام جماعة من العلماء السنيين وجهروا فى شجاعة بقبول حكم المنطق فى الجدل القائم ، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصيلة . وهؤلاء المتكلمون (المناطقة) فى الإسلام يشبهون الفلاسفة المدرسيين فى أوربا فى العصور الوسطى ، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك فى القرن الثانى عشر بالنسبة لليهودية ، وتومس أكوناس فى القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية . وظل أبو الحسن الأشعرى (٨٧٣ — ٩٣٥) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين فى البصرة ، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره ، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم ، وهو سلاح المنطق ، وسلط عليهم سيلا جارفاً من الجدل القوى كان له أكبر الأثر فى انتصار عقائد أهل السنة . وقد آمن أبو الحسن إيماناً قويا بمبدإ الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث ، وإنه علتها كلها ، وإنه يعلو على القوانين والأخلاق ، وإنه يصرف شئون خلقه كما يشاء ، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس فى ذلك خطأ قط(٥٩) .

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلى ، ونادى كثيرون منهم بمبدإ « بلا كيف » أى أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان(٦٠) ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل فى الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون فى التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بداءة يسلمون بها دون مناقشة .

وهكذا هدأت موجة الفلسفة فى بغداد ، ولكنها ثارت فى الوقت نفسه فى العواصم الإسلامية الصغرى ؛ فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابى بيتا فى بغداد ، وكان الفارابى أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأتراك . كان مولده فى فاراب إحدى ولايات التركستان ، ودرس المنطق فى بغداد على معلمين مسيحيين

وقرأ كتاب الطبيعة لأرسطو أربعين مرة ، وكتاب النفس مائتى مرة ، ورمى بالزندقة فى بغداد ، وارتدى ملابس المتصوفة ، واعتنق مبادئهم ، وعاش كما يعيش طير الهواء . ويقول عنه ابن خلكان إنه « كان أزهد الناس فى الدنيا لا يحتفل بأى مكسب ولا مسكن »[٦١] .

وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابى إنه يكفيه أربعة دراهم فى اليوم « فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى » .

وقد بقى من مؤلفات الفارابى تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح لأرسطو وتعليقات على آرائه . وقد لخص فى كتابه إحصاء العلوم علم عصره فى الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والكيمياء ، والاقتصاد ، والسياسة . وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذى أثار ثائرة الفلاسفة المسيحيين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلى (أى الجنس ، والنوع ، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلا عن الجزئى ؟ وقد خدع كما خدع غيره بإلهيات أرسطو فبدل الاصطاغيرى العنيد(*) إلى رجل متصوف . وطال به العمر حتى هدأت سورته العلمية واستمسك بقواعد الدين . وكان فى شبابه قد جهر بنزعة لا أدرية متشككة[٦٢] ، ثم خطا فى مستقبل حياته خطوات واسعة ، فأعطانا وصفا مفصلا للخالق[٦٣] مستعيناً على ذلك بالبراهين التى أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتى استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت ، فقال إن حدوث سلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلا إذا أرجعناها فى النهاية إلى كائن لا بد من وجوده لوقوعها ، ووجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى ؛ وسلسلة من الحركات يتطلب محركاً أول غير متحرك ؛ والتعدد يتطلب الوحدة .

(*) يريد أرسطو المولود فى اصطاغيرا وهى مدينة أيونية على بحر إيجة . (المترجم)

وإن الهدف النهائى للفلسفة ، وهو الهدف الذى لا يمكن بلوغه كاملا ، هو معرفة العلة الأولى ، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس . وقد استطاع الفارابى ، كما استطاع أرسطو أن يعنى بجعل أقواله عن الخلود غامضة غير مفهومة . ومات الرجل فى دمشق عام ٩٥٠م .

ومن بين كتب الفارابى الباقية كلها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعنى به كتاب المدينة الفاضلة . ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حى ضد سائر الكائنات ؛ وهو فى ذلك يشبه ما يقوله هبز Hobbs من أن الأشياء كلها يحارب بعضها بعضاً ؛ ثم يقول إن كل كائن حى يرى فى آخر الأمر أن سائر الكائنات الحية وسائل يحقق بها أغراضه ، ثم يعقب على هذا بقوله إن بعض الساخرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل فى هذا التنافس الذى لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته ، وأعظمهم تحقيقاً لرغباته كاملة . فكيف خرج المجتمع الإنسانى إذن من هذا القانون قانون الغاب ؟ وإذا ما أمعنا الفكر فى أقوال الفارابى رأينا أنه كان بين المسلمين الذين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز نتشة : فمنهم من قال إن المجتمع قام فى بادىء الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التى تعتمد على العادات والقانون ؛ ومنهم من سخر من هذا « العقد الاجتماعى » وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط فى تاريخ العالم ، وأكد أن المجتمع بدأ ، أو أن الدولة بدأت ، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها . ويضيف هؤلاء النتشيون أن الدول نفسها أدوات للتنافس ، وأن من الطبيعى أن يقاتل بعضها بعضاً سعياً وراء سيادتها على غيرها ، وسلامتها ، وسلطانها ، وثرائها ؛ وأن الحرب طبيعية ولا مفر من وقوعها ؛ وأن الذى سيسفر عنه هذا الصراع ، لابد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزلى ، وهو أن الحق الوحيد هو القوة . ويقاوم الفارابى هذه

النزعة بأن يدعو الناس إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام[٦٤] . ويختم بحثه خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية[٦٥] .

وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابى فى بغداد عام ٩٧٠ جمعية من العلماء — معروفة لنا باسم موطن منشئها — الجمعية السجستانية(*) ، غرضها بحث المسائل الفلسفية . ولم تكن هـــذه الجمعية تسأل أعضاءها عن أصلهم أو مللهم ؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة ؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة فى البحوث العلمية والعقلية لم تخب جذوتها فى عاصمة الدولة الإسلامية . وأهم من هذه الجمعية شأنا ، أو بالأحرى أعظم منها أثراً ، جمعية أخرى من نوعها ، ولكنها فى واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة ، أنشئت فى مدينة البصرة عام ٩٨٣ ، ونعنى بها جمعية إخوان الصفا(**) . وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، وفقر شعوبها ، وفساد أخلاقهم ؛ فتاقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحى الأخلاقية ، والروحية ، والسياسية ؛ وخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية ، والتصوف الإسلامى ، وآراء الشيعة السياسية ، والشريعة الإسلامية . وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين ذوى الكفايات والفضائل المختلفة ، تأتى فيها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى . وفى اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردى . ولهذا كانوا يجتمعون فى السر ويبحثون فى حرية تامة شاملة ، وتفكير واسع

(*) منشئ هذه الجمعية هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى . (المترجم)

(**) اسمهم الكامل « إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحمد » . (المترجم)

الأفق ، وتأدب جم ، جميع مشاكل الحياة الأساسية . وأصدرت الجماعة فى آخر الأمر إحدى وخمسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها ، وضمنتها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية ، والفلسفة . وأولع أحد مسلمى الأندلس أثناء تجواله فى بلاد الشرق الأدنى حوالى عام ١٠٠٠ م بهذه الرسائل فجمعها واحتفظ بها .

ونجد فى هذه الرسائل البالغة ١١٣٤ صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر ، والزلازل ، والخسوف والكسوف ، والأمواج الصوتية ، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية ، كما نجد فيها قبولا صريحاً كاملا للتنجيم والكيمياء الكاذبة ، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد . أما ما فيها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجديدة كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين ؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أى الله يصدر العقل الفعال ، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس ؛ وإن جميع الأشياء المادية توجدها النفس ، وتعمل عن طريقها ؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقة حتى تتصل بالعقل الفاعل ، أو نفس العالم ، أو النفس الكلية ، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملا ، والأخلاق هى الفن الذى تصل به النفس إلى هذا التطهير ؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه : ويجب علينا فى سعينا للتطهير أن ننسج على منوال سقراط فى الأمور العقلية ، وأن ننهج نهج المسيح فى الإحسان إلى الخلق عامة ، ونهج علىّ فى نبله وتواضعه . فإذا ما تحرر العقل عن طريق المعرفة ، وجب أن يحس بحريته فى أن يؤول عبارات القرآن التى تتناسب مع فهم بدو غير متحضرين يسكنون الصحراء تأويلا مجازياً[٦٦] . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الرسائل الإحدى والخمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامى فى العصر العباسى ، وإنها أعظم تناسقاً من جميع الرسائل التى لدينا فى هذا التفكير . وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها فى عام ١١٥٠ ؛ ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدى ، وكان لها أثر شامل عميق فى الفلسفة

الإسلامية واليهودية — نشاهده فى كتابات الغزالى وابن رشد ، وابن جبرول ، وهليفى[٦٧] ؛ وتأثر بها كذلك المعرى الشاعر الفيلسوف ، ولعلها كان لها أثر فى ذلك الرجل الذى بز فى حياته القصيرة ما فى رسائل هذه الجماعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية ، وكان أكثر من أصحابها سعة فى الأفق وعمقاً فى التفكير ونعنى به ابن سينا . ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة فى العلوم الطبيعية ، ومرجعاً ذائع الصيت فى الطب ؛ وما من شك فى أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه إلا إذا أضاف إليه الفلسفة . ويحدثنا أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه(*) ، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفارابى عليه ، سر لهذا سروراً عظيما وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات[٦٨] . وبقى ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه . وقد سماه فى كتاب القانون بالفيلسوف وهو اللفظ الذى أصبح فى اللغة اللاتينية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه . وقد فصل ابن سينا فلسفته فى كتاب الشفاء ثم أوجزها فى كتاب النجاة . وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقى ، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة . وقد أجاب عن السؤال الذى شغل علماء العصور الوسطى طويلا وهو : هل الكليات (كالإنسان ، والفضيلة ، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول : (١) إنها توجد « قبل الأشياء » فى عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء ، (٢) وفى الأشياء بالصورة التى تتمثل فيها (٣) وبعد الأشياء بأن تكون معانى مجردة فى العقل البشرى . ولكن الكليات لا توجد فى العالم الطبيعى منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة . وبعد مائة عام من الجدل والخصام أجاب ابلار Abélard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه .

(*) إن الذى قاله ابن سينا هو « قرأت كتاب السماع الطبيعى لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى أنى محتاج إلى قراءته » . (المترجم)

والحق أن ميتافيزيقية ابن سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتى عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة فى الفلسفة المدرسية . وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً لمذهب أرسطو والفارابى فى المادة والصورة ، والعلل الأربع ، والممكن والواجب ، والكثرة ، والواحد ، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة الممكنة المتغيرة — كثرة الأشياء الفانية — أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذى لا يتغير . وهو يفعل ما يفعله أفلوطين فيفكر فى حل هذه المشكلة بافتراض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشراً فى العالم السماوى ، والمادى ، والبشرى ، وهو النفس . ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة فى التوفيق بين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبين صفة عدم التغير الملازمة لله ، فينزع إلى الاعتقاد مع أرسطو بقدم العالم المادى ، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة المتكلمين فيعرض عليهم حلا وسطا كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو : أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقا ذاتياً لازمانياً ، أى فى المرتبة والجوهر والعلة ؛ فوجود العالم يعتمد فى كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له ، وهى الله ؛ ويقول ابن سينا إن كل الموجودات « ممكنة » حتى الأفلاك نفسها أى أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة . وهذه الممكنات لا بد لوجودها من علة تتقدمها وتخرجها إلى الوجود ، ولهذا لا يمكن تفسير وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود ، أى واحد قائم بذاته هو العلة الأولى لسائر الموجودات . والله وحده هو الموجود بذاته ، وإن وجوده هو عين ماهيته فهو واجب الوجود . ولولاه لما كان شىء مما يمكن أن يكون . ولما كان العالم كله ممكناً أى أن وجوده ليس بذاته ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه برىء من الجسم ، وهو كالعقل ، واحد من كل وجه لا تركيب فيه . ولما كان فى المخلوقات كلها عقل فلا بد أن يكون فى خالقها عقل أيضاً . وهذا العقل الأول يرى كل شىء — الماضى والحاضر والمستقبل — لا فى وقت ولا بالتتابع ،

بل يراه كله مرة واحدة . وحدوث هذه الأشياء هو النتيجة الزمنية لفكرة اللازمنى . ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة ، بل إن الأشياء تتطور بفعل غائى داخلى — أى أن لها أغراضا ومصائر فى ذاتها ، ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر ، بل إن الشر هو الثمن الذى نؤديه نظير ما لنا من حرية الإرادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكل[٦٩] .

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخل المباشر . والنفس لهذا السبب عينه روحانية ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك ، وأفكارنا منفصلة انفصالا واضحاً عن أعضائنا . وهى مبدأ الحركة الذاتية والنماء فى الجسم ؛ وبهذا المعنى تكون للكواكب نفوس . والكون كله مظهر لمبدإ الحياة العام[٧٠] ، والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلا ، بل إن سبب كل حركة من حركاته هو نفسه التى تحل فيه ، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة على الخلق والإبداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس الخالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلى ، وفى هذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين[٧١] .

ولقد بذل ابن سينا كل ما يستطيع أن يبذله من الجهود للتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين . فلم يكن مثل لكريشيوس يرغب فى القضاء على الدين من أجل الفلسفة ، ولم يكن كالغزالى فى القرن الذى بعده يريد أن يقضى على الفلسفة من أجل الدين ؛ بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده ، غير متقيد مطلقاً بالدين ؛ ويحلل الوحى فى ضوء قوانين الطبيعة[٧٢] ، ولكنه يؤكد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبينوا لهم قواعد الأخلاق فى صور من الاستعارات والمجازات تفهمها عقولهم وتتأثر بها . وبهذا المعنى يكون النبى رسول الله لأنه يضع الأسس التى يقوم عليها النظام الأخلاقى والاجتماعى[٧٣] . ومن أجل هذا كان النبى ينادى ببعث الأجسام ، وكان فى بعض الأحيان يصور الجنة تصويراً مادياً ؛ والفيلسوف ، وإن كان يشك فى خلود الجسم ، يدرك أنه لو أن النبى

قد اقتصر على تصوير الجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه ، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة . وأرقى البشر وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الحر ، وهو الذى لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة ؛ ولكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم(٧٤) .

وكتابا الشفاء والقانون لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى ، وهما من أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى . وهو يسترشد فى كثير من بحوثه فى الكتابين بأرسطو والفارابى ، كما استرشد أرسطو فى كثير من بحوثه بأفلاطون . غير أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم . وفى بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء ، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو ؛ والحق أنه ليس ثمة سخيف لا نجده فى صحف الفلاسفة . ولسنا نجد عند ابن سينا ما نجده عند البيرونى من أمانة التشكك ، وروح النقد ، واتساع الأفق ، وحرية العقل ؛ وهو أكثر منه أخطاء ؛ ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن تؤدى هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هى من قصر الأمد . ولقد بز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه ، وحيويته ، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السآمة والملل بما يبثه فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعر التى لا نرى عليه مأخذاً فى إيرادها ، وباتساع مجاله الفلسفى والعلمى اتساعاً منقطع النظير . ولقد كان ابن سينا عظيم الأثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء ، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلى الأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون ، وإلى العالم المسيحى اللاتينى وفلاسفته

المدرسيين ، وإنا لندهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا فى فلسفة ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، ويسميه روجربيكن : « أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو »(٧٥) . ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذى يتحدث به عن أفلاطون مجاملا قط كمألوف عادته حين يتحدث عن عظماء الرجال(*) .

وكاد أجل الفلسفة العربية فى الشرق ينقضى بموت ابن سينا ؛ ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية ، وارتياع رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة ، وانتصار نزعة الغزالى الصوفية ، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير . وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠ — ١٠٥٠) التى ازدهر فيها التفكير الإسلامى ناقصاً كل النقص . ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية فى العلوم ، والآداب ، والفلسفة لا تزال مخبوءة فى مكتبات العالم الإسلامى . ففى اسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير ؛ وفى القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، وبغداد ودهلى ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهارس لها(**) ؛ وفى الأسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء ما فيها من

(*) احتفل فى عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا حسب التاريخ الهجرى وأقيم له قبر رائع فى همدان ونشرت مصر بهذه المناسبة بعض مؤلفاته . (المترجم)

(**) مما نسجله بمزيد الحمد للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية أنها عنيت عناية كبيرة بالبحث عن هذه المخطوطات فى مكتبات العالم الإسلامى ، فأرسلت الوفود العلمية لتصوير ما يوجد منها فى تلك المكتبات ، وهى جادة فى هذا العمل الجليل . لكننا نرجو أن تقوم وزارات المعارف فى الدول الإسلامية بنصيبها فيه ؛ فإنه فى اعتقادانا أوسع من أن تضطلع به الإدارة الثقافية وحدها . (المترجم)

مخطوطات إسلامية فى العلوم ، والآداب ، والشريعة ، والفلسفة(٧٧) ؛ وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى فى تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً صغيراً مما بقى من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقى إلا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائحهم ؛ وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم . وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام فى الشرق بين العصور الذهبية فى تاريخ العقل البشرى .

الفصل الخامس

التصوف والإلحاد

يلتقى الدين والفلسفة فى أعلى درجاتهما فى معنى وحدة الكون وفى تأمل هذه الوحدة . والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق ، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الحادث الفرد إلى القانون العام ، قد يكون فى وسعها أن تصل إلى هذه الرؤيا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشيها فى النفس الكلية . وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة ، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهائية خاسئاً وهو حسير ، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد ، والتقشف ، والتفانى فى العبادة ، والتجرد من كل رغبة أنانية ، وإفناء الجزء فى الكل إفناء كاملا .

ويرجع التصوف الإسلامى إلى أصول كثيرة : منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس ، وغنوطسية مصر والشام ، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين ، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين فى جميع بلاد المسلمين. وقد وجدت فى العالم الإسلامى ، كما وجدت فى العالم المسيحى ، أقلية تقية تعارض فى تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادى ومصالحه ؛ فكانوا يندددون بترف الخلفاء ، والوزراء ، والتجار ، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبى بكر وعمر بن الخطاب . وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التى تسمو فيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العلية : فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

مع ذات الله نفسها . وازدهرت حركة التصوف فى بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قربها من بلاد الهند ، كما ازدهرت فى جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التى وضعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينة إلى فارس فى عام ٥٢٩ . وكلمة صوفى التى تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التى كانوا يرتدونها(*) . وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين بمبادئها المتحمسين لها ، ومن كبار الشعراء ، والقائلين بوحدة الوجود ، والزهاد ، والمشعوذين ، والكثيرى الزوجات . وكانت مبادئهم تختلف باختلاف الأوقات والبيئات ؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة فى قلوبنا ، بعد أن نتخلى عن جميع الشهوات الجسمية والانقطاع إلى الله(٧٨) . ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً ، فقالوا إن كل ما نراه فى العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه . ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان ، أو حفيف أوراق الشجر ، أو خرير الماء ، أو تغريد الطير ، أو هبوب الريح ، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له(٧٩).

والحق أن الصوفى يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية ، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله . وعلى هذا فالله هو كل شىء ، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله ، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه(٨٠). وعلى هذا فكل نفس هى الله ؛ والصوفى الكامل يجهر فى غير مواربة بأنه « هو نفس الذات الإلهية » . ويقول أبو يزيد (حوالى عام ٩٠٠) : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى »(٨١)(**) . ويقول الحسين

(*) فى كتاب الأستاذ رينولد ا . نيكولسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى فصل قيم فى سبب هذه التسمية فليرجع إليه من يريد التوسع فى هذا البحث . (المترجم)

(**) يقول الأستاذ نيكلسون إن فى نسبة هذه الأقوال إلى أبى يزيد بعض الشك . انظر ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى السالفة الذكر . (المترجم)

ابن منصور الحلاج :

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحـــان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

إنى مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود . . . أنا الحق »(٨٢)(*)

وقبض على الحلاج لمغالاته فى عقيدته الصوفية ، وضرب مائة سوط وألقى فى النار حتى مات (٩٢٢) . ويدعى أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا إليه بعد أن خمدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين ، واتخذه كثيرون من الصوفية وليهم وحاميهم .

ويعتقد الصوفى كما يعتقد الهندوسى أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد منه لكى ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام . والتطهير يكون بضروب من التفانى فى الطاعات ، والتأمل والنظر والتدبر ، والصلاة ، وإطاعة المريد لأستاذه الصوفى أو معلمه ، والتجرد الكامل من جميع الشهوات البدنية ، بما فيها التجرد من شهوة النجاة ، والاتحاد الصوفى مع الله . والصوفى الكامل يحب الله لذاته لا رغبة فى ثواب ولا خوفاً من عقاب . وفى ذلك يقول أبو القاسم إن المعطى خير من العطية(٨٣) . والصوفى عادة يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية ، ومنهم من يتخذه نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على الطبيعة ، ولكنه يكاد يكون على الدوام سبيلا إلى الاتحاد مع ذات الله . ومن فنيت نفسه فناء تاما فى هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل(٨٤) . ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين ، وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج . وفى ذلك يقول أحد المتصوفة

(*) يذكر ابن النديم صاحب الفهرست أسماء ٣٥ كتاباً للحلاج منها كتاب نور النور التجليات ، وكتاب علم البقاء والفناء ، وكتاب كيف كان وكيف يكون ، وكتاب لا كيف . (المترجم)

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا فتتجه نحو وجه الحبيب(٨٥) .

وظل الصوفية يعيشون فى الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم . بل إنهم كانوا لا يرون أن للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية . وفى ذلك يقول أبو سعيد إن الولى الحقيقى يسير بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ، ولا ينسى الله لحظة واحدة(٨٦) .

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غيرهم بشىء سوى بساطة حياتهم ، وتقواهم وخشوعهم ، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين المسيحيين . وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقى والصلاح ؛ وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التى أصبح لها شأن عظيم عند الصوفية المتأخرين . ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم ، وإن كان الزهد فى ذلك الوقت من الأمور النادرة ، وكان يلقى كثيراً من المقاومة . وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود فى بداية الإسلام . ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (٧١٧ — ٨٠١) . وكانت فى شبابها جارية اشتريت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد هالة من النور فوق رأسها وهى قائمة للصلاة . وأبت رابعة أن تتزوج وعاشت عيشة الزهد ، وإنكار الذات ، وفعل الخير . وسئلت فى يوم من الأيام « هل تكرهين الشيطان ؟ » ، فأجابت : « إن حبى لله قد منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان » . ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الذائعة الصيت : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقنى بالنار ، أو طمعاً فى الجنة فحرّمها علىّ ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى

من مشاهدة وجهك ، إلهي ! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك ، لأني لا أسعى إلا إليك وحدك »(٨٧)(*) .

ولنختر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبي الخير (٩٦٧ — ١٠٤٩) . ولد هذا الرجل في ميهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا ؛ ويروى عنه أنه قال في هذا الفيلسوف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو(٨٨) . وقد أولع في صباه بالأدب البذيء ، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية ؛ ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع في يوم من الأيام درساً لأبي على يدور حول قوله تعالى « قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » . ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فتح في قلبه باب الإيمان وكأنما انتزع من نفسه فجمع كتبه كلها وأحرقها ثم آوى إلى ركن في بيته ، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله . ولقد كان تكرار لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبيلا محببة إلى « الفناء » ويقصدون به انتقال الصوفي عن نفسه في حال وجده . وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقشف ، فلم يلبس إلا قميصاً واحداً ، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى ، ولم يذق الطعام إلا وقت الغروب . ولم يكن طعامه إلا كسرة من الخبز ، ولم يرقد على فراش لينام ، وحفر في جدار بيته حفرة ، لا تزيد حين يقف فيها على طوله وعرضه ، وكثيراً ما كان يحبس نفسه فيها . ويسد أذنيه لكيلا تصل إليهما أصوات من الخارج . وكان في بعض الليالي يربط نفسه بحبل ويتدلى برأسه في بئر ، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض — هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه . وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية ، فكان يتسول لهم ، وينظف

(*) نقلنا هذا النص عن « تذكرة الأولياء للعطار » ، والذى أورده المؤلف هو الجزء الثانى ، وقد أضفنا نحن الجزء الأول إتماماً للفائدة . (المترجم)

لهم خلواتهم وفضلاتهم . ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقذار ، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه « أليس الله بكاف عبده ؟ » . ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراق الكامل وبدأ يخطب الناس ، والتف حوله كثيرون من الأتقياء المخلصين ، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلطخون وجوههم بروث حماره لتحل عليهم بركته[٨٩] . وقد ترك أثره فى التصوف بأن أنشأ خانقاه للدراويش ووضع لها طائفة من القواعد جعلتها نموذجاً لأبناء الطائفة فى القرن الذى بعده .

وكان أبو سعيد يعلم الناس ، كما علمهم القديس أوغسطين ، أن رحمة الله ، لا أعمال العبد الصالحة ، هى سبيل النجاة ؛ ولكنه كان يعنى بالنجاة ، التحرر الروحى ، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة ، ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة ثم يأتى بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره ... ثم يفتح له الله بعدئذ باب الحب ، ولكنه لا ينفك يقول فى نفسه « أحب » . . . ثم يفتح له باب التوحيد . . . وعنده يدرك أن الله كل شىء وأن كل شىء منه وإليه . . . ويعرف أنه غير محق فى قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله . . . لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها . إن نفسك تبعدك عن الله ، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعدانى فى الشر . . . وهذا قد أحسن إلىّ — كل هذا شرك بالله ، فليس شىء يعتمد على المخلوقات ، بل يعتمد كل شىء على الخالق . إن عليك أن تعرف هذا ، فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل « اثنين » أبداً . . . قل الله واثبت على هذا القول[٩٠] .

وتظهر هذه العقيدة الهندية — الإمرسونية(*) فى بعض الأقوال المنسوبة إلى أبى سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكا فيها !

(*) أى التى هى مزيج من عقائد الهند وإمرسن الفيلسوف الأمريكى . (المترجم)

وسألته : « لمن يكون جمالك ؟ » فقال : « لى » لأنه لاموجود سواى ؛ أنا الحب ، والمحبوب ، والحب كلها فى واحد ، أنا الجمال ، والمرآة ، والعينان اللتان تريان(٩١) ؛

وإذا لم يكن عند المسلمين ، كما كان عند المسيحيين ، كهانة تثبت لهؤلاء الأبطال الصالحين قداستهم ، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه القداسة ، ولم يحل القرن الثانى عشر الميلادى حتى غلبت عواطف الشعب الطبيعية ، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا التقديس ضرباً من الوثنية . وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين إبراهيم ابن أدهم (القرن الثامن ؟) ، وهو الذى يسميه لى هنت Leigh Hunt فى قصيدة له مشهورة أبو بن أدهم Abou ben Adhem . ويعزو خيال العامة إلى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كشف عن أعينهم الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس ، ويقرءون الأفكار ، ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس ، بل إنهم يبالغون فى مقدرتهم فيقولون إن فى وسعهم أن يبتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم من ذلك أذى ، وأن يخترقوا النيران من غير أن يحترقوا بها ، وأن يمشوا على الماء ، ويطيروا فى الهواء ، ويجتازوا المسافات الشاسعة فى غمضة عين . ويروى أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب ما يروى من نوعها فى هذه الأيام(٩٢) . وهكذا يحدث على توالى الأيام أن الدين(*) الذى يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان ، يتشكل ثم يتشكل بتأثير حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم ، حتى يصبح التوحيد الذى يجىء به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذى يعتقده عامة الشعب .

وقبل المسلمون من أهل السنة الصوفية فى حظيرة الدين الإسلامى ، وأفسحوا

(*) لا حاجة إلى التنبيه بأن الكاتب لا يقصد بهذا ديناً معيناً بل يشير إلى الأديان بوجه عام . (المترجم)

لهم مجالا كبيراً فى عقائدهم وأقوالهم : ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائف المارقة التى تخفى تحت ستار العقائد الدينية آراء سياسية ثورية ، أو تدعو إلى الفوضى الأخلاقية والقانونية . ومن بين هذه الطوائف الثورية التى مزجت فى عقائدها الدين بالسياسة طائفة « الإسماعيلية » : ويذكر القارئ ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن على رأس كل جيل من أبناء على إلى الجيل الثانى عشر إماماً أو زعيما ، وإن هذا الإمام يختار من يخلفه فى هذه الزعامة . وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده . ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر ، فخلعه جعفر عن الإمامة واختار بدله موسى الإمام السابع (حوالى عام ٧٦٠) : ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأئمة . وظلت طائفة « الإسماعيلية » هذه نحو مائة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها ، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعون إلى عقيدة الطائفة فى بلاد الإسلام . وكان يطلب إلى المبتدئ قبل الدخول فى الطائفة أن يقسم بألا يفشى شيئاً من أسرارها ، وأن يطيع الزعيم الأكبر للطائفة فى كل ما يأمره به . وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطنى وآخر ظاهرى . وكان يقال لمن يدخل فى مذهبهم إنه بعد أن يمر بتسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب ، وينكشف له التعليم أو العقيدة الخفية (الله هو كل شىء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون . وفى المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شىء ، وإن أحداً لا يستطيع أن يعبده[٩٣] ؛ وقد انضم إلى طائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيوعية ، دفعهم إلى هذا ما تقول به من أن مهدياً سيظهر فى وقت من الأوقات ، ويبسط على الأرض عهداً من المساواة ، والعدالة ، والحب الأخوى . وقد أوضحت هذه الطائفة الأخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم فى الإسلام سيطرت فى وقت من الأوقات على شمالى إفريقية ومصر ، وأسست الخلافة الفاطمية ، وقامت فى أواخر

القرن التاسع بحركة كادت تقضى على الخلافة العباسية :

ولما مات عبد الله القداح فى عام ٨٧٤ تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراقى اشتهر باسم حمدان قرمط ، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس فى آسية يسمون أتباعها فى وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه : وكان يرمى إلى القضاء على قوة العرب ، وإعادة الدولة الفارسية ، وضم إليه خفية آلافا من المؤيدين ، والأعوان ، وفرض عليهم أن يخرجوا عن خمس أملاكهم ودخلهم ليصبح ملكا عاما للجماعة . ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية فى تلك الحركة التى كانت فى ظاهر أمرها نوعا من الصوفية الدينية . فكان القرامطة يقولون بشيوعية الملك والنساء[٩٤] ، وقد نظموا العمال فى طوائف للحرف ، ونادوا بالمساواة بين كافة الناس ، وأخذوا يفسرون القرآن تفسيراً مجازياً لا يتقيدون فيه بأقوال أهل السنة . وكانوا يتحللون من الشعائر الدينية ومن الصيام ، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة[٩٥] : وبلغ من أمرهم أن أقاموا فى عام ٨٩٩ دولة مستقلة على الشاطئ الغربى للخليج الفارسى ، وهزموا جيش الخليفة فى عام ٩٠٠ ، وأفنوه عن آخره ، ولم ينج من القتل جندى واحد . وفى عام ٩٠٢ اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق ، وفى عام ٩٢٤ نهبوا البصرة ثم الكوفة ؛ وفى عام ٩٣٠ نهبوا مكة نفسها ، وقتلوا ثلاثين ألفا من المسلمين ، وعادوا بكثير من الغنائم ، منها كسوة الكعبة ، والحجر الأسود(*) : غير أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفدت قوة تلك الحركة ؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التى كانت تهدد الملك والنظام العام ؛ ولكن مبادئها وأساليبها العنيفة انتقلت فى القرن التالى إلى إسماعيلية ألموت(**) ، وهم المعروفون بالحشاشين .

(*) وأعيد الحجر إلى الكعبة فى عام ٩٥١ بأمر الخليفة الفاطمى المنصور .

(**) ويسمى أيضاً عش النسر . (المترجم)

الفصل السادس

الأدب

لقد كان فى الحياة والدين فى الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمسرحيات ، أما الأدب الإسلامى فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة ، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية ، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية ؛ فقد كانت معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقرؤونه وهم صامتون ؛ ولم يكن فى وسع من يهتمون بنتاج الخيال أن يرقوا إلى الدرجة التى يستطيعون أن يركزوا فيها عقولهم ذلك التركيز الذى لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة الحلقات ؛ أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبى البشر ، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها فى حماسة الأطفال وتشوقهم ، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً ، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا ، وقصص ألف ليلة وليلة . وقد نقلت القصص الأولى من الهند إلى فارس فى القرن السادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها ترجمت إلى اللغة العربية فى القرن الثامن . ثم فقد أصلها السنسكريتى ، وبقيت الترجمة العربية ، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى ؛

يحدثنا المسعودى (المتوفى عام ٩٥٧) فى *مروج الذهب* عن كتاب فارسى يدعى *هزار أفسانه* أو *ألف قصة* وعن ترجمته العربية *ألف ليلة وليلة* ؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب *ألف ليلة وليلة* . وخطة الكتاب كما يصفها المسعودى هى الخطة التى نجدها فى كتاب *ألف ليلة وليلة* العربى . وكان هذا

الإطار المحتوى على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن فى بلاد الهند ، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولا فى العالم الشرقى ، ولربما كانت كل مجموعة منها تختلف فى محتوياتها عن غيرها من المجموعات ، ولسنا واثقين أن أية قصة فى المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التى تحتويها المجموعة التى يحدثنا عنها المسعودى . وحدث بعد سنين قلائل من عام ١٧٠٠ أن أرسل مخطوط غير كامل ، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام ١٥٣٦ ، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسى أنطوان جالان Antoine Galland ، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب ، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية . ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بذاءة ، فأصدر فى باريس عام ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية Les mille et une nuits . ونجح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحرى ، وعن مصباح علاء الدين ، وعن على بابا واللصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص ألف ليلة أكثر ما يقرأه الناس من الكتب فى العالم كله إذا استثنينا الكتاب المقدس (وهو أيضاً كتاب شرقى)(*) .

والنثر الأدبى فى الكتب الإسلامية صورة من الشعر . ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى ، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف ، واللغة العربية التى كانت فى الوقت الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر مقفى لتشابه أواخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف ؛ ولهذا فإن النثر الأدبى كثيراً ما يكون مسجوعاً ؛ وكان الوعاظ ، والخطباء ، والقصاصون ، يلجأون إلى النثر المسجع ، وبهذا كتب بديع الزمان الهمذانى (المتوفى عام ١٠٠٨) مقاماته — وهى قصص كان يرويها لجماعات مختلفة عن وغد

(*) والقرآن بطبيعة الحال وهو الذى يقرؤه كله أو بعضه مسلمو العالم أجمعون . (المترجم)

أفاق أوتى من الذكاء والفكاهة أكثر مما أوتى من الأخلاق الطيبة : وكانت عقول أهل الشرق الأدنى فى ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن ، شأنهم فى هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة ، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى ؛ وكانت القصائد تكتب لكى تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص فى بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها . وقلما كان هناك شخص لا يقرض الشعر — كما كانت الحال عند طبقة السموراى فى بلاد اليابان . وكان من ضروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتا من الشعر بدأه غيره ، أو يتم مقطوعة بدأها زميله ، أو ينافس مناظراً له فى ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية . وكان الشعراء ينافس بعضهم بعضاً فى ابتداع ضروب معقدة من الأوزان والقوافى ، وكان كثيرون منهم يقفون أواسط الأبيات الشعرية وأواخرها ، وكثرت ضروب الأوزان والقوافى فى الشعر العربى وكان لها بالغ الأثر فى نشأة القافية فى الشعر الأوربى .

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور — لا نستثنى من هذا التعميم حضارة الصين فى أيام لى پو ، ودوفو ، ولا حضارة ڤيمار Veimar حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر » — الحضارة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية فى عدد شعرائها وثرائهم . وقد جمع أبو الفرج الإصفهانى (٨٩٧ — ٩٦٧) فى أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم فى كتاب الأغانى . وحسبنا دليلا على غنى الشعر العربى وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً . وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والناس يخشون هجوهم اللاذع ، والأغنياء يبتاعون مديحهم بيتا بيتا ، والخلفاء يجيزون الشعراء بالمناصب العالية ويمنحونهم بالهبات السخية إذا قالوا فيهم قصائد من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم . ويحكى أن هشاما أراد مرة أن

يتذكر قصيدة من القصائد فأرسل فى طلب حماد الشاعر الراوية ، وكان من حظه أنه يذكر هذه القصيدة بأكلها ، فلما أنشدها لهشام أجازه بجاريتين وبخمسين ألف دينار[٩٧] ، وأكبر ظننا أن أحداً من شعراء هذه الأيام لن يصدق هذه القصة . وبعد أن كان الشعر العربى ينشد لبدو الصحراء ، أضحى الآن يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم ، وأصبح الكثير منه متكلفا ، أكثر ما يعنى به هو الشكل ، شديد التأنق إلى حد التفاهة ، كثير المجاملة خاليا من الإخلاص ؛ ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظماء إلا قبل عهد النبوة[٩٨] ؛

والحب والحرب أكثر مواءمة للشعر من الموضوعات الدينية ، وقلما كان شعر العرب صوفى النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس) ؛ فقد كان الشاعر العربى يفضل أناشيد القتال ، والعاطفة ، والانفعالات النفسية ؛ ولما أن اختتم قرن الفتوح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية ، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة — شَعرها العطر ، وعينيها الشبيهتين بالدرتين ، وشفتيها القرمزيتين ، وأطرافها الفضية ؛ وظهرت فى الصحراوات وفى المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح الأدب فى عرف الفلاسفة والشعراء يعنى آداب الحب وسلوك المحبين . وانتقل هذا المعنى عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسبانيا ، ومنهما إلى إيطاليا وپروڤانس Provence فى فرنسا ، وانطلقت الألسن وجادت القرائح بالشعر الموزون المقفى .

واشتهر الحسن بن هانئ باسم أبى نواس — لغدائره التى كانت تنوس على كتفيه . وكان مولده فى بلاد الفرس ، ثم رحل إلى بغداد ، ونال الحظوة عند الخليفة الرشيد ، ولعله اشترك معه فى واحدة أو اثنتين من المغامرات التى تعزى إليهما فى كتاب ألف ليلة وليلة . وكان أبو نواس مولعاً بالخمر والنساء والغناء ؛

وكثيراً ما أغضب الخليفة بإدمانه الخمر جهرة ، وبزندقته ودعارته ؛ وكثيراً ما سجنه ثم أطلقه ، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بأهداب الفضيلة ، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينما سار . ولكن أكثر ما كانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التي وصف فيها الخمر والفساد :

يا سليمان ! غنني ومن الراح فاسقني
فإذا ما دارت الزجا جة خذها واعطني
ما ترى الصبح قد بدا في إزار مُبَيَّن
عاطني كأس سلوة عن أذان المؤذن[٩٩]

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ رباً غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا[١٠٠]

وكان في بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم — فكان في بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً ، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق . واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين ، ولكنه يشتهر عند المسلمين باسم المتنبي — أي مدعي النبوة . وقد ولد هذا الشاعر في الكوفة عام ٩١٥ ، وتلقى العلم في دمشق ، ثم ادعى النبوة ، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه ، وأقام في بلاط أمير حلب . وكان كأبي نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلي ولا يقرأ القرآن[١٠١] ، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترقى إلى المستوى اللائق به ، فإنه كان يستمتع بها استمتاعاً يصرفه عن التفكير في الخلود . وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة في شعر جمع بين قوة المعنى وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعذر الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . ومن هذا الشعر بيته المشهور الذي كان سبباً في هلاكه وهو :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذلك أن جماعة من اللصوص هاجمته ، وأراد هو الفرار ، فذكره غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر ، وأراد المتنبي أن يصدق فعله قوله ؛ فحارب ومات مثخناً بجراحه (٩٦٥)[١٠٢] .

وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد فى معرة النعمان القريبة من حلب أبو العلاء المعرى أعجب شعراء العرب على الإطلاق . وفقد أبو العلاء بصره فى سن الرابعة على أثر إصابته بالجدرى ، ولكنه جد فى طلب العلم ، وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التى وجدها فى دور الكتب ، وطاف بأنحاء العالم الإسلامى ليستمع إلى المشهورين من العلماء ، ثم عاد إلى مسقط رأسه . وكان دخله السنوى خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت عودته لا يزيد على ثلاثين ديناراً ، أى ما يعادل اثنى عشر ريالا أمريكيا فى الشهر ، يشاركه فيها خادمه ومرشده . وأذاعت قصائده شهرته فى العالم الإسلامى ، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبى أن يلجأ إلى المديح . وزار بغداد فى عام ١٠٠٨ وأكرم الشعراء والعلماء وفادته ، ولعله تأثر فى العاصمة بآراء بعض المتشككة ، وهى الآثار التى تتخلل بعض قصائده . وعاد منها إلى المعرة فى عام ١٠١٠ وأصبح فيها من الأغنياء ، ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الخالية من جميع مظاهر النعيم . وكان المعرى نباتيا إلى أقصى حد ، لا يكتفى بالامتناع عن لحم الحيوان والطير بل يمتنع كذلك عن اللبن ، والبيض ، وعسل النحل ؛ فقد كان يرى أن الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه . ولهذا السبب أيضا أبى أن يتخذ شيئا من اللباس من جلد الحيوان ، وعاب على النساء لبس الفراء ، وأشار بلبس الأحذية الخشبية[١٠٣] . ومات المعرى فى الرابعة والثمانين من العمر ، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن مائة وثمانين شاعراً ساروا فى جنازته ، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره[١٠٤] .

وأعظم ما يشهر به فى بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها ١٥٩٢

قصيدة والمعروفة باللزوميات . ولم يتحدث أبو العلاء فى هذه القصائد عن النساء والحرب كما كان يتحدث عنهما زملاؤه من الشعراء ، بل عمد فى جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية فى الحياة : هل نتبع الوحى أو العقل ؟ — وهل الحياة خليقة بأن يحياها الإنسان ؟ — هل ثمة حياة بعد الموت ؟ — هل يوجد إله ؟ . . . ويجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه ؛ ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذى لا يرغب فيه :

إذا قلت المحال رفعت صوتى　　　وإن قلت اليقين أطلت همسى[١٠٥]

وهو يعيب فى أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً　　　شطراً وإن تفعل فأنت مغرر[١٠٦]

والمعرى بصريح العبارة متشائم ، لا أدرى ، يؤمن بالعقل دون الوحى :

يرتجى الناس أن يقــوم إمام　　　ناطق فى الكتيبة الخرســـاء
كذب الظن لا إمام سوى العــقل مشيراً فى صبحه والمساء

. . . .

هل صح قول من الحاكى فنقبله　　　أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب　　　والعقل غرس له بالصدق إثمار[*]

(*) وهنا أورد الكاتب أبياتاً أخرى قال إنها من شعر أبى العلاء ، وقال فى سجل المراجع إنه نقلها من كتاب أمين الريحانى المسمى The Quatraines of Abu el'Ala'. وقد بحثنا أولا فيما لدينا من كتب أبى العلاء : اللزوميات ، وسقط الزند ، ورسالة الغفران فلم نعثر على هذه الأبيات ، وقد وجدنا فى كتاب أمين الريحانى الأبيات التى أوردها المؤلف وما بعدها ، وقوله إنها مترجمة عن اللزوميات طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ . وأعدنا البحث فلم نعثر على الأبيات فى هذه الطبعة . وأخيرا وجدنا الأبيات التى نقلها مؤلف هذا الكتاب وما جاء بعدها فى كتاب أمين الريحانى وجدناها فى شعر محيى الدين بن عربى وهى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى　　　إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
فأصبح قلبى قابلا كل صورة　　　فرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف　　　وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت　　　ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهو يندد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمآرب الإنسان الدنيئة ، والذين يملؤون المساجد بالرعب حين يخطبون ، ولكنهم ليسوا فى مسلكهم خيراً من الذين يحتسون الخمر فى الحانات على نغمات المغنين .

لا تطيعن قوماً ما ديانتهم   إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إنما هذه المذاهب أسباب   لجذب الدنيا إلى الرؤساء

كذب يقال على المنابر دائماً   أفلا يميد لما يقال المنبر

رويدك قد غررت وأنت حر   بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً   ويشربها على عمد مساء
تحساها فمن مزج وصرف   يعل كأنما ورد الحساء

طلب الخسائس وارتقى فى منبر   يصف الحساب لأمة ايهولها
ويكون غير مصندق بقيامة   أضحى يمثل فى النفوس ذهولها[١٠٨]

ومن أقواله أن أحط الناس فى وقته هم الذين يشرفون على الأماكن المقدسة فى مكة . فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أى إثم فى سبيل المال ، وينصح مستمعيه بألا يضيعوا أوقاتهم فى الحج[١٠٩] وأن يقنعوا بعالم واحد :

وفى بطحاء مكة شر قوم   وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجال شيبة سادنيها   إذا راحت لكعبتها الجمارى
قيام يدفعون الناس(*) شفعاً   إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائف أولجوهم   وإن كانوا اليهود أو النصارى

— والأبيات الإنجليزية التى أوردها المؤلف منقولة من كتاب أمين الريحانى ، تكاد تكون ترجمة حرفية لهذه الأبيات . (المترجم)

(*) ويروى يدفعون الوفد . (المترجم)

وما حجى إلى أحجـار بيت كؤوس الخمر تشرب فى ذراها

وما الركن فى قول ناس لست أذكرهم إلا بقيـــة أوثان وأنصاب

لاحس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس إذا بانت عن الجسد(١١٠)

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا(*)
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك(١١١)

ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة .

وإن جُعلت بحكم الله فى خزف يقضى الطهور فإنى شاكر راضى(١١٢)

وهو يؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شىء ، ويعجب من الطبيب الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح .

عجبى للطبيب يلحد فى الخا لق من بعد درسه التشريحا(١١٣)

لكنه حتى فى هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقنى وأهل نحاسى
عنب وخمر فى الإناء وشارب فمن الملوم أعاصر أم حاسى

ويقول فى سخرية شبيهة بسخرية ڤلتير :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم ولا ريب فى عدل الذى خلق الظلما(١١٤)

ثم ينفجر غضبه كما ينفجر غضب ديدرو Diderot فيقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء(١١٥)

(*) ومثل هذا قوله :

ضحكنا وليس ما يوجب الضحـ ـك لدينا بل ما يهيج التحابا (المترجم)

وساءه ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه التشاؤم ، فكان عند المسلمين شبيها بتيمن الأثيني(*) : يرى أن لا أمل فى إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الخلق :

كتب الشقاء على الفتى فى عيشه وليبلغن قضـــاءه المحتوما

فما أذنب الدهر الذى أنت لائم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا(١١٦)

رب متى أرحل عن عالمى فأنت بالنـاس خبير عليم

رب متى أرحل عن هذه الدنيــا فقد أطلت المقام

ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يعتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلقى إلا صديقا واحداً أو اثنين ، وأن يحيا كما يحيا الحيوان الوديع بعيداً عن الخلق .

ويقول : لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولد قاسى العذاب والمحن حتى يبسط عليه الموت لواء السلام(١١٧) :

وما العيش إلا علة برؤها الردى فخلى سبيلى أنصرف لطياتى

والعيش داء وموت المرء عافية إن داؤه يتوارى شخصه حسما

والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتى بشفاء السقام

على الموت يجتاز المعاشر كلهم مقيم بأهليه ومن يتغرب

وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغى فتأكل من هذا الأنام وتشرب

كأن هلالا لاح للطعن فيهم حناه الردى وهو السنان المجرب

كأن ضياء الفجر سيف يسله عليهم صباح فى المنايا ملرب

وليس فى وسعنا أن ننجو من منجل الموت ، ولكن فى وسعنا أن نفوت عليه

(*) انظر قصة تيمن الأثيني فى مسرحية شيكسبير المعروفة بهذا الاسم ، أو فى قصته كما رواها تشارلس لام مترجمة فى كتابنا «قصص من شيكسبير» . (المترجم)

غرضه بألا نلد له أطفالا : وفى ذلك يقول أبياتاً من الشعر لا تفترق عن أقوال المؤمنين أشدّ الإيمان بأقوال شوبنهور :

وإذا أردتم للبنين كرامة　　　فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر(*)(١١٨)

وقد عمل هو بهذه النصيحة ، وكتب بنفسه قبريته وهى أشد القبريات مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة :

هــذا جناه أبى علىّ　　　وما جنيت على أحد(**)(١١٩)

ولسنا نعرف كم من المسلمين كانوا يشاركون المعرى فى تشككه ؛ ذلك أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أو غير مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر ، وقد يؤدى بنا هذا إلى الاستخفاف بما كان فى العصور الوسطى من تشكك فى العالم الإسلامى كما حدث فى العالم المسيحى . وبلغ الشعر العربى عند المتنبى والمعرى ذروتهما ، فلما انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن صوت الفلسفة ، فصبغ هذا وذاك الشعر العربى صبغة جديدة تتسم بعدم الإخلاص ، وتَصَنُّع العاطفة ، وتكلف الأناقة اللفظية فى قصائد غثة تدور حول شئون بلاط الأمراء . وفى هذا الوقت عينه كانت نهضة الفرس ، وبعثها ، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة وتخلق فيها نهضة حقة . ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

(*) ومثلها :

أرى ولد الفتى عبئاً عليــه　　　لقد سعد الذى أمسى عقيما
أما شاهدت كل أبى وليد　　　يؤم طريق حتف مستقيما
فإما أن يربيــه عــدواً　　　وإما أن يخلفــه يتيما

أرى النسل ذنباً للفتى لا يناله　　　فلا تنكحن الدار غير عقيم

(**) لقد اعتمد المؤلف فى إيراد هذه الأبيات وما سبقها على كتب نكلسون الواردة فى ثبت المراجع وهى جميعاً كتب مفيدة ممتعة يرجع إليها الفضل فيما يعرفه علماء الغرب عن روعة الشعر الإسلامى وتنوع أغراضه .

كلياً بل بقيت يتحدث بها الشعب ؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبت وجودها بالتدريج ، وتعود كما كانت لغة الحِكَم والأدب . وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافى فى عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين . وظلت سائرة فى هذا الطريق حتى أضحت هى اللغة الفارسية الجديدة فى هذه الأيام ، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية ، وبعد أن استخدمت الخط العربى الجميل . وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشِعرها العظيم . وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة ، وإلى شِعر الغزَل المثنوىَ أو الشعر القصصى والرباعيات . وما لبث كل شىء فى فارس — من وطنية ، وعاطفة ، وفلسفة ، ولواط ، وصلاح — أن عبّر عنه الشعر .

وبدأت هذه النهضة بالرودكى (المتوفى عام ٩٥٤) الذى كان يرتجل الشعر وينشد الأغانى ، ويعزف على القيثار فى بلاط السامانيين ببخارى . وفى هذا البلد نفسه ، وبعد جيل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيقى أن يصوغ الخدينامة أو كتاب الملوك شعراً . وكان دانشوار (حوالى عام ٦٥١) قد جمع فى هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة . وما كاد الدقيقى يتم كتابة ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته . وقام الفردوسى بالعمل بعده وأتمه وأصبح هومر بلاد الفرس .

وولد أبو القاسم منصور (أو حسن) فى مدينة طوس (قرب مشهد) حوالى عام ٩٣٤ ، وكان والده يشغل منصباً إدارياً فى بلاط السامانيين ، وخلف لولده بيتاً ريفياً فى بزاعة بالقرب من طوس . وكان أبو القاسم يقضى وقت فراغه فى البحث عن الآثار القديمة . واسترعى كتاب الخدينامة انتباهه فاعتزم أن يحوِّل هذه القصص النثرية إلى ملحمة قومية ، وسمى كتابه الشاهنامة ، أى كتاب الملوك ، واتخذ له حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسى ، ولعله اشتق ذلك الاسم من غياض ضيعته . وأتم الفردوسى ملحمته فى صورتها الأولى بعد

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل ، ثم سافر بها إلى غزنة (٩٩٩ ؟) راجياً أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب :

ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان فى غزنة « أربعمائة شاعر لا يفارقون مجالس السلطان محمود » . ولو صح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة كأداء فى سبيل الفردوسى ، ولكنه مع هذا أفلح فى استرعاء اهتمام الوزير فجاء بالمخطوط الضخم إلى السلطان . وتقول إحدى الروايات إن محموداً هيأ للشاعر مسكناً مريحاً فى قصره ، وأمده بقدر ضخم من المادة التاريخية ، وأمره أن يضمها إلى ملحمته . وتجمع كل الروايات التى وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أن يعطيه ديناراً ذهبياً (٤٫٧٠ دولارات) نظير كل بيت من القصيدة فى صورتها الجديدة . وظل الفردوسى يكدح زمناً لا نعرف طوله ؛ بلغت بعده القصيدة (حوالى عام ١٠١٠) صورتها النهائية ، واشتملت على ٦٠٫٠٠٠ بيت وجىء بها إلى السلطان . وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسى المبلغ الموعود ، ولكن بعض بطانته استكثروا العطاء ، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسى زنديق شيعى ومعتزل . واستمع لهم محمود وبعث إلى الشاعر بستين ألف درهم فضى (٣٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) . وغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبائع شراب ثم فر إلى هراة ، حيث اختفى ستة أشهر فى حانوت بائع كتب ، حتى يئس من العثور عليه عمال محمود الذين أمرهم بالقبض عليه . ثم لجأ الفردوسى إلى شهريار أمير شيرزاد(*) فى طبرستان ، ونظم قصيدة يهجو فيها محموداً هجواً لاذعاً . وخشى شهريار غضب

(*) ليس شيرزاد أو شهرزاد اسم إقليم ولعل الأمر قد اختلط على المؤلف أو على من رجع إليه من المؤلفين . ولم يرد شيرزاد إلا فى رواية محمد بن عبد الوهاب القزوينى فى حواشى جهار مقاله إذ يقول إنه وجد فى أصل الكتاب شهرزاد أو شيرزاد مكان شهريار . انظر مقدمة الشاهنامة للدكتور عبد الوهاب عزام فى هذا وفى قصة يوسف وزليخا ففيها تفصيل واف عن قصة هذا الشاعر وبحث علمى قيم فى هذا الموضوع . (المترجم)

السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها . وإذا جاز لنا أن نصدق هذه الأرقام ، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام ، حكمنا من فورنا أن الشعر كان من أكثر الأعمال إدراراً للربح فى فارس فى العصور الوسطى . وانتقل الفردوسى بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هى قصة يوسف وزليخا ، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئذ شيخاً فى السادسة والسبعين من العمر . وبعد عشر سنين من عودته سمع محمود بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه ، فسأل عن قائله ، ولما علم أنه من شعر الفردوسى ندم على أنه لم يكافىء الشاعر بما وعده به ، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار منه ، ولما دخلت القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنازة الشاعر (١٠٢٠ ؟) .

وتعد الشاهنامة من أعظم الأعمال فى الآداب العالمية فى حجمها إن لم تكن فى غيره . وإن من النبل بحق أن يترك شاعر الموضوعات التافهة ، والأعمال اليسيرة ، ويقضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروى فيها قصة بلده فى ١٢٠,٠٠٠ بيت من الشعر — فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوذيسة مجتمعتين . فهاهو ذا شيخ طاعن فى السن جن جنونه بوطنه ، وشغف حبا بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل . ، خرافة كانت أوحقيقة . وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية . ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة فى الأبستاق ، ويحدثنا عن جيومرث ، آدم الديانة الزردشتية ، ثم عن جمشيد العظيم حفيد جيومرث « الذى حكم العالم ٧٠٠ سنة . . . والذى سعد للعالم بحكمه ، ولم يكن يُعرف فى أيامه موت ولاحزن ولا ألم » . ولكن جمشيد بعد أن مرت به بضعة قرون « باض الشيطان فى رأسه وفرخ ولوى جيده عن طاعة ملاك الرقاب ، متعرضاً بغمط نعمه لقاصمة العقاب » « وظن أنه ليس على ظهر الأرض سواه ، وادعى أنه إله ، وبعث بصورته لكى يعبدها الناس »[١٢١] . ونصل أخيراً

إلى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع فى تلك الأيام . ولما بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال فى هوى جارية شابة فولدت منه أخا لرستم . ويخدم رستم ثلاثة ملوك وينجيهم من الموت ، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعمائة عام . ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه ، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه ، ويلقى هذا الجواد من الفردوسى الحب والدعابة اللذين يلقاهما الجواد الأصيل من كل فارسى . وفى الشاهنامة قصص حب جميلة ، وفيها بعض ما فى شعر شعراء الفروسية الغزلين فى أوربا فى العصور الوسطى من تعظيم للنساء . فيها صور ساحرة للنساء البارعات الجمال — منها صورة للملكة سوذابة التى كانت تتحجب حتى لا يرى أحد جمالها ، والتى كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب(١٢٢) . ولكن الحب ليس له شأن كبير فى حياة رستم ، لأن الفردوسى يرى أن عاطفة الحب الأبوى والبنوى يمكن أن تكون أعظم وقعاً فى النفوس من عاطفة الحب الجنسى . بيد أن رستم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة فى حب فتاة تركية تدعى تهمينة ، ثم تختفى عن عينه فلا يقف على أثرها ، ثم تربى ابنهما سهراب والحزن يملأ قلبها والكبرياء يرفع رأسها بين أترابها ، وتحدث الشاب عن أبيه العظيم الذى لا تعرف مقره ، ويلتقى الأب والابن فى حرب بين الترك والفرس ، ويقف كلاهما ليقاتل الآخر دون أن يعلما حقيقية أمرهما . ويعجب رستم بشجاعة الصبى الوسيم ، ويعرض عليه أن يحفظ عليه حياته ؛ فيرفض الغلام هذا العرض بازدراء ، ويقاتل قتال الأبطال ، ويصاب بجرح مميت . ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم ، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه . ويعدو جواد سهراب بغير فارسه حتى يدخل معسكر الترك ويصل الخبر إلى والدته فى منظر من أجمل مناظر الملحمة :

تئن وتجأر جهد الحزين ويَنتابها الغشى فى كل حين
أطالت بكاء ابنها والنحيبا فأجرت من الناس دمعاً سكوبا

وخرت على الأرض جمراً خمد ⁂ كأن بها دمها قد جمد
وعادت ترجع تحنانها ⁂ وتذكى على الابن أحزانها
وجاءت إلى طرفه الطائر ⁂ إلى زينـة الزمن الناضر
فلزت إلى رأسه صدرها ⁂ يرى الناس فى عجب أمرها
وجاءت لحلته فى كمد ⁂ تعانقها كابنها المفتقـد(*)

والقصة كلها غاية فى الوضوح يتنقل القارئ فيها تنقلا سريعا من حادثة إلى حادثة ، ولا يحس بوحدتها إلا حين يشعر بوجود الوطن المحبوب فى كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه : ونحن ، الذين لا نجد لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التى توفر عليهم أوقاتهم ، لا نجد متسعاً من الوقت نقرأ فيه كل أبيات القصيدة وندفن فيه كل ملوكها ؛ ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر الإلياذة أو الإنياذة ، أو المسلاة المقدسة ، أو الفردوس المفقود ؟ إن هذه الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أوتوا القدرة على هضمها . أما نحن فبعد أن نقرأ مائتى صفحة من صفحات الشاهنامة نمل من قراءة أخبار انتصارات رستم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك . ولكن سبب هذا الملل أننا لسنا إيرانيين ، لم نسمع إلى أنغام الشعر الفارسى الأصيل الرنانة العذبة ، ولا نتأثر بها كما يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم رستم على ثلثمائة قرية فى ولاية واحدة من بلادهم . وقد احتفل العالم المتمدين فى آسية وأوربا والأمريكتين فى عام ١٩٣٤ بالعيد الألفى للشاعر الذى ظل كتابه الضخم غذاء لروح الشعب الإيرانى مدى ألف عام :

(*) هذه الأبيات منقولة عن الترجمة العربية للشاهنامة من الفصل الذى أغفله الفتح بن على البندارى وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام . (المترجم)

الفصل السابع

الفن (*)

لما فتح العرب بلاد الشام لم يكن لديهم من الفنون سوى الشعر ، ويقال إن النبي حرم فن النحت والتصوير لأنهما من قبيل عبادة الأوثان — كما نهى عن الموسيقى ، ولبس الحرير الثمين ، والتحلي بالذهب والفضة لأنهما من أسباب التنعم المؤدى إلى الانحلال ؛ ومع أن العرب أخذوا يتحللون شيئاً فشيئاً من هذا التحريم ، فإن الفن الإسلامى فى ذلك العهد الأول كان ينحصر فى فنون العمارة ، والخزف ، والزركشة . يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً ، ولم يكونوا ذوى براعة فنية ناضجة ؛ وكانوا يعترفون بقصورهم فى هذا الميدان ، ولذلك لجأوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية المتبعة فى بيزنطية ، ومصر ، والشام ، وبلاد العراق ، وإيران ، والهند ، فعدلوها بما يوائم طبيعتهم ، كما لجأوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد . من ذلك أن نقوش قبة الصخرة فى بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثانى فى دمشق كانت بيزنطية خالصة . وفيما يلى هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حليات القرميد التى كانت متبعة فى بلاد أشور وبابل القديمة ، كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية ؛ وبعد أن دمر المسلمون فى بلاد الفرس كثيراً من الأعمال الساسانية الأدبية والفنية تنبهوا إلى مزايا مجموعات العمد ، والأقواس

(*) نحن مدينون بهذا الفصل إلى كتاب « نظرة شاملة فى الفن الفارسى » Survey of Persian Art الذى نشره آرثر أبهام پوپ Arthur Uphan Pope ، وبخاصة للفصول التى كتبها بنفسه . وإن عمله العظيم فى هذا الميدان الذى أجاده وأخلص فيه ، والذى يضارع فى عظمته ما عمله چيمس هنرى برستد فى تاريخ مصر لمن الأعمال الخالدة التى تشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وحب الإنسانية فى أجل مظاهرها .

المستدقة والعقود ، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التى أثمرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربى المعروف . ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً ، بل كانت تركيباً بارعا من أشكال مختلفة لا ينقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم . وتخطى الفن الإسلامى الذى انتشر من قصر الحمراء فى الأندلس إلى التاج محال فى الهند كل حدود الزمان والمكان ، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس ، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع ، وعبّر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شيء من نوعها حتى ذلك الوقت .

ويكاد فن العمارة الإسلامية ، كمعظم فنون العمارة فى عصر الإيمان ، أن يكون كله فنا دينيا خالصا . ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل ؛ أما بيوت الله فكانت ، من داخلها على الأقل ، نماذج من الجمال الخالد . غير أننا مع هذا نسمع عن قناطر ، وقنوات لجر مياه الشرب ، وفساقى ، وخزانات لمياه الرى ، وحمامات عامة ، وقلاع ، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبق من آثار هذه كلها إلا القليل . وقد أقامها مهندسون معماريون ، كان الكثيرون منهم فى القرن الأول بعد الفتوح الإسلامية من المسيحيين ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت فيما بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مبانى حربية ممتازة فى حلب ، وبعلبك ، وغيرهما من مدن الإسلام فى الشرق ، وعرفوا هناك فوائد الأسوار ذات المزاغل ، وأخذوا عن أعدائهم كثيراً من الأفكار التى أقاموا على أساسها حصونهم وقلاعهم المعدومة النظير ، ولقد كان قصر إشبيلة ، وقصر الحمراء فى قرطبة حصنين وقصرين معاً .

ولم يبق من قصور بنى أمية إلا القليل . ومن هذا القليل الباقى بيت ريفى فى قصير عمرة بالصحراء الواقعة فى شرق البحر الميت ، وتكشف بقاياه عن حمامات ذات قباب ، وجدران ذات مظلات : ويؤكد لنا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

فى شيراز كان يحتوى على ثلثمائة وستين حجرة واحدة منها لكل يوم من أيام السنة ، وقد طليت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان ، وخصصت منها واحدة للمكتبة ، وكانت حجرة رحبة يبلغ ارتفاعها طابقين ، ذات بواك وعقود ، ويقول عنها أحد مؤرخى الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب فى أى موضوع من الموضوعات لا تحتوى المكتبة نسخة منه(١٢٤) . ولسنا نشك فى أن للخيال أكبر نصيب فيما وصفت به شهرزاد مدينة بغداد ، ولكنه وصف يصور ما كانت عليه فخامة النقوش فى داخل القصور أصدق تصوير(١٢٥) . وكان لأغنياء المسلمين بيوت فى الريف وقصور فى المدن . وكانت لهم فى المدن نفسها حدائق كبرى ، أما بيوتهم فى الريف فكانت حدائقها « جنات » حقة — فيها بساتين ذات عيون ، وجداول ، وفساق ، وبرك مبطنة بالقرميد ، وأزهار نادرة ، وظلال ، وأشجار فاكهة ونُقل ، وكانت تحتوى عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق ، دون أن يضايقهم وهج الشمس . وكان الدين فى فارس دين أزهار ؛ فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوى جميع مظاهر الأبهة والفخامة ، وطبقت شهرة ورد شيراز وفيروزباد جميع أرجاء العالم ، وكانت الورود ذوات المائة من الأوراق من الهدايا التى يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك(١٢٦) .

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ ، كما هى الآن ، أبنية مستطيلة الشكل ؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين ، سقفها خليط من الطين ، وأعواد النبات ، وغصون الأشجار ، وجريد النخل ، والقش . وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلى مكشوف ، ذى فسقية ، وشجرة فى بعض الأحيان ؛ وكانت تحتوى أحياناً على طائفة من العمد الخشبية ، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات . وقلما كانت البيوت تبنى على الشارع أو تطل عليه ، لأنها كانت حصوناً للعزلة ، تقام للأمن والسلام ؛ وكان لبعضها أبواب سرية ، يهرب منها سكانها من فورهم إذا هوجموا أو أريد اعتقالهم ، أو يدخل منها الحبيب سراً(١٢٧) .

وكان فى كل البيوت ، عدا بيوت أفقر الناس ، أجنحة خاصة بالنساء ، لكل منها فى بعض الأحيان فناء مستقل . وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الماء ، الذى يحمل إليها من خارجها كما تحمل الفضلات منها . وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تؤلف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لجلوس الأسرة عامة تعلوها قبة ، وفى الطابق الثانى منها شرفة تطل على فناء البيت . ولم يكن بيت من البيوت عدا أفقرها يخلو من مشربية من الخشب تدخل الضوء ، وتمنع حرارة الشمس ، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من بالخارج . وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت ، وكانت هى النماذج التى صنعت على غرارها الستر الحجرية أو المعدنية التى ازدانت بها القصور والمساجد فيما بعد . ولم يكن بالبيت مدفأة ثابتة فى جدرانه ، بل كان يدفأ بموقد نحاسى متنقل يحرق فيه الفحم الخشبى : وكانت الحجرات تجصص وتطلى عادة بألوان متعددة . وكانت الأرض تفرش بطنافس من نسيج اليد ، وقد يكون عليها كرسى أو كرسيان ، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس . وكانت أرض الحجرة ترتفع بجوار الجدران فى ثلاث نواح منها بقدر قدم ، أو ما يقرب منه ليتكون من ذلك ديوان يفرش بالوسائد . ولم تكن فى هذا النوع من البيوت حجرة خاصة بالنوم ، وكان فرش النوم مكوناً من حشية تطوى فى أثناء النهار وتوضع فى مكان لحجاص كما يفعل أهل اليابان فى هذه الأيام . وكان أثاث البيت بسيطاً : يتألف من بضع مزهريات ، وآنية المطبخ ، ومصابيح ، وكوة للكتب فى بعض الأحيان .

وكان حسب المسلم التقى الفقير أن يكون المسجد جميلا ، وكان ينفق فى تشييده جهده وماله . ويجمع فيه فنونه وصناعاته ويضعها كالطنفسة بين يدى الله ، وكان فى وسع الناس جميعاً أن يستمتعوا بهذا الجمال وبتلك العظمة ، وكان

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة أنحائها . ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه . وإذا استثنينا واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه فى بعض الأحيان من المبانى المجاورة له ، وقد يكون أحياناً ملتصقاً بها التصاقاً ، وقلما كان يشيد من مواد أفخم من الآجر المطلى بالمصيص . وقد حدد شكله الغرض الذى أقيم من أجله : فكان يتألف من بهو رباعى الشكل يتسع للمصلين ، ومن حوض أوسط ونافورة للوضوء ، تحيط بها إيواناته ذات البواكى لوقاية المصلين وإظلالهم ، وليتلقوا فيها الدروس ، وفى ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء المسجد الأصلى ، وهو فى العادة قسم مسور من الرواق . وكان هذا القسم أيضاً ذا شكل رباعى يمكن المصلين من أن يقفوا صفوفاً متراصة متجهين أيضاً إلى مكة . وقد يكون فوق هذا الصرح قبة ، تكاد تبنى فى جميع الأحوال من الآجر ، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى بالجص لإخفاء هذا البروز[١٢٨] . وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى القبة المستديرة يتم كما يتم فى العمارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطهما فى القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين ، أو سلسلة من العقود الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة . وأهم ما تمتاز به عمارة المساجد هو المئذنة ، والراجح أن المسلمين فى بلاد الشام قد أخذوا فكرة المئذنة من الزجورات — الصرح — البابلى وبرج الجرس فى الكنائس المسيحية ، وأخذ الهنود المسلمون الشكل الأسطوانى من بلاد الهند ، وتأثر مسلمو إفريقية فى تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة[١٢٩] . وليس ببعيد أن تكون الأبراج ذات الأركان الأربعة فى المساحة التى أقيم عليها الهيكل القديم فى دمشق ، ذات أثر فى شكل المئذنة[١٣٠] ، وكانت فى هذا العهد الأول بسيطة خالية فى أغلب الأحيان من الزخرف ، ولم تصل إلا فى القرون المتأخرة إلى ما وصلت إليه من الدقة والارتفاع ، أو نحو ما احتوته من الشرفات الرقيقة المشة ،

والبواكى الزخرفية ، والسطوح القاشانية ، التى أنطقت فرجسون Fergusson بقوله « إنها أعظم الأبراج رشاقة فى عمارة العالم كله »(١٣١) .

وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأبهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً ، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرميد البراقة لأرض المسجد ومحرابه ؛ وبالزجاج ذى الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصابيحه ؛ وبالطنافس الغالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة ؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلى من الجدران ؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحاريب والطنف ؛ وبالنقوش الجميلة فى الخشب أو العاج أو المصنوعة من المعدن فى الأبواب ، والسقف ، والمنابر ، والسجف . . . أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبذل أعظم العناية فى نحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس . وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعليها نسخة من كتاب الله . وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنموذجاً لجمال الخط وروعة الفن الدقيق . ويجاور المنبر القبلة وهى جزء داخل فى جدار المسجد لعله مأخوذ من القبا فى الكنائس المسيحية . وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم فى تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به فى الكنائس والهياكل ، فجملوه بالقاشانى والفسيفساء ، وصور أوراق الشجر وأزهاره ، والنقوش البارزة ، والأنماط الجميلة ، ذات الألوان البديعة من الآجر ، والجص ، والرخام ، والطين المحروق ، والقاشانى .

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميين تمثيل صور الإنسان والحيوان فى الفن ! فكأن الفنانين المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية ، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غيرهم . فبحث الفنان فى أول الأمر عن منفذ لمواهبه الفنية فى الأشكال الهندسية — الخط ، والزاوية ، والمربع ،

والمكعب ، والكثير الأضلاع ، والمخروط ، والشكل اللولبى ، والقطع الناقص ، والدائرة ، والكرة ؛ وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مئات التراكيب ، وأنشأ منها الدوامات ، والأربطة ، والخطوط المتشابكة المتداخلة ، والنجوم . ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة ، فصور من مختلف المواد ، تيجاناً ، وكروما ، وأزهار البشنين . والكُنْكُر ، وخوص النخل وجريده . فلما جاء القرن العاشر مزج هذه كلها فأنشأ منها الزخرف العربى الذائع الصيت ، وأضاف إليها كلها حلية فذة كبرى هى الكتابة العربية . ذلك أنه عمد فى العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين ، أو نمقها بالذيول والنقاط ، حتى استحالت الحروف الهجائية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال . ولما تحلل الناس بعض الشىء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنان أنواعا جديدة من الزينة بأن رسم طير السماء ، وحيوان الحقل ، أو ابتدع أشكالا عن الحيوانات المختلفة لا وجود لها إلا فى مخيلته . واستطاع بفطنته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن — الفسيفساء ، والنقوش الصغيرة على العاج ونحوه ، والخزف ، والأقمشة ، والبسط . وكان النقش فى كل حالة تقريبا تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة ، تسيطر عليها صورة رئيسية ، أو موضوع رئيسى ، ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية ، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقى ؛ ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصى على فنه ؛ ولهذا أصبح الخشب ، والمعدن ، والآجر ، والجص ، والحجر ، والقرميد ، والزجاج ، والقاشانى — أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما فى خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستثنى من ذلك الفن الصينى نفسه .

واستعانت العمارة الإسلامية بهذا الفن الزخرفى فأقامت فى جزيرة العرب ، وفلسطين ، والشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والتركستان ، والهند ، ومصر

وتونس ، وصقلية ، ومراكش ، والأندلس — أقامت فى هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة فى خارجها ، والرشاقة والرقة فى داخلها ، نذكر منها مساجد المدينة ، ومكة ، وبيت المقدس ، والرملة ، ودمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ونيسابور ، وأردبيل ، ومسجد جعفر فى بغداد ، ومسجد سر من رأى العظيم ، ومسجد زكريا فى حلب ، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر فى القاهرة ، ومسجد تونس الكبير ، ومسجد سيدى عقبة فى القيروان ، والمسجد الأزرق فى قرطبة — وليس فى مقدورنا إلا أن نكتفى بذكر أسمائها لأن مئات المساجد التى بنيت فى ذلك الوقت لم يبق منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نحوها ، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب .

وقد كشف فى العصر الحديث فى بلاد الفرس وحدها — وهى جزء صغير من بلاد الإسلام — عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد فى تلك البــلاد ؛ وكان كشف آثارها من الحادثات الكبرى فى إزاحة الستار عن الماضى المجهول(*) وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل ؛ لأن كثيراً من روائع العمارة الفارسية قد عبثت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً . وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام أن المقدسى يصف فى فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمد الرخامية ، والصفائح الذهبيــة ، والجدران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ؛ وإنه لم يكن فى خراسان أو سجستان من المساجد ما يضارع فى جماله مسجد هيراة(١٣٢) . وفى وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته

(*) فى عام ١٩٢٥ صرح رضا خان ، الذى جلس بعدئذ على عرش فارس ، إلى آرثر أبهام پوپ Arthur Upham Pope بدخول مساجد بلاد الفرس وكان محرماً على غير المسلمين من قبل أن يدخلوها ، لكى يصورها من الداخل . وكان هذا حادثاً عظيما كشف للعالم عن بدائع الفن الفارسى وروعته.

العمارة الفارسية فى القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة ، بدراسة النقوش الجصية البارزة ، والعمد والتيجان المحفورة الباقية ، من محراب مسجد تايين الجامع المخرب ، والمئذنتين الجميلتين الباقيتين فى دمغان . وقد بقى من مسجد أردستان (١٠٥٥) محراب وباب جميلان ، كما كشف فيه عن كثير من العناصر التى تجلت فيما بعد فى العقود القوطية المستدقة ، والأكتاف المركبة ، والأقبية المتقاطعة ، والقبة المضلعة(١٣٣) . وكانت المادة التى شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هى الآجر ، شأنها فى ذلك شأن المبانى القديمة فى بلاد سومر وأرض الجزيرة ؛ وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات ، ووفرة الطين والنيران ؛ لكن الفنان الفارسى قد حول طبقات الآجر بفضل ما أدخله عليها من الضوء والظل ، والنماذج الفنية الجديدة ، والأوضاع الفنية المختلفة ، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظيراً لها من قبل . وقد كسا الخزاف الفارسى الآجر فى أماكن خاصة ، كمداخل المساجد والمنابر والمحاريب ، بطبقة من الفسيفساء متعددة الألوان ، وبالقرميد الزاهى البراق ؛ ولما أقبل القرن الحادى عشر زاد السطح البراق لألاء وبهاء بطبقة من القاشانى الملون اللامع . وهكذا خدم المسجد كل فن فى بلاد الإسلام ، نزل إلى هذه الخدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء .

وإذ كان قد حرم على المثال أن ينحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان ، فقد وجه جهوده إلى الزخرفة بالنقوش البارزة . فأتقن نحت الحجارة ، وشكل الجص باليد قبل أن يجف ، وصاغ منه أشكالا كثيرة مختلفة ؛ وقد بقى أنموذج رائع من هذه العمائر ، وهو القصر الشتوى الذى بدأه الوليد الثانى عام ٧٤٣ بالصحراء الشرقية إلى شرق نهر الأردن وتركه دون أن يتمه . وكان حول سطح الواجهة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار ، والفاكهة ، والطير ،

والحيوان ، والنقش العربي . وقد نقل هذا النقش الرائع إلى برلين في عام ١٩٠٤ ونجا من الدمار في أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان النجارون يجملون النوافذ ، والأبواب ، والستر الخشبية ، والشرفات ، والسقف ، والمناضد ، وكراسي المصاحف ، والمنابر ، والمحاريب ، ويبدعون في نقشها إبداعا يستطيع الإنسان أن يراه في لوحة وجدت في تكريت ونقلت إلى المتحف الفني في نيويورك . كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والخشب يزينون بفنهم المساجد ، والمصاحف ، والأثاث ، والآنية ، والأشخاص أنفسهم ، ويجملونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة . غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا قطعة واحدة هي طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن في المتحف الأهلي بفلورنس) ويقال إنها إحدى قطع الشطرنج الذي أهداه هرون الرشيد إلى شارلمان في القرن التاسع الميلادي[١٣٤] . كذلك أخذ صانعو المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق ، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح ، وأباريق ، وجفانا ، وجرارا ، وكيزانا ، وأقداحا ، وأطساتا ، ومواقد ، وصبوها في صور الآساد ، والأفاعي ، وآباء الهول ، والطواويس ، واليمام ، ونقشوا عليها في بعض الأحيان رسوماً بديعة نشاهد مثلا منها في المصباح الشبيه بالقماش المخرم والمحفوظ في معهد الفن بمدينة تشكاجو . ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب ، ويبدعون المصنوعات المعدنية « الدمشقية » أي المزخرفة بفن الدمشقيين وإن لم يكن قد نشأ في مدينتهم[١٣٥] . وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ المسقي المزين بالنقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية ، أو الحروف الهجائية ، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة . وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد برعوا في هذا الفن براعة ليس بعدها زيادة لمستزيد .

ولما انتهى عصر الفتوح الإسلامية واستقر المسلمون في البلاد المفتوحة وأخلوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم في صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خمسة في هذا

الفن هى التقاليد المصرية ، والإغريقية — والرومانية ، والعراقية ، والفارسية ، والصينية . ونقول الصينية لأن سار Sarre كشف فى سر من رأى فخارا من عهد أسرة تانج ومعه قطع من الخزف الصينى الرقيق ؛ وكانت الأوانى الفارسية — الإسلامية فى عهدها الأول منقولة نقلا لا خفاء فيه عن نماذج صينية . ونشأت مراكز صناعة الفخار فى بغداد وسامرا(*) ، والرى ، وكثير غيرها من البلدان . ولم يحل القرن العاشر الميلادى حتى كان صانعو الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الآنية الفخارية ما عدا الخزف الصينى ، ويصنعونه فى أشكال لا حصر لها تبدأ من المباصق اليدوية الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة ، التى تتسع فى القليل لأحد « اللصوص الأربعين »[١٣٦] ، ويتبين الإنسان فى خير المصنوعات الفخارية الفارسية دقة فى التصوير ، وبراعة فى التلوين ، وحذقا فى الصناعة لا تسمو عليها إلا الصناعتان الصينية واليابانية ؛ وظلت ستة قرون لا تضارعها صناعة أخرى فى جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة البامير وغربها[١٣٧] ؛ وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها مواءمة لهم ؛ وكان أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحرص على جمع روائعه ، وكثيراً ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبى العلاء المعرى وعمر الخيام تشبيهات واستعارات فى أقوالهم الفلسفية . ويحدثنا الكتاب عن مأدبة أقيمت فى القرن التاسع ارتجلت فيها قصائد ، وأهديت إلى الآنية التى كانت تزدان بها المائدة[١٣٨] .

وقد امتاز صانعو الفخار فى سامرا وبغداد فى ذلك القرن بصنع الفخار اللامع أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداعا . وكانت النقوش التى تحليه ترسم بأكسيد معدنى على طبقة من الطين المزجج ، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية مدخنة مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة ، وتكسب الطلاء بريقا متعدد

(*) وهى سُرَّ من رأى وتسمى أيضاً سُرَّاء . (المترجم)

الألوان . وبهذه الطريقة أخرج الصناع أوانى ذات لون واحد جميل ، وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل منها خضراء ذهبية ، وبنية داكنة ، وصفراء ، وحمراء ، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل عن المائة عدا . وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع القرميد التى كانت تستخدم للزينة فى فن العراق القديم ، فكانت ألوان هذه المربعات الكثيرة وما تألف منها من وحدات متناسقة مما أكسب مداخل مئات المساجد ومحاريبها وكثيراً من جدران قصور العظماء روعة منقطعة النظير . وورث المسلمون فى صناعة الزجاج — وهو الفن الشديد الاتصال بصناعة الفخار — كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حذق وبراعة ، فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة ، وزينوها بالرصائع والنقوش ، ورسوم النبات والأزهار ؛ ولعلل أهل الشام قد ابتدعوا فى ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالميناء ، وهو الفن الذى بلغ ذروة مجده فى القرن الثالث عشر .

وإذا ما ذكرنا سعة انتشار فنى التصوير والنحت فى الكنائس الكاثوليكية الكبرى وهى التى لا تكاد تخلو من آثاره واحدة منها ، وذكرنا فى الوقت نفسه أهمية هذين الفنين فى نشر العقائد والقصص المسيحية ، إذا ما ذكرنا هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما فى الإسلام . نعم إن القرآن قد حرم النحت (سورة المائدة الآية ٨٩) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير ؛ غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبى قد نهى أيضاً عنه(١٣٩) . ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء تحرم التصوير وإقامة التماثيل جميعا . ولهذا التحريم نظير فى الوصية الثانية وفى التعاليم اليهودية . ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين يخرج مثالا للكائنات الحية إنما يدعى لنفسه ما هو من حقوق الخالق جل جلاله . ومن علماء الدين من يتساهلون فى هذا فيجيزون تصوير الجماد . ومنهم من يتغاضون عن تصوير الحيـــوان أو الإنسان على

الأشياء التى لا تستعمل إلا فى الأغراض الدنيوية . وكان بعض خلفاء بنى أمية لا يعبئون قط بهذا التحريم ؛ وشاهد ذلك أن الوليد الأول زين قصره الصيفى فى قصير عمره حوالى عام ٧١٢ بمظلمات هلنستية بصور فيها رجالا يطاردون الوحوش ، وبنات يرقصن ، ونساء يغتسلن ، وهو نجالس فوق عرشه يشاهد هذا كله(١٤٠) . وكان خلفاء بنى العباس يجهرون بتقواهم ، ولكن كانت لهم قصور حوت فى حجراتهم الخاصة جدراناً مزينة بالصور ؛ وقد استأجر المعتصم فنانين ، أغلب الظن أنهم مسيحيون ، ليصوروا على جدران قصره فى سامرا مناظر صيد ، ورجال دين ، وبنات عاريات يرقصن ؛ وأجاز المتوكل ، وهو الذى كان يضطهد الملحدين ، المصورين من أهل بيزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلمات مظلما آخر يمثل رهباناً مسيحيين وكنيسة مسيحية(١٤١) .

وزين محمود الغزنوى قصره بصور تمثله هو وجيوشه ، وفيلته ؛ وغطى ابنه مسعود ، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة عن عرشه بزمن قليل ، جدران حجرات قصره فى هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب الفن الشهوانى الفارسى أو الهندى(١٤٢) . وتروى إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذا يتباريان فى بيت أحد الوزراء فى التصوير الواقعى ؛ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من باطن الجدار ؛ وعرض الثانى أن يقوم بعمل أشق من هذا — وهو أن يصورها بحيث تبدو وهى تهم بدخول الجدار . ونجح كلاهما فى إبراز فكرته نجاحا حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنية ويهبهما كثيرا من الذهب(١٤٣) . وفى وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد الدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم ؛ وحسبنا أن نقول إنا نجد فى بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسى مصورة بكثرة يطرب لها الرائى ، وممثلة بجميع أنواع فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها ، قد عاق

نمو فن التصوير الإسلامى ، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة ، وكاد يمنع تصوير الأشخاص (وإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابن سينا) ، وترك الفنانين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف ؛

ولم يبق من صور الجدران فى ذلك العصر إلا صور قصير عمرة ؛ وهى تكشف عن خليط غريب مجدب من القواعد الفنية البيزنطية والأنماط الساسانية . وكأن المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم الصغرى على العاج ومثله إلى درجة من الجمال لا تعلو عليها درجة أخرى فى التاريخ كله . وقد وجد هذا الفن تراثا متعدد الأنماط بنى عليه ، وأخرج منه ثماراً مختلفة ، ونعنى بذلك التراث البيزنطى ، والساسانى ، والصينى ؛ وكان تزيين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة فى العصور الوسطى فناً اختصت به طبقات الأشراف القليلة العدد ، شأنه فى هذا شأن موسيقى الحجرات فى أوربا الحديثة ؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقير المخلص لفنه فقراً وإخلاصاً أنتجا هذه الروائع التى تتطلب كثيراً من الجد والأناة . وهنا أيضاً أخضع التزيين تمثيل الكائنات الحية لسلطانه ؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور ، وخرج على الشكل الذى اتخذه أنموذجا له ، فكان يعمد إلى موضوع أو شكل مركزى — قد يكون شكلا هندسياً أو زهرة واحدة — ويتبسط فيه ويتوسع ويخلق منه مائة صورة مختلفة حتى لتكاد كل إصبع من الصفحة بما فى ذلك إطارها تمتلئ بالخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفراً . وكان فى وسع الفنان أن يزين الكتب غير الدينية بصور للرجال والنساء والحيوان ، فى مناظر الصيد واللهو والحب ، ولكن طراز التزيين كان هو بعينه على الدوام ، كان هو الصورة المكونة من خطوط دقيقة ، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفنى بعضها فى بعض ، ومن الجمال المجرد الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال ، والذى يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستريح .

وكان الخط العربى الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التنميق ، ولسنا نجد مثالا آخر لاجتماع الكتابة والتصوير وتآخيهما على هذا النحو إلا فى بلاد الصين البعيدة . لقد كانت الحروف الكوفية فى موطنها الأول ، بلدة الكوفة نفسها ، حروفاً سمجة ذات زوايا ، وأركان محددة فجة ، ولكن الخطاط كسا هذه العظام العجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغيرة متخذة من أوراق النبات ؛ فلما ارتقى الخط الكوفى إلى هذه الدرجة من الجمال أصبح كثير الاستعمال فى تزيين المبانى نفسها . أما الكتابة الدارجة فكان خط النسخ فيها أكثر جاذبية من الخط الكوفى ؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفقى المتعرج كان هذان فى حد ذاتهما وسيلة للزينة فى غنى عن الإضافات الأخرى . وليس فى خطوط العالم كله سواء كانت مكتوبة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الخط فى جماله ؛ ولم يحل القرن العاشر حتى كانت له الغلبة على الخط الكوفى فى تزيين المبانى أو الخزف ؛ والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التى وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كتابة القرآن كانت فى حد ذاتها من الأعمال الصالحة التى يثاب عليها صاحبها ؛ وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكا لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون . وبينا كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعا يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم فى جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الملوك والأمراء الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال ، وكان فى البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعوه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود ، والأزرق ، والبنفسجي ، والأحمر ، وبالذهب الإبريز . ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر ، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة

فى دار الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤ ؛ وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد ليناً ومتانة ، وأنه قد بذل فى تجليدها من حسن الذوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد ، وأن الجلد المغلفة به كان فى كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر هى أجمل ما رأته العين من الكتب فى العالم كله . وهل منا من يطمع فى أن تنشر كتبه اليوم بهذا الرونق وتلك الفخامة ؟

وقد اجتمعت الفنون كلها فى تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال ، فامتزجت أشكال الرسوم الدقيقة بالخط الجميل فى المنسوجات ، وطبعت بالنار على الفخار ، وأقيمت على مداخل المبانى والمحاريب . وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان ، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان ، بل كان يرفع من قدر الصانع الماهر ، وكان الهدف الذى تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة . لقد كان الناسج يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل ، مثله فى هذا كمثل صانع الفخار سواء بسواء ؛ ولكنه كان فى بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصبره ، كما يصور أحلامه ، فى الأثواب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفراش ، والنسيج المطرز ، والحرير المشجر ، يخرجه ليبقى عدة أجيال ، وقد أبدع نقشه ، وصبغه بالألوان الزاهية المحبوبة فى بلاد الشرق . لقد كانت المنسوجات البيزنطية ، والقبطية ، والساسانية ، والصينية ذائعة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، والتركستان ؛ وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد . فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التى نهى النبى عن لبسها ، وأخرجتها بكثرة ، ولبسها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر لهم خطاياهم الجسمية والروحية . وكانت حلة الشرف أثمن ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من

يؤدى له خدمة جليلة ؛ وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير فى العالم كله فى العصور الوسطى . وكانت أقمشة التفتاه الحريرية تبتاع لملابس السيدات فى أوربا ، واشتهرت شيراز بالأقمشة الصوفية ، كما اشتهرت بغداد بأقمشة الستائر ، والمظلات ، والحرير المموج ، وخوزستان بالأقمشة المنسوجة من وبر الجمال وشعر الماعز ، وخراسان بأغطية الهوادج ، وصور بالطنافس ، وبخارى بسجاجيد الصلاة ، وهراة بالحرير المنقوش بخيوط الذهب . ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد ، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ما كانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة بالنظر إلى ما كان منها فى القرون التالية ، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون لها . وقد وجدت فى المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها « ٤٠٠,٠٠٠ قطعة من الذهب ثمن حلة وهبت لجعفر بن يحيى الوزير »[١٤٤] .

الفصل الثامن

الموسيقى

كانت الموسيقى فى أول الأمر محرمة فى الإسلام تعدّ من الآثام ، شأنها فى ذلك شأن النحت[١٤٥] . نعم إنه لم ينص على تحريمها فى القرآن ، ولكن حديثاً مشكوكاً فى صحته يعزو إلى النبى أنه لخوفه من عاقبة أغانى النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات ، ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست إثماً فى ذاتها . أما الناس ، وهم أحكم فى مسلكهم منهم فى عقائدهم ، فكان يجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال أن « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما »[١٤٦] . وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملأت آلاف الليالى العربية بأغانى الحب والحرب والموت ؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العظماء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم ، وفى ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكم على هذه الأمور قولا خليقا بأن يثير الدهشة : إن المنزلة التى بلغتها الموسيقى بجميع فروعها عند العرب لتزرى بمنزلة هذا الفن فى تاريخ أى بلد آخر[١٤٧] » . نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقى العربية — ونعنى بتلك الخصائص تفضيلها حسن الإيقاع على انسجام الألحان ، وتقسيم النغمات إلى أثلاث لا إلى أنصاف ، وما فى تكوينها وتوقيعها من نضارة وبهجة هى من مميزات بلاد الشرق . وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطا ، محزنا مملا ، غريبا مستهجنا غير منتظم . لكن الموسيقى الأوربية نفسها تبدو للعربى ناقصة فى عدد نغماتها ،

وفى دقة هذه النغمات ؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتعقيد الذى لاخير فيه ، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع . وإن ما فى الموسيقى العربية من رقة تبعث على التفكير لتؤثر فى نفس المسلم أعمق التأثير . ويحدثنا السعدى عن غلام يغنى بنغمة محزنة مؤثرة تستوقف الطائر فى كبد السماء[١٤٨] . ويصف الغزالى النشوة بأنها الحالة التى يبعثها الاستماع إلى الموسيقى[١٤٩] ؛ وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلا فى كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية ، وقد استعان بها الدراويش فى أذكارهم وشعائرهم وإن كان الدين نفسه قد ندد بها فى أول الأمر :

وبدأت الموسيقى الإسلامية بالألحان والأشكال السامية القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الأسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قويا بالموسيقى الفارسية والهندية . وقد أُخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان ؛ وللكندى ، وابن سينا ، وإخوان الصفا ، كتابات مطولة فى هذا الموضوع ؛ وكتاب الفارابى فى الموسيقى أشهر ما أُلف فى العصور الوسطى فى النظريات الموسيقية وهو « يضارع أى كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه »[١٥٠] . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع السلم الموسيقى (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفاً فى أوربا قبل عام ١١٩٠)[١٥١] — وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذى تمتد إليه كل نغمة وعلى مقامها[١٥٢] .

وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عداً أشهرها كلها العود ، والقيثارة ، والبندور ، والسنطير ، والناى ، يقويها فى بعض الأحيان البوق ، والدف ، والصنج ، والرق ، والطبل . وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الاثنى عشر ؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة . وعن العرب أخذت كلمتا guitar ، و lute : وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية ، وكان الأرغن بنوعيه الهوائى والمائى معروفاً عند العرب ؛ وقد اشتهرت

بعض المدن الإسلامية كإشبيلية بصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التى لاتضارعها آلات أخرى مما كان يصنع وقتئذ فى بلاد الإسلام[١٥٢] . وكان يقصد بالموسيقى الآلية كلها تقريباً أن تصحب الغناء أو أن تكون مقدمة له . وكان يقتصر فى العادة على استخدام أربع آلات أو خمس فى وقت واحد ، ولكننا نقرأ أيضاً عن فرق موسيقية كبيرة العدد[١٥٣] ، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقى من أهل المدينة أول من استعمل القضيب[١٥٤] ؛

وكانت منزلة الموسيقيين عند المسلمين منحطة إذا استثنينا مشهورى الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الجنون ..وشاهد ذلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من عليائه فدرس هذا الفن الفاتن الذى يسلب العقول . ومن أجل هذا كانت الموسيقى فى بيوت الأغنياء من عمل القيان ، ومن المشترعين فئة تقول إن شهادة الموسيقى لا تقبل فى المحكمة[١٥٥] . كذلك كاد الرقص عندهم يقتصر على الجوارى يدربن عليه ويستأجرن له ؛ وكان فى كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً ، وفى كثير منها فنياً . وقد أقام الخليفة الأمين حفلة راقصة دامت طول الليل رقص فيها عدد كبير من الفتيات وغنين . ولما اتصل العرب باليونان والفرس ارتفعت منزلة الموسيقيين عندهم ، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقيين فى أيامهم ؛ فهاهو ذا سليمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (١٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) لمباراة بين الموسيقيين فى مكة . وهاهو ذا الوليد الثانى يعقد مباريات فى الغناء كانت الجائزة الأولى فى واحدة منها ٣٠٠٫٠٠٠ قطعة من الفضة (١٥٠٫٠٠٠ دولار أمريكى)[١٥٦] ، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كعادة أهل الشرق . وقد دعا المهدى إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة ، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه إبراهيم الموصلى وأعطاه ١٥٠٫٠٠٠ درهم (٧٥٫٠٠٠ دولار أمريكى) ورتب له عشرة آلاف كل شهر ووهبه ١٠٠٫٠٠٠ نظير أغنية واحدة . وقد بلغ من حب هرون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة فى

أخيه لأبيه ، الشاب إبراهيم بن المهدى — على الرغم من تقاليد طبقته — لأن إبراهيم كان له صوت غاية فى القوة يبلغ مداه ثمانى طبقات . وإن الزمن ليتضاءل فى خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عند ما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية فى الموسيقى العربية مضادة للنزعة الإتباعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلى . وكان المأمون يقول عنه إنه لم يغنّ لى قط إلا شعرت بأنى قد اتسع ملكى (١٥٩) .

والقصة الآتية التى يرويها مخارق تلميذ إبراهيم الموصلى تصور لنا المجتمع الإسلامى بصورة مبهجة ، وتظهر ما كان للموسيقى الإسلامية من أثر قوى فى نفس المسلم ؛ ولسنا فى حاجة إلى تصديقها لكى نحس بمغزاها ، قال :

تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم ، فقيل له : كيف ذلك؟ قال : شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين ؛ قال نعم ، وأمر البوابين أن يتركونى ؛ فخرجت أتمشى وإذا أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها ، ورأيت معها زنبيلا فوقفت على صاحب فاكهة فاشترت منه سفرجلة بدرهم ، ورمانة بدرهم وكمثراية بدرهم وانصرفت . فتبعتها ، فالتفتت فرأتنى فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد ؟ قلت خلفك يا سيدتى ؛ فقالت ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك . فتأخرت ومشيت من بعيد وهى تمشى أمامى ، ثم التفتت فرأتنى فشتمتنى شتما قبيحاً . ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بحذاء الباب ، وقد ذهب عقلى ، ونزلت علىّ الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فما لبثت أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين ؛ فلما وصلا إلى الباب استأذنا فأذن لهما ، فدخلا ، ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعانى . وجىء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل : هل لكما فى فلانة ؟ قالوا : إن تفضلت . فاستدعى تلك الجارية ، فخرجت صاحبتى ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته فى حجرها وغنت ، فشربوا وطربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً آخر فشربوا

وطربوا وهى تلحظنى وتشك فىّ ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً ثالثا فطربوا وشربوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدى يدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه . فاستدعيت بدواة وقضيب وغنيت الصوت الذى غنته الجارية أولا ، فقاموا إلىّ وقبلوا رأسى . (قال الراوى) وكان مخارق أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا . ثم غنيت الصوت الثانى والثالث فكادت عقولهم تطير . فقالوا بالله من أنت يا سيدى ؟ فقلت : أنا مخارق . فقالوا ما سبب مجيئك ؟ قلت : طفيلى أصلحكم الله ، وأخبرتهم بخبرى ، فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها ؟ قالا : بلى . قال : هى له . قال صديقاه : علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف . قال مخارق فلكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التى أهدوها إلىّ) ، وكلما مرت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول لها : يا مولاتى : أعيدى كلامك ، فتستحى منى فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمير المؤمنين (فقيل لى إنه انتبه وطلبك فى منازل أبناء القواد فلم يجدك وتغيظ عليك غيظا شديداً) ، فدخلت عليه ويدى فى يدها فلما رآنى سبّنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين : لا تعجل . وحدثته القصة فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك . فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ولى بعشرة آلاف(١٦٠)(*) .

(*) نقل المؤلف هذه القصة عن كتاب **Arabian Society in the Middle Ages** (المجتمع العربى فى العصور الوسطى) تأليف إدورد لين **Edward Lane** ونقلها لين عن كتاب حلبة الكميت . ونقلناها نحن عن الكتاب الأخير وهى مطابقة فى جملتها لما ورد فى كتاب لين عدا الجزأين المحصورين بين أقواس فالجزء الأول غير موجود فى حلبة الكميت ، والجزء الثانى غير موجود فى الأصل الإنجليزى ؛ ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر فيما كافأ به الخليفة صاحب الجارية وصديقيه فمؤلفنا يقول إن أمير المؤمنين أعطى صاحب الجارية أربعين ألف درهم ، وكل واحد من صديقيه ثلاثين ألفا ، ومخارقاً مائة ألف . أما صاحب حلبة الكميت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ولمخارق بعشرة آلاف ، وهذا يتفق مع ما جاء فى أول القصة الذى لم ينقله المؤلف . (المترجم)

الباب الثالث عشر

الإسلام فى الغرب

٦٤١ — ١٠٨٦

الفصل الأول

فتح إفريقية

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءا من العالم الإسلامى ، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعونى ؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لها من حكومة منظمة ؛ وازدهرت مدائن القيروان وپالرم وفاس إلى حين . أما أسپانيا فى عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة فى تاريخ الحضارة ؛ ولما حكم المُغُل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة ، وأبدعوا كما يبدع الصياغ .

وبينما كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمرو بن العاص ، بعد موت النبى بما لا يزيد على سبع سنين ، من مدينة غزة فى فلسطين واستولى على پلوز(*) ، ومنفيس ، ثم زحف على الإسكندرية . لقد كان لمصر مرافئ وقواعد بحرية ، وكان العرب فى حاجة ماسة إلى أسطول ؛ وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية ، وكانت بلاد العرب فى حاجة إلى الحبوب ؛ وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب فى شرطتها ، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين ؛ وكان المسيحيون اليعاقبة فى مصر قد قاسوا

(*) أو پلوزيوم ويسميها العرب الفرما . (المترجم)

الأمرين من جراء اضطهاد بيزنطية ؛ ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين ، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس ، وأرشدوهم إلى الإسكندرية(*) ، ولما سقطت تلك المدينة فى يد عمرو بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (٦٤١) كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يقول : « أما بعد ، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك »(**)(١) .

وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية . ولم يكن فى وسعه أن يدرك أسباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين ، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة .

وبعد ، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت فى كتاب عبد اللطيف (١١٦٢ — ١٢٣١) ، أحد العلماء المسلمين(٢) ؛ ثم أوردها بتفصيل أوفى بار هبريوس Bar Hebraeus (١٢٢٦ — ١٢٨٦) وهو مسيحى يهودى الأصل من شرقى بلاد الشام كتب باللغة العربية ، باسم أبى الفرج ، مختصراً لتاريخ العالم . وقد جاء فى روايته لهذه القصة أن رجلا من أهل الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومى (واسمه عند الغربيين John Philoponus) طلب إلى عمرو أن يعطيه ما فى المكتبة من مخطوطات ؛

(*) ليست هذه الرواية من الروايات الموثوق بها ، ويذكر الدكتور بطلر فى كتابه فتح العرب لمصر مصدر هذه الرواية ويورد الأدلة التى تنقضها . اقرأ هذا فى الترجمة العربية لهذا الكتاب فى هامش ص ٢٥٧ .

(**) فى الأصل الإنجليزى أربعمائة حمام ولكن حتى نقلا عن ابن الحكم والدكتور بطلر يذكر أنها أربعة آلاف حمام ، وقد تكون أربعمائة أقرب إلى العقل . (المترجم)

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه فى هذا ؛ فرد عليه عمر ، كما تقول الرواية ، بقوله : « أما ماذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها » . وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطورى فى أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير : « احرقها لأن ما فيها كله يحتويه كتاب واحد هو القرآن » . ويضيف بار هبريوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد بها ، فما زالوا يوقدون بملفات البردى والرق ستة أشهر (٦٤٢) . ومن نقط الضعف فى هذه القصة : (١) أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون فى عهد البطرق توفيلس عام ٣٩٢[٣] ، (٢) وأن ما بقى فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضا « أدى إلى ضياع معظمه قبل عام ٦٤٢ »[٤] ، (٣) وأن أحداً من المؤرخين المسيحيين لم يشر بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم فى الخمسمائة العام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة ، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو أوتكيوس **Eutychius** كبير أساقفة الإسكندرية فى عام ٩٣٣[*] قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير[٥] . ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة . هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئا فشيئا من المآسى الكبرى فى تاريخ العالم ؛ وذلك بأنها ، كما يعتقد العلماء ، كانت تحتوى على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلاس ، وسفكل ، وپولبيوس ، وليفى ، وتاستوس ، ومائة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة ، كما كانت تحتوى على النصوص الكاملة لمن جاء قبل سقراط من الفلاسفة ، وهى النصوص التى لم يبق منها إلا جذاذات متفرقة ، وعلى آلاف من المجلدات فى تاريخ اليونان ، والمصريين ،

(*) ولقد أورد الدكتور بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » المترجم إلى اللغة العربية من الأدلة القاطعة ما يفند هذه القصة . (المترجم) .

والرومان ، وفى العلوم الطبيعية ، والآداب والفلسفة .

وحكم عمرو مصر حكما صالحا ؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة(*) لتطهير قنوات الرى وترميم الجسور ، وإعادة فتح الخليج الذى كان يوصل النيل بالبحر الأحمر ، والذى يبلغ طوله ثمانين ميلا . وبذلك استطاعت السفن وقتئذ أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى(٦) (وقد طمر هذا الخليج مرة أخرى فى عام ٧٣٢ وأهمل شأنه) . وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر فى الموضع الذى أقام فيه معسكره عام ٦٤١ وسميت العاصمة الجديدة بالفسطاط ، وهى كما يبدو الكلمة المرادفة لخيمة ؛ وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين (٦٤١ — ٨٦٨) مقر الولاة المسلمين يحكمون منه مصر نيابة عن خلفاء دمشق أو بغداد .

وبعد فإن من الحقائق المقررة أن كل فتح يخلق حدودا جديدة تتعرض للخطر فتوحى بفتح جديد . وأراد المسلمون أن يحموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربى من قيرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقاتل مخترقين الصحراء إلى برقة ، واستولوا عليها ، ووصلوا قرب قرطاجنة . وغرس قائد المسلمين رمحه فى الرمل جنوبى مدينة تونس الحالية بنحو ثمانين ميلا ، وأقام فى هذه النقطة معسكره ، وأنشأ بذلك (٦٧٠) مدينة من أكبر المدائن الإسلامية وهى مدينة القيروان — « المحطة »(**) . وعرف عاهل الروم أن الاستيلاء على قرطاجنة يمكن المسلمين من السيطرة على البحر المتوسط ، ويفتح لهم الطريق إلى أسبانيا ؛ فسير إليها الجند والأسطول ؛ ونسى البربر إلى حين حقدهم على الروم فانضموا إليهم فى الدفاع عن المدينة ، فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا فى عام ٦٩٨ . ولم يلبث

(*) لعل المؤلف يقصد الضرائب التى كانت باهظة فى أيام الرومان لأن المعروف أن عمرا خفف الضرائب ووزعها توزيعاً عادلا . (المترجم)

(**) الذى فى قاموس الفيروزبادى أن القيروان القافلة . (المترجم)

شمال إفريقية أن خضع للمسلمين حتى شاطئ المحيط الأطلنطى : واقتنع البربر — بشروطهم هم أنفسهم تقريبا — بقبول حكم المسلمين ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامى ، وقسمت أملاك المسلمين فى إفريقية إداريا إلى ثلاث ولايات : مصر وعاصمتها الفسطاط ، وإفريقية وعاصمتها القيروان ، والمغرب (مراكش) وعاصمته فاس .

وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعترف بالسيادة لخلفاء المشرق ؛ ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والتنقل ، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة . فقامت أسرة الأدارسة فى فاس (٩٧٤) ، وأسرة بنى الأغلب (٨٠٠ — ٩٠٩) تحكم فى القيروان ، وقامت الأسرة الطولونية (٨٦٩ — ٩٠٥) فى مصر . ولم تعد مصر — هرى العالم القديم — نهبا للحكام الأجانب ، ودخلت فى نهضة صغرى جديدة ، وفتح أحمد بن طولون عام (٨٦٩ — ٨٨٤) بلاد الشام وضمها إلى مصر ، وبنى له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحى الفسطاط) وشجع العلوم والفنون ؛ وشاد القصور ، والحمامات العامة ، وأنشأ بيمارستاناً ، ومسجداً عظيما لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضله : وقلب ابنه خماريه (٨٨٤ — ٨٩٥) هذا النشاط إلى ترف ، ورصع جدران قصره بالذهب ، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينشىء لنفسه بركة من الزئبق ليتأرجح بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم : وخلفت الأسرة الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاما أسرة أخرى تركية أنشأها الإخشيد (٩٣٥ — ٩٦٩) . ولم تكن لهذه الممالك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده ، ولهذا كان لابد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين ، فلما أضعفت الثروة حماستها العسكرية ذابت قوتها واختفت من الوجودد .

وأيدت أعظم الأسر الحاكمة الإفريقية سياستها الحربية بعقيدة دينية تكاد

تبلغ درجة التعصب ؛ ذلك أن أبا عبد الله قام فى بلاد تونس عام ٩٠٥ وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعى وإلى عقيدة الأئمة السبعة ، ويبشر بقرب ظهور المهدى ؛ وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع إزالة حكم الأغالبة من القيروان . وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره فى أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد ، وزعم أنه حفيد عبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدى المنتظر ، ونادى به ملكا (٩٠٩) ، وما لبث هذا الداعية أن قُتِلَ بأمر مليكه . وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبى (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها .

واستعاد شمال إفريقية تحت حكم الأغالبة والفاطميين ما عرفه من رخاء فى أيام مجد قرطاجنة تحت حكم الرومان . ذلك أن الفاتحين المسلمين فى عنفوان شبابهم فى القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يتراوح طولها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ميل وتخترق الصحراء الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو ، كما أنشئوا من الثغور فى الشمال والغرب بونة ، ووهران ، وسبتة ، وطنجه ؛ وقامت تجارة عظيمة مربحة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط ، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس ، ونقل المهاجرون الأسبان إلى مراكش الصناعات الجلدية ؛ وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسبانيا ، واشتهرت بأصباغها وعطورها ، وطرابيشها الحمر المغربية .

وانتزع الفاطميون فى عام ٩٦٩ مصر من بنى الإخشيد ، ومالبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام . ونقل المعز الخليفة الفاطمى عاصمة ملكه إلى القاهرة ؛ وكانت امتداداً للقطائع فى جهة الشمال الشرقى كما كانت القطائع نفسها امتداداً للفسطاط فى نفس هذا الاتجاه . وحذا المعز حذو أسلافه فشرع يغزو البلاد ويفتح الأمصار . وفى عهد المعز (٩٥٣ — ٩٧٥) وابنه العزيز (٩٧٥ — ٩٩٦) أعاد يعقوب بن كلس — وهو يهودى من بغداد اعتنق الإسلام — تنظيم الإدارة

المصرية ، وجعل الفاطميين أغنى حكام زمانهم . يشهد بذلك أنه حين توفيت رشيدة أخت المعز خلفت وراءها ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار (١٢٫٨٢٥٫٠٠٠ دولار أمريكى) ، و١٢٫٠٠٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة آلاف مزهرية فضية ، وأربعمائة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية ، وثلاثين ألف قطعة من المنسوجات الصقلية ، ومقداراً ضخماً من الجواهر[٧] . ولكن لا شىء يسقط كالنجاح ؛ وآية ذلك أن الحاكم الخليفة التالى (٩٩٦ — ١٠٢١) جن من فرط الثراء والسلطان ، فدبر اغتيال عدد كبير من الوزراء ، واضطهد المسيحيين واليهود ، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد ، وأمر بهدم كنيسة بيت المقدس التى فيها قبر المسيح ، وكان تنفيذ هذا الأمر من أسباب قيام الحروب الصليبية . وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور كلجيولا ، فنادى بنفسه إلهاً ، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس ، فلما أن قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحيين واليهود ، وأعاد بناء كنائسهم ومعابدهم . واغتيل الحاكم فى سن السادسة والثلاثين .

وعم الرخاء مصر رغم ما كان يختص به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة لأنها كانت حلقة الاتصال التجارى بين أوربا وآسية ، وازداد عدد السفن التى ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسى ، والبحر الأحمر ، والنيل إلى مصر . واضمحلت ثروة بغداد ، وضعفت قوتها بينا زاد سلطان القاهرة وثراؤها . وقد زار ناصرى خسرو العاصمة الجديدة فى عام ١٠٤٧ وجاء فى وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت ، معظمها من الآجر ترتفع إلى خمس طبقات أو ست ، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقمشة المطرزة ، والحرير إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس[٨] فيه : وكانت الشوارع الكبرى مظللة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل . وكانت الحكومة تحدد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأغلى منها ، ويطاف به فى شوارع المدينة على جمل ، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جرمه[٩] . وكان ذوو

الثروات الضخمة كثيرى العدد ؛ وقد استطاع أحد التجار ، وهو مسيحى ، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصيبت فيها البلاد بالقحط بسبب انخفاض فيضان النيل ؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازى ثلاثين مليون دولار أمريكى[١٠] . واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين فى بناء المساجد ، وإنشاء دور الكتب ، والمدارس الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيِّراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات ، ومن ترف وإتلاف ، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعمال ، ومن العدد المطلوب من الحروب ؛ وكان يضارع فى رخائه وثقافته أى عهد آخر فى تاريخ مصر[١١] .

وأخذ حكم الفاطميين فى الضعف أيام المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) ، وهو ابن أمة سودانية . وقد أقام هذا الخليفة سرادقاً فخماً(*) يقضى فيه أوقات متعته ، وعاش عيشة الموسيقى ، والخمر ، واللذة ؛ وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق فى الحجر الأسود ، والاستماع إلى صوت المؤذن الممل ، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم فى مكة)[١٢] . وثار عليه جنوده الأتراك فى عام ١٠٦٧ ، وأغاروا على قصره ، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن ، ومقداراً عظيما من الجواهر ، وحمل خمسة وعشرين بعيراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم ، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواريهم . ولما توفى المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها الذى كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من بربر ، وسوادنيين ، وأتراك ؛ وكانت إفريقية ومراكش قد انفصلتا عنها ، وثارت عليها فلسطين ، وضاعت منها بلاد الشام . ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين فى عام ١١٧١ ، كانت أسرة أخرى من الأسر التى حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغماس فى الملذات إلى ما ساق إليه سابقاتها من الضعف والفناء .

(*) على شكل الكعبة .

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية فى إفريقية

كان الأمراء والخلفاء فى القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ينافس بعضهم بعضاً فى إقامة المبانى ، وتشجيع التصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والفلسفة ؛ ولكن كل ما بقى من المخطوطات من ذلك الوقت فى شمالى إفريقية مخبوء الآن فى دور الكتب التى لم يبدأ علماء الغرب فى ارتيادها إلا منذ وقت قريب(*) . وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها . فنى القيروان مسجد سيدى عقبة الذى أنشئ أولا فى عام ٦٧٠ وجدد بناؤه سبع مرات ، والذى يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام ٨٣٨ . وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئات من العمد الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجنة ، ومنبره آية رائعة من آيات النحت الخشبى ، ومحرابه من الرخام السماقى والقاشانى ؛ ومئذنته المربعة الضخمة — وهى أقدم مئذنة فى العالم[١٣] — أصبحت هى الطراز السورى الذى أقيمت على مثاله مآذن الغرب : وبفضل هذا المسجد أصبحت القيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة « أبواب الجنة الأربعة » ولا تقل مساجد فاس ، ومراكش ، وتونس ، وطرابلس عنها فى الروعة والفخامة إلا قليلا :

وكانت المساجد فى القاهرة ضخمة كثيرة العدد ؛ ولاتزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بنحو ثلثمائة من هذه المساجد : ومن أشهرها مسجد عمرو بن العاص ؛ وقد بدئ بإنشائه فى عام ٦٤١ ، وأعيد بناؤه فى القرن العاشر ؛ ولم يبق من

(*) وقد شرعت جامعة الدول العربية فى البحث عن هذه المخطوطات فى هذه البلاد وفى غيرها من بلدان آسية وأوربا وتصويرها . (المترجم)

أجزائه الأولى فى هذه الأيام إلا عمده الكورنثية التى أنقذها العرب بحكمتهم من الخرائب الرومانية والبيزنطية . ولا يزال مسجد ابن طولون محتفظا بشكله الأصلى ونقوشه الأولى ، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات ، وفى داخله عقود مستدقة (غير مستديرة) هى أقدم ما يوجد من نوعها فى مصر ، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (٨٦٥) — وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر . وربما كان هذا الطراز الرشيق من العقود قد انتقل من مصر إلى أوربا القوطية عن طريق صقلية والنورمان[١٤] : وفى مئذنة المسجد (ذات السلم الخارجى) والشبيهة بصروح الزجورات البابلية ، وفى القبة المقامة فوق قبر ابن طولون ، عقود على شكل حذاء الفرس ، وهى إحدى المظاهر الإسلامية التى لا ترتاح إليها العين كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامى . ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلثمائة عمود ، فلما علم أن هذه العمد لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العمائر الرومانية والمسيحية ، قرر أن يقيم هذه العقود بدلا من هذا على عمد ضخمة من الآجر[١٥] ، وربما كان هذا الطراز من العمد قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطى : وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملئت بالزجاج الملون ، وبعضها بالشبابيك الجصية(*) على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية ، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق .

وفى ٩٧٠ — ٩٧٢ أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلى — وهو عبد مسيحى اعتنق الإسلام وكان القائد الذى فتح مصر للفاطميين : ولا تزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد فى مكانها ، وفيه أيضا نجد العقود المستدقة قائمة على ٣٨٠ عموداً من الرخام ، والجرانيت ، والرخام السماق . وقد شيد جامع الحاكم بأمر الله

(*) ذات شبكة من الأصابع المصنوعة من الجص . (المترجم)

من الحجر ، ولا يزال معظمه باقيا وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن ؛ وفى وسعنا أن نتصور ما كان عليه من عظمة فى العصور الوسطى بالنظر إلى نقوشه العربية الطراز ، الرشيقة ، المصنوعة من الجص ، ومن الكتابات الكوفية الجميلة التى يزدان بها إفريزه : وقد كانت هذه المساجد ، التى تبدو الآن معاقل أشبه بالقلاع — وما من شك فى أنها قد صممت لتكون قلاعاً أيضاً — تزدان بكثير من روائع النحت ، والكتابات ، والفسيفساء ، والمحاريب المطعمة ، والقناديل التى أضحت الآن تحفاً نادرة فى المتاحف : وكان بمسجد ابن طولون وحده ١٨,٠٠٠ قنديل كثير منها من الزجاج المطلى بالميناء المختلف الألوان[١٦] :

وكانت الفنون الصغرى شائعة فى إفريقية الإسلامية ، يمارسها المسلمون بما عرف عنهم من الصبر والدقة . فالقاشانى البراق يشاهد فى جامع القيروان ، وقد وصف ناصرى خسرو (١٠٥٠) الخزف الذى كان يصنع فى القاهرة بأنه رقيق بلغ من شفيفه أن اليد إذا وضعت فى خارجه تستطاع رؤيتها من داخله[١٧] . واحتفظ الزجاج المصرى السورى بكل ما كان له من جمال فى العهود القديمة ، وتحتفظ متاحف البندقية وفلورنس واللوفر بالآنية المصنوعة من البلور الصخرى فى عهد الفاطميين ، وكان ناحتو الخشب يدخلون البهجة على النفوس بنقوشهم البديعة على أبواب المساجد ، والمنابر ، والمحاريب ، والنوافذ الشبكية . وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بترصيعها أو تطعيمها بالعاج ، أو الأبنوس ، أو الصدف . وكانت الجواهر كثيرة موفورة ، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون حجرات قصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية — كالمحابر ، وقطع الشطرنج ، والمزهريات ، والطيور ، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار الكريمة . . . .[١٨] ، وكان من بين ما انتهبوه ستائر من الحرير المطرز بخيوط الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم . كذلك تعلم المسلمون

من الأقباط فن طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب ؛ ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من مصر الإسلامية إلى أوربا على أيدى الصليبيين ، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة . وكان التجار الأوربيون يقدرون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات ، ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية ، التى تبلغ من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر فى خاتم الإصبع[١٩] . ويحدثنا المؤرخون عن طنافس من عهد الفاطميين ، وعن خيام منسوجة من المخمل ، والساتان ، والدمقس ، والحرير ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب ، مزينة كلها بالرسوم ، ومن هذه خيمة صنعت لليازورى وزير المستنصر عمل فيها مائة وخمسون صانعاً أكثر من تسع سنوات . وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار (١٤٢٫٠٠٠ دورلار) ، وصور عليها ، كما يقولون ، جميع ما عرف من أنواع الحيوان فى العالم كله ، عدا « الإنسان الذئب »(*) . غير أن الرسوم الفاطمية كلها لم يبق منها إلا قطع من المظلمات فى دار الآثار العربية بالقاهرة ، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمى فى مصر ؛ لكن المقريزى الذى كتب فى القرن الخامس عشر تاريخا للتصوير — يقول إن مكتبة الخلفاء الفاطميين تحتوى على مئات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة من بينها ٢٫٤٠٠ مصحف .

وكانت مكتبة الخلفاء بالقاهرة فى عهد الحاكم بأمر الله تحتوى مائة ألف من المجلدات ؛ وكان بها فى عهد المستنصر ٢٠٠٫٠٠٠ . ويقول المؤرخون إن الكتب كانت تعار لمن يطلبها من الدراسين ذوى السمعة الطيبة من غير أجر . وفى عام ٩٨٨ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز أن يعلم على حسابه خمسة وثلاثين طالباً فى الجامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم ، وبهذا نشأت

(*) . يريد الإنسان نفسه . (المترجم)

أقدم جامعة في العالم كله . ولما نمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إليها طلابا من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، كما اجتذبت جامعة باريس بعد مائة عام من ذلك الوقت طلابا من جميع أنحاء أوربا . ومن ذلك الوقت أخذ الخلفاء ، والوزراء ، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالمجان في تلك الجامعة حتى بلغ طلابها في وقتنا الحاضر ١٠٫٠٠٠ طالب وعدد الأساتذة ثلثمائة(٢٠) . ومن أجمل المناظر التي تقع عليها عين السائح العالي منظر الطلاب وهم مجتمعون في أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام ، تجلس فيها كل طائفة في نصف دائرة إلى جانب عمود أمام أحد العلماء(*) ؛ وكان كبار العلماء الذائعي الصيت يفدون إلى الأزهر من كافة أرجاء العالم الإسلامي ليعلموا الطلاب علوم النحو ، والبلاغة ، والرياضة ، والعروض ، والمنطق ، والعلوم الدينية ، والحديث ، والتفسير ، والشريعة الإسلامية ؛ ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً ، كما لم يكن الأساتذة يتناولون مرتبات ؛ وإذ كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية ، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد في أمور الدين ، وكان لعلمائها تأثير مثبط للآداب الفاطمية ، والفلسفة ، والعلوم ، ولهذا لم نسمع عن وجود شعراء مجيدين في عهد تلك الأسرة .

وأنشأ الحاكم في القاهرة « دار الحكمة » ؛ وكانت مهمتها الرئيسية نشر المذهب الشيعي وتعاليمه ، ولكن منهجها الدراسي كان يشمل أيضاً علمي الفلك والطب . وأقام الحاكم أيضاً مرصداً فلكياً ، وأعان بالمال علي بن يونس (المتوفى سنة ١٠٩٠ م) ، وهو في رأينا أعظم علماء الفلك المسلمين . وبعد أن ظل هذا العالم يرصد السماء سبعة عشر عاماً أتم « الأزياج الحاكمية » التي توضح حركات الكواكب ، ومواقيتها ، وحدد بدقة أكثر من ذي قبل ميل مستوى الفلك ،

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الوصف ينطبق على الأزهر منذ نصف قرن أما في الوقت الحاضر فإن النظام في الأزهر شبيه كل الشبه بالنظام في أرقى المدارس والجامعات . (المترجم)

ومبادرة الاعتدالين ، وزاوية اختلاف منظر الشمس .

وأشهر الأسماء كلها بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن الهيثم المعروف عند الأوربيين باسم « الهازن Alhazen . وقد ولد فى البصرة عام ٩٦٥ واشتهر فيها بنبوغه فى الهندسة والرياضة . وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيـــل السنوى فدعاه إلى القاهرة ، ولكنه تبين أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذى النزوات الشاذة : وافتتن الرجل ، كما افتتن جميع المفكرين فى العصور الوسطى ، بمحاولات أرسطو فى ربط المعارف كلها بعضها ببعض ، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف ، لم يصل إلينا شىء منها . وأهم ما يشتهر به ابن الهيثم عندنا الآن كتاب المناظر فى البصريات وهو فى أغلب الظن أعظم مؤلف فى العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمى فى طريقته وتفكيره . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره فى الأوساط الشفافة كالهواء ، والماء واقترب مع اختراع العدسة المكبرة قربا جعل روجر بيكن Roger Bacon ، وويتلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعد ثلثمائة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بذلوه من الجهود لاختراع المجهر و المرقب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكى القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئى من العين يصل إلى الجسم المرئى ، وقال إن صورة الجسم المرئى تصل إلى العين ومنها تنتقل بوساطة الجسم الشفاف — أى العدسة[٢١] . ولاحظ أثر الجو فى ازدياد الحجم الظاهرى للشمس والقمر إذا كانا قريبين من الأفق ؛ وأثبت أن انكسار الأشعة فى الجو يجعل ضوء الشمس يصـــل إلينا حتى بعد أن يختفى قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة ، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوى بعشرة أميال (إنجليزية) . وحلل العلاقة بين ثقل الهواء الجوى وكثافته ، وبين أثر كثافة هذا الهواء فى أوزان الأجسام ، واستخدم قوانين رياضية معقدة فى دراسة فعل

الضوء فى المرايا الكرية ، والتى فى شكل القطع المكافىء ، وعند مروره فى العدسات الزجاجية الحارقة . ورصد صورة الشمس المماثلة لصورة نصف القمر وقت الخسوف على جدار قائم أمام ثقب صغير فى مصراع شباك . وهذا هو أول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التى يعتمد عليها التصوير الشمسى بكافة أنواعه . وليس فى وسعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ فى بيان أثره فى العلوم الأوربية ، وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروچر بيكن ؛ وهاهو ذا روچر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة فى ذلك الجزء الذى يبحث فى البصريات من Opus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه . والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشوف هذا العالم الطبيعى ابن القاهرة . ولقد ظلت الدراسات الأوربية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كپلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم .

وأبرز النتائج التى أسفر عنها فتح العرب لشمالى إفريقية هو اختفاء المسيحية من هــذا الإقليم اختفاء تدريجياً ولكنه يكاد يكون تاماً . ذلك أن البربر لم يعتنقوا الإسلام فحسب ، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه . وما من شك فى أن العوامل الاقتصادية كان لها دخل فى هذه النتيجة الحاسمة : فقد كان غير المسلمين يؤدون الفرضة ، التى أعفى منها إلى وقت ما من يعتنقون الإسلام . ولما أن عرض والى مصر العربى على أهل البلاد هذا الإعفاء عام ٧٤٤ اعتنق الإسلام ٢٤٫٠٠٠ من المسيحيين(٢٢) . وربما كان الاضطهاد(*) الذى وقع على المسيحيين ، وهو اضطهاد لم يكن يقع إلا فى بعض العهود ولكنه شــديد ، قد أثر فى كثيرين من المصريين فحملهم على الدخول فى دين الحكام . غير أن أقلية قبطية فى مصر ظلت مستمسكة بدينها بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة

(*) يلاحظ هنا حرص المؤلف على إثبات أن هذا الاضطهاد لم يكن يقع إلا فى بعض العهود ؛ أى أنه لم يكن هو السياسة المتبعة وذلك عملا بأوامر الدين الإسلامى نفسه وسياسة معظم الخلفاء . (المترجم)

بالحصون ، كانت تؤدى فيها مناسكها سراً(*) ، ولا تزال باقية فى تلك البلاد إلى يومنا هذا . ولكن كنائس الإسكندرية ، وقورينة ، وقرطاجنة ، وإفريقية ، التى كانت تزدحم من قبل بالمصلين أخذت تخلو منهم وتتداعى ، وانمحت من الأذهان ذكريات أثناسيوس ، وسيريل Cyril ، وأوغسطين ، وخبت نيران المنازعات بين الأريوسيين ، والدوناتيين ، واليعاقبة المسيحيين ، وحل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين . وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية فى جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة ، واستخدموا أعضاءها فى التجسس والدسائس السياسية . وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى بيت المقدس وأوربا ، وكان لها أكبر الأثر فى أنظمة فرسان المعبد والشيعة المستنيرة Illuminate وغيرها من الجماعات السرية التى قامت فى العالم الغربى كما كان لها أكبر الأثر أيضا فى طقوسها وملابسها .. وترى رجل الأعمال الأمريكى بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً ، يفخر بعقيدته السرية ، وطربوشه الفاسى ومسجده الإسلامى(**) .

(*) لم يكن أقباط مصر فى حاجة إلى أن يمارسوا شعائرهم سراً بل كانوا يمارسونها جهراً حتى فى أكثر العصور استبداداً . (المترجم)

(**) فى هذا القول بعض الغموض ولعل المؤلف يقصد أن من بين رجال الأعمال الأمريكيين مسلمين يفخرون بدينهم ويتباهون بثيابهم ويؤدون الصلاة فى المساجد . (المترجم)

الفصل الثالث

الإسلام فى بلاد البحر المتوسط

٦٤٩ — ١٠٧١

أدرك زعماء الإسلام ، بعد فتح الشام ومصر ، أن ليس فى مقدورهم أن يدافعوا عن سواحـــل بلادهم من غير أسطول . وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العمائر البيزنطية (٦٥٢ ، ٦٥٥) ، ثم احتلوا قورسقة فى عام ٨٠٩ وسردينية فى عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) فى ٨٢٣ ، ومالطة فى ٨٧٠ ؛ وبدأ فى عام ٨٢٧ النزاع القـــديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية ، فأرسل الأغالبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من النهب والدم المهراق ؛ فسقطت پالرم فى عام ٨٣١ ، ومسينا فى ٨٤١ ، وسرقوسة فى ٨٧٨ ، وتارمينا فى ٩٠٢ . ولما أن ورث الخلفاء الفاطميون ملك الأغالبة (٩٠٩) كان مما ورثوه من أملاكهم جزيرة صقلية ؛ ولما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبى والى صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها ، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة ، وأسس فيها الأسرة الكلبية ، وفى عهدها بلغت الحضارة الإسلامية فى صقلية ذروة مجدها .

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط ، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة فى جنوبى إيطاليا . وكانت القرصنة وقتئذ مما يدخل فى نطاق العادات الشريفة ، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على « الكفرة » ويبيعوهم فى أسواق الرقيق ، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين ، ومعظمها

من تونس وصقلية ، تهاجم الثغور الإيطالية فى القرن التاسع الميلادى . فاستولى المسلمون فى عام ٨٤١ على بارى القاعدة البيزنطية الكبرى فى الجنوب الشرقى من إيطاليا ، وفى العام التالى انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إليهم لمبارد دوق بنفنتو Benevento ليساعدوه على سالرنو Salerno ، ثم عادوا منها بعد أن أتلفوا الحقول وخربوا الأديرة . وفى عام ٨٤٦ نزل ألف ومئتان من المسلمين فى أستيا Ostia ، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار رومة ، ونهبوا ضواحى المدينة وكنيستى القديسين بطرس وبولس ، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم . ورأى البابا باليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا ، فأخذ هذه المهمة على عاتقه ، وعقد حلفاً بين رومة وبين أملفى Amalfi ، ونابلى ، وجيتا Gaeta ومد بسلسلة فى عرض نهر التيبر ليمنع العدو من اجتيازه . وبذل العرب فى عام ٨٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية فى الغرب ؛ فقابلهم الأسطول الإيطالى المتحد بعد أن باركه البابا ، وهزمهم ، وقد صور رفائيل منظر الواقعة فى قصر الفاتيكان ، وفى عام ٨٦٦ جاء الإمبراطور لويس الثانى من ألمانيا ، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبى إيطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى بارى وتارنتو Taranto ؛ وما وافى عام ٨٨٤ حتى أخرجوا من جميع شبه الجزيرة ؛

ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع ، وظلت إيطاليا الوسطى جيلا من الزمان يغشاها جو من الخوف والفزع فى كل يوم من أيام حياتها . ففى عام ٨٧٦ أغاروا على كمپانيا ونهبوها ، وهددوا رومة تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدى لهم جزية سنوية مقدارها ٢٥٫٠٠٠ منقوص (حوالى ٢٥٫٠٠٠ دولار أمريكى) حتى يكفوا عن الإغارة عليها[٢٣] . وفى عام ٨٨٤ أحرقوا دير مونتى كاسينو العظيم ودمروه عن آخره . وشنوا غارات أخرى متقطعة نهبوا فيها واذى نهر الأنيو Anio . ودامت الحال على هذا المنوال حتى اجتمعت قوات البابا وإمبراطورى

بيزنطية وألمانيا ، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (٩١٦) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية فى إيطاليا ، وهو العهد الذى دام مائة عام ، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب . ولو أن رومة سقطت فى قبضتهم لزحفوا على البندقية ، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان . ترى إلى أى حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادفاتها !

وخضعت الثقافة الصقلية المتعددة الأصول فى أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عادتها إلى الفاتحين الجدد ، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أبهى وأقوى من طابعها القديم ، واختلط فى شوارع العاصمة الإسلامية پانورمس القديمة Panormus وبالرم العربية ، وپالرمو الإيطالية ، الصقليون ، واليونان ، واللمبارد ، وكلهم يكره بعضهم بعضاً من الناحية الدينية ، ولكنهم يعيشون معاً صقليين عاديين فى عواطفهم ، وشعرهم ، وجرائمهم . وفيها شاهد ابن حوقل حوالى عام ٩٧٠ نحو ثلثمائة مسجد ، وثلثمائة من معلمى المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون - كما يقول العالم الجغرافى - من قلة الذكاء وخفة الأحلام[٣٤] . هذا وإذ كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس ، فقد كانت تربتها غاية فى الخصب ، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم ، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيما بين أوربا المسيحية وإفريقية الإسلامية ، وما لبثت أن صارت من أغنى المدن فى بلاد الإسلام ؛ وكان حب المسلمين للملابس الجميلة ، والجواهر المتلألئة ، وفنون الزينة ، مما جعل الحياة فى الجزيرة تسير سيراً هادئاً فى غير عجلة ولكن فى غير إسفاف . ويصف الشاعر الصقلى ابن حمديس (١٠٥٥ - ١١٣٢) الساعات التى يقضيها الشاب البالرمى فى متعته ، ويحدثنا عن قصفه ومرحه حتى منتصف الليل ، وعن اختلاط الرجال والنساء فى الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الهموم ، وعن

القتيات المغنيات اللاتى يدغدغن العود بأصابعهن اللطيفة ، ويرقصن كأنهن الأقمار الساطعة فوق الأغصان اللدنة[٢٥] .

وكان فى الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يحبون الفكاهة الحلوة ، والشعر الموزون ، ولأن الحب الصقلى كان يمدهم بموضوعات جمة مثيرة للخيال . وكان فى الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة ؛ وكان فيها أطباء عظام ، لأن الطب الإسلامى الصقلى قد أثر تأثيراً ذا بال فى مدرسة سالرنو الطبية[٢٦] . ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدها العربى الزاهر ، وتراثاً شرقياً من الصناعات والصناع أورثه العرب ثقافة فتية راغبة فى أن تتلقى العلم على أى جنس وأى دين . ولما أن فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (١٠٦٠ — ١٠٩١) أعانوا بفتحهم الزمان على محو آثار المسلمين فى صقلية ؛ وهاهو ذا الكونت روجر Count Roger يفخر بأنه قد سوى بالأرض « المدائن ، والقلاع ، والقصور العربية التى بذل المسلمون فى إقامتها أعظم الفنون وأعجبها »[٢٧] : ولكن الطراز المعمارى الإسلامى خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف كابلا بلاتينا Capella Polatina ، ففى هذا المعبد القائم فى قصر الملوك النورمان زين المزار المسيحى بالنقوش العربية الإسلامية .

الفصل الرابع

الإسلام فى أسبانيا

٧١١ — ١٠٨٦

١ — الخلفاء والأمراء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا أسبانيا أولا بل الذين فتحوها هم المغاربة ، فقد كان طارق من البربر ، وكان فى جيشه سبعة آلاف من بنى جنسه مقابل ثلاثة آلاف من العرب ، وقد خلد اسمه ، إذ سميت به الصخرة التى نزلت قواته عند قاعدتها ، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى جبرولتر Gibraltar . وكان الذى سير طارقا إلى فتح أسبانيا هو موسى بن نصير والى شمال إفريقية العربى . ثم عبر موسى البحر فى عام ٧١٢ ، ومعه ١٠٫٠٠٠ من الجنود العرب و ٨٠٠٠ من البربر وحاصر أشبيلية ومريده ، ولام طارقا لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له ، وضربه بالسوط ، وزجه فى السجن ؛ ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه . وكان موسى قد عين ولده عبد العزيز حاكماً لأشبيلية ؛ ولكن سليمان أخا الوليد ارتاب فى نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس ، فأرسل إليه من اغتاله . وجىء برأسه إلى سليمان فى دمشق ، وكان قد تولى الخلافة بعد أخيه ، فبعث يستدعى موسى ، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس ولده حتى يسبل عينيه . ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن[٢٨] . ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا خرافة من الخرافات التى تروى عن حب الملوك لسفك الدماء .

وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة ، ولم يصادروا إلا أراضى الذين قاوموهم بالقوة ، ولم يفرضوا على الأهلين من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين ، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية ما لم تتمتع به أسپانيا إلا فى أوقات قليلة نادرة . ولما أن توطد مركز المسلمين فى أسپانيا ، عبروا جبال البرانس ودخلوا غاله يريدون أن يجعلوا أوربا ولاية تابعة لدمشق . والتقى بهم بين تور وپواتييه على بعد ألف ميل شمالى جبل طارق جيش متحد مؤلف من قوى يوديس Eudes دوق أكوتين ، وشارل دوق أستراسيا Austrasia . ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون بعدها فى واقعة من أهم الوقائع الحاسمة فى التاريخ (٧٣٢) ؛ وفيها قررت مصادفات الحرب مرة أخرى الدين الذى يتبعه الملايين التى لا يحصى عديدها من بنى الإنسان . ومن هذا الوقت أطلق على شارل اسم شارل مارتلس Charles Martellus أى شارل المطرقة . وأعاد المسلمون الكرة فى عام ٧٣٥ واستولوا على أرليس Arles ، ثم فتحوا أفنيون Avignon فى عام ٧٣٧ وخربوا وادى نهر الرون حتى ليون . وفى عام ٧٥٩ أخرجهم پيپين القصير Pepin the Short نهائيا من جنوبى فرنسا ؛ ولكن الأربعين عاماً التى تنقلوا خلالها فى ذلك الإقليم كانت فى أغلب الظن ذات أثر قوى فيما يتصف به أهل لانجويدك Languedoc من تسامح غير عادى بين الأديان المختلفة ، ومن مرح كثير ومن حب لأغانى الغزل غير المباح .

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرون أسبانيا حق قدرها ، فلم تكن تعرف عندهم حتى عام ٧٥٦ إلا باسم « الأندلس » ، وكان يحكمها وال يعين من القيروان . لكن شخصية روائية نزلت فى أسبانيا عام ٧٥٥ ، وكان سلاحها الوحيد هو ما يجرى فى عروقها من الدم الملكى ، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لا تقل فى مجدها وثرائها عن خلفاء بغداد . ذلك أنه لما أمر بنو العباس فى عام ٧٥٠ أن يقتل جميع الأمراء الأمويين ، لم ينج من هؤلاء الإمراء إلا عبد الرحمن أحد أحفاد

الخليفة هشام . وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية ، فاضطر أن يعبر نهر الفرات الواسع سباحة ، واجتاز الصحراء إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراكش . وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهبت نيران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب ، والسوريين ، والفرس ، والمغاربة فى أسپانيا . وكان فى تلك البلاد طائفة من العرب مخلصة للأمويين تخشى أن يعترض الخلفاء العباسيون على حقها فى تملك الأراضى التى وهبها لهم ولاة بنى أمية ، فدعوا عبد الرحمن للانضمام إليهم وتولى قيادتهم . فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (٧٥٦) ، وهزم جيشاً أرسله الخليفة المنصور لينتزعها منه ، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليعلق أمام أحد القصور فى مكة .

ولعل هذه الحوادث هى التى منعت انتشار الدين الإسلامى فى أوربا : ذلك أن أسپانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية ، وانقطعت عنها المعونة الخارجية فلم تواصل الغزو والفتح ، بل انسحب المسلمون من شمالى أسپانيا ، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادى عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحى ، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا **Coimbra** ماراً بسرقسطة ومحاذيا لنهر الإبرة . وازدهر النصف الجنوبى الإسلامى بعد أن بسط فيه لواء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه ، فعمه الرخاء ، وترعرع فيه الشعر والفن . واستمتع عبد الرحمن الثانى بثمار هذا الرخاء ؛ فقد اتسع وقته ، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده ، وقمعه للثورات التى كان يقوم بها رعاياه ، وصد الغارات التى كان يشنها النورمان على سواحل بلاده ، اتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد ، وإجزال العطاء للشعراء ؛ وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة لينة ربما كان لها بعض الأثر فيما حدث بعده من اضطراب اجتماعى .

وكان عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بنى أمية فى أسپانيا ؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو فى الحادية والعشرين

من عمره ، ووجد الأندلس تمزقها الانقسامات العنصرية ، والأحقاد الدينية ، واضطراب حبل الأمن ، ومساعى أشبيلية وطليطلة للاستقلال عن قرطبة . وقبض عبد الرحمن ، رغم ما اتصف به من دماثه الخلق ورقة الحاشية ، واشتهاره بالكرم والمجاملة ، على زمام الموقف بيد من حديد وقمع فتنة المدن الثائرة ، وأخضع أشراف العرب الذين أرادوا أن يحذوا حذو معاصريهم الفرنسيين ، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية ، ودعا إلى بلاطه رجالا من مختلف الأديان كان يستشيرهم فى شئون الحكم ، وعقد المحالفات التى يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه ، وأدار شئون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور ، لا يقلان عما كان يتصف به نابليون فى هذه الناحية ، وكان هو الذى يضع الخطط الحربية لقواده ، وكثيراً ما كان ينزل إلى ميدان القتال بنفسه ؟ وصد غزوة سانكو صاحب نبره Sancho of Navarra ، واستولى على عاصمته ودمرها ، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى فى أثناء حكمه . ولما رأى فى عام ٩٢٩ أن له من القوة ما لا يقل عن أى حاكم فى زمانه ، وأدرك أن الخليفة العباسى فى بغداد قد أصبح ألعوبة فى أيدى الحرس التركى ، اتخذ لنفسه لقب خليفة — وأمير المؤمنين ، وحامى حمى الدين . وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتبها بخط يده قدر فيها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه : « مضت خمسون سنة منذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عليه شىء من الثراء والمجد والنعم ، فاحترمنى الملوك وخافونى وحسدونى وحبانى الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان ، فأحصيت أيام السرور التى صفت لى دون تكدير فى هذه المدة الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها »(*)(٢٩) .

(*) من كتاب نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى . (المترجم)

وأفاد ابنه الحكم الثانى (٩٦١ — ٩٧٦) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الخمسين التى حكمها أبوه بحزم وجدارة ، والتى لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة : وكان فى أثناء حكمه آمناً من الخطر الخارجى ، والفتن الداخلية ، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن ، وأنشأ فيها المساجد ، والمدارس الكبرى ، والبيمارستانات ، والأسواق ، والحمامات العامة ، وملاجئ الفقراء[٣٠] ، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعليم فى زمانه ، وأجزل العطاء لمئات الشعراء والفنانين والعلماء . وفيه يقول المقرى المؤرخ الإسلامى :

وكان (الخليفة الحكم) محبا للعلوم مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . . . إن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر . . وكان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . ويعث فى طلب كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى — وكان نسبه فى بنى أمية — وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق(*) .

وبينا كان الخليفة العالم يعنى بمسرات الحياة ونعيمها ، كان يترك تصريف شئون الحكم ، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودى القدير حسداى ابن شبروط ، ويترك قيادة الجيوش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الخيالية المسيحية . وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور ، أما اسمه الحقيقى فهو محمد بن أبى عامر

(*) النص منقول عن نفح الطيب . (المترجم)

وهو ينتمى إلى أسرة عربية عريقة النسب ولكنها قليلة الثراء . وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالبه إلى الخليفة ، ثم أصبح كاتباً فى ديوان قاضى القضاة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره فى عام ٩٦٧ اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم . ثم تقرب إلى الملكة صبح أم الغلام ، وفتنها بمجاملتها والثناء عليها ، وأثر فيها بجده وكفايته ، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملاكها وأملاك ولدها ، ولم يمض عام واحد حتى عين مديرا لدار الضرب . ومن ذلك الوقت أصبح سخيا على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يتهمونه بالارتشاء والخيانة . واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما اؤتمن عليه من المال ، وعرف ابن أبى عامر أن المال الذى فى عهدته سيكون ناقصا فطلب إلى صديق له غنى أن يقرضه قيمة العجز ؛ ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح القوى ، وواجه به من اتهموه ، وانتصر عليهم انتصاراً حمل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه المال الكثير . ولما مات الحكم أفلح ابن أبى عامر فى تنصيب هشام الثانى ابن الحكم خليفة (٩٧٦–١٠٠٩) و (١٠١٠ — ١٠١٣) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه فى الخلافة ، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة(٣٢) .

وكان هشام الثانى رجلا ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة ، ولذلك كان ابن أبى عامر هو الخليفة فى كل شىء ما عدا الاسم ، واتهمه أعداؤه بحق بأنه يحب الفلسفة أكثر مما يحب الدين الإسلامى ؛ وأراد أن يلجم ألسنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التى تخالف مذهب أهل السنة ، وأن يحرقوا هذه الكتب ، وبهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بين الناس بالتقى والصلاح . وضم فى الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته فى السر على الفلاسفة ، وأخذ يرحب بالأدباء فى بلاطه ، وآوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم

مرتبات من بيت المال ، وكان هؤلاء الشعراء يسيرون فى ركابه حين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته . وشاد مدينة جديدة هى مدينة الزاهرة فى شرق قرطبة ضمت قصره ، ومكاتب الإدارة ؛ أما الخليفة الذى عنى بتدريبه على الانهماك فى الفلسفة فقد بقى مهملا يكاد يكون سجيناً فى القصر الملكى القديم . وأراد ابن أبى عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة البربر والمسيحيين الذين كانوا يكرهون العرب ، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً ، ولكنهم كانوا يجزونه على سخائه ، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً . ولما أن ساعدت ولاية ليون Leon المسيحية ثورة قامت عليه فى بلاده ، فتك بالثوار ، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة ، وعاد منتصراً إلى عاصمته ؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور . وكثرت المؤامرات عليه ، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الجاسوسية والاغتيال فى الوقت المناسب ، ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات ، وافتضح أمره قطع رأسه . وكان المنصور مثل صلا الرومانى لا يترك محسناً إلا أثابه ولا مسيئاً إلا انتقم منه .

وغفر الناس له جرائمه لأنه قمع جرائم غيره ، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء ، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال فى قرطبة أعظم أمنا فى وقت من الأوقات مما كانتا فى أيامه ، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بثباته ، ومثابرته ، وفطنته ، وشجاعته . وحدث فى يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم فى ساقه ؛ فأمر باستدعاء الطبيب ، ولما حضر أشار بكيها بالنار . فلم يفض المنصور المجلس ، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه ما يدل على ألمه . ويقول المقرى : إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق(*)(٣٣) . وكان مما فعله أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجد

(*) هذا هو النص ننقله عن المقرى : « إن المنصور كان به داء فى رجله واحتاج إلى الكى ، فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر

قرطبة واستخدم فى توسيعه أسرى المسيحيين ، واشترك هو بنفسه فى أعمال البناء بفأسه ، ومجرفه ، ومِسَجَّته(*) ، ومنشاره . وأدرك أن الحاكم الذى ينتصر فى الحروب ، عادلة كانت أو ظالمة ، يعلو شأنه بين معاصريه وبين الأجيال المستقبلة ؛ ولهذا شن الحرب من جديد على ليون ، واستولى على عاصمتها ودمرها وذبح أهلها . وكان فى ربيع كل عام تقريباً يسير على رأس حملة جديدة لمحاربة الأقاليم الشمالية المسيحية ؛ وقد عاد من هذه الحملات جميعها بلا استثناء مكللا بالنصر . من ذلك أنه لما استولى فى عام ٩٩٧ على مدينة سنتياجو ده كمپستيلا Santiago de Compstela ، ودمر ضريح القديس چيمس الشهير ، أرغم الأسرى المسيحيين على أن يحملوا أبواب الكنيسة وأجراسها على أكتافهم فى موكب نصره حتى دخل قرطبة[٣٤] . (وقد أعيدت هذه الأجراس فيما بعد إلى كمپستيلا محمولة على ظهر أسرى الحرب المسلمين) .

ولم يقنع المنصور بما كان له فى بلاد الأندلس الإسلامية من مقام ، وإن كان فى الواقع سيدها بلا منازع ، بل كان يتوق إلى أن يكون سيدها اسما وفعلا ، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة . ففى عام ٩٩١ تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك ، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكما مطلقاً . وكان يرغب فى أن يموت فى ميدان القتال ، ويعد العدة بالفعل لهذه الخاتمة ، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ معه كفنه . وقد غزا قشتالة فى عام ١٠٠٢ وهو وقتئذ فى الحادية والستين من عمره ، واستولى على مدنها ، ودمر أديرتها ، وخرب حقولها ، ثم مرض فى طريق العودة إلى بلاده ، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به ، واستدعى إليه ابنه

= وينهى ، ويُقرى القرى فى أموره ورجله تكوى ، والناس لا يشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث . (المترجم)

(*) المِسَجَّة : خشبة يطين بها . (المترجم)

وأخبره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين ، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستنهار بعد قليل(٣٥) . وقد صدقت النبوءة فانهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ .

وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور ، فلم يكن أمراؤها يجلسون على العرش إلا زمناً قصيراً ، وكثرت بينهم حوادث الاغتيال ، والمنازعات العنصرية ، وحروب الطبقات ؛ ورأى البربر أنهم محتقرون فقراء فى الدولة التى أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم ، وأنهم قد طوح بهم إلى بطاح استرمادوره Estremadura القاحلة أو جبال ليون الباردة ؛ فثاروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين . وكان عمال المدن المستغَلُّون يحقدون على من يستغلونهم ، فكانوا يخرجون عليهم ويقتلونهم ويستبدلون بهم غيرهم . وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة الحاكمة أسرة ابن أبى عامر التى كادت فى عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة . ومات عبد الملك فى عام ١٠٠٨ وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحمن ، وكان عبد الرحمن رجلا مستهتراً يشرب الخمر علناً ولا يتورع عن ارتكاب الخطايا ، يفضل اللهو على النظر فى شئون الحكم ، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة اشتركت فيها جميع الأحزاب تقريباً . وأفلت الزمام من أيدى زعماء الثورة فنهبت الجماهير قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها ؛ وفى عام ١٠١٢ استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب ، وذبحوا نصف أهلها ، وطردوا النصف الباقى منها ، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية . بهذه الفقرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية .

لكن الحماسة التى تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذى يتطلبه البناء والتعمير . ففى أثناء حكم البربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب ، وزاد عدد المتعطلين ؛ وخرجت على قرطبة المدائن الخاضعة لها ومنعت

عنها الخراج ، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها فى ضياعهم . لكن من بقى فى قرطبة من العرب أخلدوا ينتعشون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا حل عام ١٠٢٣ طردوا البربر من العاصمة وأجلسوا على العرش عبد الرحمن الخامس ، غير أن العامة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى خير من العودة إلى العهد القديم ، فاستولوا على القصر وبايعوا بالخلافة محمداً المستكفى أحد زعمائهم (١٠٢٣) . وعين محمد أحد عمال النسيج وزيراً له ، ثم اغتيل هذا الوزير ، ودس السم للخليفة الشعبى ، ثم اتحدت الطبقتان العليا والوسطى وبايعت بالخلافة هشاما الثالث (١٠٢٧) . وجاء دور الجيش بعد أربع سنين ، فقتل وزير هشام ، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الخلافة ؛ وعقد مجلس من أصحاب الرأى فى المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على العرش قد جعل قيام الحكم الصالح غير مستطاع ، فألغى الخلافة الأندلسية ، وأحل محلها مجلساً للدولة ، واختير ابن جهور رئيساً لهذا المجلس فحكم الجمهورية الجديدة بالعدل والحكمة .

لكن هذا جاء بعد فوات الأوان ، أى بعد أن اضمحلت السلطة السياسية وقضى على الزعامة الثقافية فى قرطبة ، فوصلت بذلك إلى حال لا يرجى منها شفاء . وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية ففروا من « جوهرة العالم » إلى بلاط طليطلة ، وغرناطة ، وأشبيلية . واقتسم بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلتهم الدسائس والمنازعات فيما بينهم عن إغارة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت فى حكم الحاخام صمويل هليفى Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم إسماعيل بن نغرلة . واستقلت طليطلة عن قرطبة فى عام ١٠٣٥ . ثم خضعت لحكم المسيحيين بعد خمسين عاماً من استقلالها .

وورثت أشبيلية مجد قرطبة ، وكان بعضهم يظنها خيراً من العاصمة القديمة وأجمل منها ؛ وكان الناس يحبونها لجمال حدائقها ، ونخيلها ، وورودها ، وما فيها

من مرح دائم ، وموسيقى ، ورقص ، وغناء . وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هى وأعلنت استقلالها فى عام ١٠٢٣ ، وعثر أبو القاسم محمد قاضى قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثانى فنادى به خليفة ، وآواه وأمسك هو بزمامه ، وأقنع بلنسية ، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته . وبهذه الطريقة السهلة أقام قاضى القضاة الداهية أسرة بنى عباد القصيرة الأجل . ولما مات فى عام ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم أشبيلية بمهارة وقسوة مدة سبع وعشرين سنة ، وأخذ يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدى له الجزية . وورث الملك من بعد ابنه المعتمد (١٠٦٨ — ١٠٩١) وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولكنه لم يرث عنه مطامعه ولا قسوته . وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس ، يفضل مجالس الشعراء والموسيقيين على مجالس الساسة وقواد الجند ، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء ، ولا يحسدهم على تفوقهم ، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار[٣٦] . وكان يحب شعر ابن عمار ، ولذلك اتخذه وزيراً له ، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر ، فابتاعها ، وتزوجها ، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديدا ، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات فى قصره . وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها ، وأحاطت سيدها بجو من المرح ، جعل رجال الدين يلومونها على عدم اكتراث زوجها بشئون الدين ، وما آلت إليه مساجد المدينة التى أوشكت أن تخلو من المصلين . لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم ، وأن يحب ، ويغنى ، فلما أن هاجمت طليطلة مدينة قرطبة ، واستغاثت قرطبة به ، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة ، وأخضعتها لأشبيلية ، وحمل الملك — الشاعر مدى جيل كامل ملىء بالقلاقل لواء حضارة لا تقل ازدهارا عن حضارة بغداد فى أيام هرون الرشيد ، وحضارة قرطبة فى عهد المنصور .

٢ — الحضارة فى بلاد الأندلس الإسلامية

لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب »[٣٧] . ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحى عظيم[*] قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن ننقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً . لسنا ننكر أن الأمراء والخلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التى يرى ميكفلى أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها ، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت فى بعض الأحيان إلى حد الهمجية وغلظة القلب ، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار فى جماجم الموتى من أعدائه ؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانه آخر الأمر[٣٨] . ولكن المقرى يورد فى مقابل هذه الأمثلة النادرة مئات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودماثة أخلاقهم[٣٩] : وهم لا يقلون فى هذه الصفات عن أباطرة الروم فى زمانهم ، وما من شك فى أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة فى العالم الغربى ؛ فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام . وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون فى معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدى موظفين منهم[٤٠] . وكان فى المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق ، والمكاييل ، والموازين ، رقابة محكمة ؛ وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأملاك فى فترات منظمة ؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها رومة أو بيزنطية . وبلغت

(*) هو استانلى لين پول ، وذلك القول منقول عن كتابه « حكم المسلمين فى أسپانيا » (المترجم)

الإيرادات فى أيام عبد الرحمن الثالث ٠٠٠ر٠٤٥ر١٢ دينار ذهبى (أى ما يعادل ٧٥٠ر٢١٣ر٥٧ دولار أمريكى) – وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة[٤١] . ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثراً من آثار الحكم الصالح ، وتقدم الزراعة والصناعة ، ورواج التجارة[٤٢] .

وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد . ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التى كبرت فوق ما يجب ، والتى كان يمتلكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع[٤٣] . ولكن القوى التى كانت فى هذه القرون تعمل لتثبيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها فى أسبانيا أيضاً ، وإن لقيت فيها من المقاومة أشد مما لقيته فى فرنسا ؛ فقد امتلك العرب بدورهم مساحات واسعة من الأراضى ، وكان يقوم بزرعها مستأجرون قريبو الشبه برقيق الأرض . وكان العبيد يلقون على أيدى المسلمين معاملة أحسن قليلا من التى كانوا يلقونها على أيدى سادتهم الأولين[٤٤] . وكان فى مقدور عبيد غير المسلمين أن يتحرروا من الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام ، وكان العرب فى معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب فى علومها ؛ وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم فى أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته فى أوربا المسيحية[٤٥] . واستبدل بالثيران البطيئة الحركة ، التى كانت تستخدم حتى ذلك الوقت فى جميع أنحاء أسبانيا للحرث والجر ، البغال ، والحمير ، والخيل . وأدى تهجين السلالات الأسبانية والعربية من الخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التى كان يمتطيها فرسان العرب وكبلرو Caballero (فرسان) الأسبان : ونقلت بلاد الأندلس الإسلامية

من آسية زراعة الأرز ، والحنطة السوداء(*) ، وقصب السكر ، والرمان ، والقطن ، والسبانخ ، والأسفرج(**) ، والموز ، والكراز ، والبرتقال ، والليمون ، والسفرجل ، والليمون الهندى ، والخوخ ، ونخيل البلح ، والتين ، والشليك ، والزنجبيل ، والمر وصناعة الحرير[٤٦] . وكانت زراعة الكروم من الأعمال الكبرى فى بلاد الأندلس ، وإن كان الدين الإسلامى يحرم الخمر . وأحالت حدائق الخضر ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفاكهة مساحات من الأندلس — وخاصة حول قرطبة وغرناطة ، وبلنسية — جنات على الأرض . كما استحالت جزيرة ميورقة Majorca ، التى فتحها العرب فى القرن الثامن بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التى سميت الجزيرة باسمها فيما بعد .

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب ، والفضة ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والشب ، والكبريت ، والزئبق . وكان المرجان يستخرج من البحر على طول سواحل أسبانيا ، كما كان اللؤلؤ يصطاد قرب سواحل قطلونية ، وكان الياقوت يستخرج من مناجم حول باجة ومالقة . وتقدمت الصناعات المعدنية فى البلاد تقدما عظيما ، فاشتهرت مرسية بمصنوعاتها من الحديد والشبهان ، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف ، وقرطبة بالدروع . وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية ، فكانت قرطبة تصنع الجلد القرطبي الذى يستخدمه الحذاءون فى أوربا المعروفون باسم Cordwainer نسبة إلى « الجلد القرطبي Cordovan » . وكان فى قرطبة وحدها ١٣٠٠٠ نساج ، وكان المشترون فى كل مكان يقبلون

(*) نبات ينمو فى ألمانيا وبريطانيا وتتخذ حبوبه طعاماً للخيل ، والماشية ، والدجاج ، والكعك المصنوع من دقيقه طعام شهى على موائد الفطور الأمريكية . (ويسمى بالإنجليزية buckwheat) (المترجم)

(**) نبات تتخذ براعيمه الصغيرة طعاماً شهياً ويسميه ابن سينا اسفرغس وهو بالإنجليزية Asparagus (المترجم)

على شراء السجاجيد ، والوسائد ، والسجف الحريرية ، والشيلان ، والأرائك الأندلسية . ويقول المقرى[٤٨] إن ابن فرناس القرطبي اخترع فى القرن التاسع الميلادى النظارات ، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ، كما اخترع آلة طائرة . وكان أسطول تجارى يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآسية ، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر وثغر تزدحم بها مرافئ برشلونة ، والمرية ، وقرطاجنة ، وبلنسية ، ومالقة ، وقادس ، وأشبيلية . وأنشأت الحكومة نظاماً للبريد ينقل رسائلها بانتظام . واحتفظت العملة الرسمية بأجزائها — الدينار الذهبى ، والدرهم الفضى ، والفلس النحاسى ، — بثباتها واستقرارها النسبى ، إذا قارناها بعملة العالم المسيحى اللاتينى فى أيامها ، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت هى الأخرى ينقص وزنها ، ونقاؤها ، وقوتها الشرائية .

وسار الاستغلال الاقتصادى فى هذه البلاد سيرته فى البلاد الأخرى ، فاستحوذ العرب أصحاب الضياع الواسعة ، والتجار الذين كانوا يعتصرون المنتج والمستهلك على السواء ، على خيرات الأرض . وكان معظم الأغنياء يعيشون فى الريف فى بيوت ذات حدائق ، ويتركون المدن الكبرى للبربر ، والذين أسلموا من المسيحيين ، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسين الذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولغة الحديث) ، وإلى طائفة قليلة العدد من الخصيان ، والضباط والحراس الصقالبة ، والعبيد خدم البيوت . وأحس الخلفاء فى قرطبة بعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادى من غير أن يضعفوا روح المغامرة فوقفوا بين هذا وذاك بتخصيص ربع غلات أرضهم لمعونة الفقراء[٤٩] .

وكان استمساك الطبقات المتعلمة بدينها وتشددها فى عقائدها سبباً فى زيادة سلطان الفقهاء أى علماء الشريعة الإسلامية ؛ وكان العامة ينفرون من كل جديد

فى العقائد أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين ، والمفكرين(*) يخفون رؤوسهم فى معظم الأحوال ، وينزوون فى البيوت أو يلجأون إلى الغموض فى الأقوال . وكمت أفواه الفلاسفة ، أو اضطروا إلى الجهر بآراء تقبلها جمهرة الناس وتحترمها . وكان الموت جزاء من يرتد عن دين الإسلام . نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالا ذوى آراء حرة ، ولكنهم كانوا يظنون أن الخلفاء الفاطميين فى مصر يتخذون العلماء المتنقلين عيوناً عليهم ، ولهذا كانوا ينضمون فى بعض الأحيان إلى الفقهاء فى التضييق على التفكير الحر المستقل . لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة . وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين فى فتوحهم ، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثانى عشر مع المسلمين الفاتحين فى أمن ووئام ، وأثروا ، وبرعوا فى العلوم والمعارف ، وارتقوا فى بعض الأحيان إلى مناصب عالية فى الحكومة . أما المسيحيون فكانت تعترضهم فى سبيل الرقى فى مناصب الدولة عقبات أكثر مما يعترض اليهود ، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا بنجاح عظيم . وكان المسيحيون الذكور ، كالذكور من سائر الأديان ، يرغمون على الختان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية الصحية القومية ، لكنهم فيما عدا هـذا كانوا يحكمون بمقتضى شريعتهم القوطية الرومانية ينفذها فيهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم(٥٠) . وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحيين يؤدون ضريبة الفرضة(**) نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ؛ وكان مقدارها فى العادة ثمانية وأربعين درهماً (٢٤ ريالا أمريكياً) للغنى ، وأربعة وعشرين للمتوسط الثراء ، واثنى عشر درهماً لمن يعمل بيده(٥١) . وكان المسلمون

(*) لا ندرى كيف يتفق هذا القول مع ظهور كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد فى بلاد الأندلس نفسها . ولسنا نشك فى أن المؤلف قد خانه التوفيق فى هذا الحكم . (المترجم)

(**) فى الأصل الإنجليزى ضريبة الأراضى الزراعية وهو بلا شك سهو من المؤلف . (المترجم)

والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بكامل حريتهم ، ويشتركون من حين إلى حين فى الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً[٥٢] ؛ وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا « الحريم » أو مارسوا اللواط[٥٣] ؛ وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوربا المسيحية إلى قرطبة ، أو طليطلة ، أو إشبيلية طلابا للعلم ، أو زائرين ، أو مسافرين . وقد شكا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول :

« إن إخوانى المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة . . . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علما ولا أدبا ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ؛ فهم يقبلون فى نهم على دراسة كتب العرب ، ويملؤون بها مكتباتهم ، وينفقون فى سبيل جمعها أموالا طائلة ، وهم أينما كانوا يتغنون بمدح علوم العرب[٥٤] » . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامى من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت فى عام ١٣١١ م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين فى ذلك الوقت بمائتى ألف ، كلهم ماعدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام[٥٥] . وكثيرا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين[٥٦] .

لكن هذه الصورة الجميلة كان لها وجه آخر أخذ يزداد وقتا ما على مر الأيام . ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة ، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحرارا . فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابى فى مقاومة الفاتحين ؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرم بناء كنائس جديدة . وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

الأساقفة وعزلهم ، وحتى دعوة المجالس الكنيسة نفسها إلى الانعقاد : وكان الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يؤدون فيها أغلى الأثمان ، ولو كان من يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين فى الدين ، وكان القساوسة المسيحيون يتعرضون أحيانا للشتائم من المسلمين فى الشوارع ، وكان فقهاء المسلمين يعلقون بكامل حريتهم على ما يبدو لهم أنه سخافات وأباطيل فى الدين المسيحي ، ولكن المسيحيين الذين يردون عليهم بمثـل أقوالهم كانوا يتعرضون للخطر :

وفى هذه العلاقات المتوترة قد تؤدى أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة ، مثال ذلك أن فتاة حسناء من فتيات قرطبة ، معروفة لدينا باسم فلورا Flora فحسب ، ولدت لأبوين من دينين مختلفين ، فلما توفى أبوها المسلم اعتزمت أن تعتنق الدين المسيحى ، وفرت من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين ، ولكن أخاها قبض عليها وضربها ، وأصرت الفتاة على الارتداد عن دين أبيها ، وسيقت إلى إحدى المحاكم الإسلامية . وأمر القاضى بضربها وإن كان فى مقدوره أن يحكم بإعدامها . ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحى حيث التقت بقس شاب يدعى أولوجيوس Eulogius أحبها حباً روحياً عارماً . وبينما كانت الفتاة مختبئة فى أحد الأديرة ، إذ قتل قس آخر يدعى برفكتوس Perfectos ، لأنه تكلم فى حـــق النبي محمد أمام بعض المسلمين ، وقد وعدوه بألا يشوا به ، ولكن أقواله بلغت من العنف درجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاة الأمور . وكان فى وسع پروفكتوس أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال ، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر أمام القاضى قوله إن محمداً كان « خادماً للشيطان » ، فما كان من القاضى إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله ، ولكنه لم ينصلح ، وتمادى فى أقواله فحكم عليه بالإعدام . وظل وهو يساق إلى المشنقة

يسب النبي ، ويقول : إنه « مدع ، زان ، ولدته جهنم »(*) ، وابتهج المسلمون بمقتله ، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالا مهيباً ، وعدوه من القديسين (٨٥٠)(**)(٥٨) .

وأشعل مقتله نيران الحقد فى قلوب الطائفتين . فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولچيوس وجعلت هدفها سب النبي علناً ، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصير من يقتل من أفرادها هو الجنة . وذهب راهب قرطبي يدعى إسحق إلى القاضي وعرض عليه رغبته فى اعتناق الإسلام ؛ وسر القاضي من هذا وبدأ يشرح له مبادئ الدين الإسلامى ، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال « إن نبيكم قد كذب عليكم وخدعكم ؛ ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم » ! فزجره القاضي وسأله هل هو ثمل ؟ فرد عليه الراهب بقوله : « إنى مالك لقواى فاحكم علىّ بالإعدام » فأمر القاضي بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثانى بأن يخرجه على أن بعقله خبالا ، غير أن موكب جنازة پرفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر بإعدام الراهب . وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندى من الفرنجة فى حرس القصر على سب النبي علناً ؛ فكان جزاؤه الإعدام . وفى يوم الأحد التالى وقف ستة من الرهبان أمام القاضي وسبوا النبي ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام فحسب بل طلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب ، فحكم عليهم بالإعدام ؛ وحذا حذوهم قس ، وشماس ، وراهب . وابتهج لذلك أفراد الجماعة

(*) لقد أثبتنا هذه الألفاظ وما قبلها كما هى رغم ما فيها من تطاول على مقام اشرف الأنبياء لكى يقدر القارئ شناعة الجرم الذى ارتكبه قائلها . (المترجم)

(**) وليس أدل على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر من سماح المسلمين لمواطنيهم المسيحيين بالاحتفال بدفن هذا القس الذى سب نبيهم بأقبح الألفاظ احتفالا فخما مهيباً كما يقول مؤلف الكتاب . (المترجم)

ولكن كثيرين من المسيحيين — من رجال الدين وغير رجال الدين — لم يرضوا عن هذا التسابق للموت ، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة « إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ، ولا يضطهدنا ، فما الداعي إذن إلى هذا التعصب الشديد ؟ »[٥٩] ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين ، وهددهم بأن يتخذ ضدهم إجراءات عنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن ، فما كان من يولچيوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالجبن.

وزادت هذه الحركة من تحمس فلورا ، فغادرت الدير الذى كانت تقيم فيه وجاءت هى وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضى وأخذتا تطعنان على النبي ... وتقولان : إن الإسلام من « اختراع الشيطان » فأمر القاضى بسجنهما . وحملهما بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما ، ولكن يولچيوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل ، فقتلا . وشجع هذا يولچيوس فأخذ يطالب بضحايا جدد ، فأقبل على المحكمة قساوسة ، ورهبان ، ونساء يسبون النبي ويطلبون أن يعدموا(*) (٨٥٢) ، وأعدم يولچيوس نفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من موته فلم نسمع بين عامى ٨٥٩ ، ٩٨٣ إلا عن حادثين من حوادث السب والقتل ، ولم نسمع عن حوادث أخرى من هذا النوع فى أثناء الحكم الإسلامى فى أسپانيا[٦٠] .

(*) ليس أدل على تسامح الحكام المسلمين من سلوكهم فى أثناء هذه الحركة ، وعدم التجائهم إلى قمعها دفعة واحدة ، واكتفائهم بالحكم على من يتقدمون إلى القضاة ليطعنوا فى الدين ويسبوا الرسول . ترى ماذا يكون موقف أية حكومة من الحكومات الغربية فى هذه الأيام لو تألفت مثل هذه الجماعة لهذا الغرض ؟ إن أقل ما كانت تفعله بلا ريب هو أن تقبض على جميع أفراد الجمعية وتزجهم فى السجن وتستأصل الفتنة من جذورها . وخليق بنا أن نشير إلى ما اتبعه الأسپانيون أنفسهم مع المسلمين بعد أن طرد العرب من أسپانيا وإلى ما لقيه المسلمون من قسوة وتعذيب همجى وعمل متواصل لمحو جميع الآثار الإسلامية فى العلوم والفنون والآداب .

(المترجم).

أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الحماسة الدينية بازدياد الثراء ، وظهرت فى القرن الحادى عشر الميلادى موجة من التشكك رغم ما فى الشريعة الإسلامية من شدة على المتشككين ؛ ولم يقتصر الأمر على دخول مبادئ المعتزلة التى لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة ، بل قامت طائفة أخرى تنادى بأن الأديان كلها باطلة ، وتسخر بالأحكام الدينية ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة . ونشأت طائفة أخرى غير هذه وتلك سمت نفسها أتباع الدين العالمى ، وأخذت تندد بكل العقائد ، وتنادى بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها . وكان من بين هؤلاء جماعة من اللاأدريين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون ، فلسنا نؤكدها أو ننكرها ، وكل ما فى الأمر أننا لا نعرف حقيقتها ، ولكننا لا تسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائد لا نستطيع إثبات صحتها(٦١) . وأخذ رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية ؛ ولما أن حلت المصائب بالمسلمين فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر أخذوا يقولون إن سببها هو هذا الضلال ، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت فى الأندلس مرة أخرى ، كان انتعاشهم فى عهد حكام أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد الدين ، وقصروا الجدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه فى بلاطهم وما يبتغون به تسليتهم .

ولكن القباب المتلألئة والمآذن المذهبة كانت على الرغم من الفلاسفة زينة المدائن الكبيرة والصغيرة التى جعلت بلاد الأندلس فى القرن العاشر الميلادى أعظم البلاد المتحضرة فى أوربا ، بل إنها كانت فى أغلب الظن أعظم البلاد المتحضرة فى العالم كله فى ذلك الوقت . لقد كانت قرطبة فى أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة ، ولا يفضلها فى هذا إلا بغداد والقسطنطينية . وكان فيها كما يقول المقرى ٢٠٠،٠٧٧ منزلا ، و ٦٠،٣٠٠ قصر ، ٦٠٠ مسجد ، و ٧٠٠ حمام(٦٢) عام ، وإن كانت هذه الإحصاءات لا تخلو من قليل من المغالاة الشرقية . وكان زائرو

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا ، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام ؛ فقد كان فى وسع كل أسرة أن يكون لها حمار ؛ ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون . وكانت الشوارع مرصوفة ، لكل منها طواران على الجانبين ، تضاء أثناء الليل ، ويستطيع الإنسان أن يسافر فى الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المبانى[٦٣] . وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادى الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً . وكان من أولى منشئات عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدائق ، والفساقى والحمامات ، واشتهرت المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدائق والمتنزهات .

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه ، فأنشأ فى قرطبة بستاناً عظيماً شبيهاً بالقصر الريفى الذى قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق ، وشاد فى هذا البستان قصره المعروف « بقصر الرصافة » ، وأضاف إليه من جاء بعده من الخلفاء أجنحة أخرى خلع عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة . . . وقصر المعشوق . . . وقصر السرور . . . وقصر التاج(*) . وكان لقرطبة كما كان لإشبيلية قصرها الذى يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المنيع . ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع فى جمالها وترفها قصور نيرون فى رومة : يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالفسيفساء ، وسقفها المذهبة ، وما فيها من النقوش الجميلة التى لا يقدر عليها إلا الفن الإسلامى وحده . وكانت قصور الأسرة المالكة ، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه ثروة طائلة ، وأراد أن ينفقها فى افتداء من عساهم يكونون فى الأسر من

(*) والكامل ، والمجدد ، والحائر ، والزاهر ، والمبارك ، والرستق ، والبديع .
(المترجم)

جنوده ، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده فى الأسر عرضت عليه الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال فى بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها . وظل عشرة آلاف من العمال وألف وخمسمائة من الدواب يكدحون خمسة وعشرين عاما (٩٣٦ — ٩٦١) لتحقيق حلمها ، فكان قصر الزهراء الملكى الذى يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبها الغربى . وقد زين أفخم زينة وأثث بأفخم أثاث . وكان القصر يقوم على ألف ومائتى عمود من الرخام ، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة ، وكان يحتوى على بهو لمجلس الخليفة سقفه وجدرانه من الرخام والذهب ، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة ، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتماوجة . واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف والرقة ، وحسن الذوق ، وتعدد متعها العقلية . وأقام المنصور فى الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصراً آخر يضارعه (٩٧٨) سمى بالزاهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العظماء ، وبيوت الخدم ، والمغنين والعازفين ، والشعراء ، والخليلات . وقد حرق القصران فى أثناء الثورة التى تأجج لهيبها فى عام ١٠١٠ .

وكان الناس فى العادة يتغاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هؤلاء بيوتا لله تفوق قصورهم فى الفخامة والسعة . وكان الرومان قد شادوا فى قرطبة هيكلا ليانوس Janus ، أنشأ المسيحيون بدلا منه كنيسة كبرى ؛ فلما تولى الخلافة عبد الرحمن الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة ، وهدمها وشاد فى مكانها المسجد الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة فى عام ١٢٣٨ ؛ وهكذا تتغير مقاييس التقى ، والصدق ، والجمال تبعاً لتقلبات الحظ فى الحروب. وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته فى سنيه الكدرة ، فغادر بيته الريفى إلى قصره فى المدينة ليشرف على العمل بنفسه ، وكان يأمل أن يطول عمره.

حتى يوم المصلين فى المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه . لكنه توفى فى عام ٧٨٨ ، بعد عامين من وضع الأساس ، وواصل ابنه هشام عمل أبيه ، وظل الخلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً للمسجد حتى كانت سعته فى أيام المنصور ٧٤٢ قدما فى ٤٧٢ . وكان يحيط به سور منيع من الآجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة ، وكانت له مأذنة ضخمة تفوق فى حجمها وجمالها كل مآذن تلك الأيام ، حتى عدت هى الأخرى من « عجائب الدنيا » التى لا يحصى لها عدد[٦٤] . وكان للمسجد تسعة عشر بابا تحيط بها عقود على شكل حذاء الفرس ، نقشت عليها فى الحجر ببراعة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية . وكانت هذه الأبواب تؤدى إلى مكان الوضوء الفسيح الذى يسمى الآن بهو البرتقال (Patio de los Naranjos) . وفى هذا البهو الرباعى الشكل ، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكانها فى المسجد سبعين ثوراً . وكان المسجد نفسه يحتوى على أجمة من ١٢٩٠ عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً . وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود مختلفة الأنواع — بعضها نصف دائرى ، وبعضها مستدق ، وبعضها على شكل حذاء الفرس ، ولمعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب . وكانت العمد من حجر اليشب ، والحجر السماقى ، والمرمر ، والرخام ، انتزعت من خرائب الرومان والقوط الغربيين فى أسبانيا ، وكانت لكثرة عددها تحير الناظر وتوحى إليه بأن المسجد لا ينتهى عند حد . وقد نقشت على السقف الخشبى آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات ، وعلق فيه مائتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمده من خزانات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هى الأخرى من السقف ، أما الأرض والجدران فقد زينت بالفسيفساء ، بعضها من الزجاج المطلى بالميناء ،

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية ، وكثيراً ما كانت تحتوى على قطع من الفضة والذهب . ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر فى جدران الكنيسة . وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً ، ورصفت أرضه بالفضة وقطع القاشانى المطلية بالميناء ، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء ؛ وقامت عليه ثلاث قباب ، وأحيط بساتر من الخشب محلاة بأبدع النقوش . وفى داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهب من حذق وإبداع . وكان المحراب نفسه تجويفا سباعى الأضلاع محاطا بالذهب ومزدانا بالفسيفساء المطلية بالميناء ، ومزخرفا بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء ، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة ، والعقود المزدانة بأزها الكُرَة(*) لا يفوقها فى الجمال شىء مما أبدع الفن القوطى . وكان المنبر يعد أجمل منابر العالم طُرًّا ؛ وكان يؤلف من ٣٧,٠٠٠ قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة — كالأبنوس ، والأترج ، وعود الند ، والصندل الأحمر والأصفر ، مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة ، ومطعمة بالجواهر . وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزى المطرز بخيوط من الذهب يحمل مصحفاً بخط الخليفة عثمان بن عفان ، ومخضبا بدمه الذى جرى عليه عند مقتله .

ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن المذهبة وبالنحاس بدل أن نحلى كنائسنا بالجواهر والذهب ، يبدو لنا أن فى زخرفة المسجد الأزرق إسرافا كبيراً ، وأن جدرانه قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة ؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة ، وأن العقد الذى على صورة حذاء الفرس ضعيف من الناحية المعمارية تنفر منه حاسة الجمال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذى الساقين الفحجاوين(**) . ذلك حكمنا أما غيرنا فكان

(*) حلية معمارية . (المترجم)

(**) الساق الفحجاء هى التى انحنت من وسطها فتباعد وسطها عن وسط صاحبتها (المترجم)

حكمه يناقض هذا الحكم ؛ فالمقرى (١٥٩١ — ١٦٣٢) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر فى سعته ، أو جمال تخطيطه ، أو نظام زخرفه الذى يشهد للقائمين به بحسن الذوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة[٦٥] ، ولا يزال البناء حتى فى شكله المسيحى المصغر يعد « بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية فى العالم كله »[٦٦] .

وكان من الأقوال المتداولة فى بلاد الأندلس الإسلامية أنه « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية »[٦٧](*) : ذلك أن قرطبة كانت فى القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الأسبانية وفروتها ، وإن اشتركت معها طليطلة ، وغرناطة ، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقى عقلى عظيم . ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهابذة العلماء فى العلوم الطبيعية ، والأدبية ، وكبار المشترعين ، والأطباء ؛ ويملأ المقرى بأسمائهم ستين صحيفة[٦٨] . وكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم ، ثم أضاف الحكم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان . وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء ، ونبغ عدد من النساء المسلمات فى الأدب والفن[٦٩] ، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم فى المساجد ، وكانت المناهج التى يدرسونها هى التى كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك ، والتى لم يكن يفوقها فى القرنين العاشر والحادى عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشبيهتان بها . وأنشئت الكليات أيضاً فى غرناطة ، وطليطلة ، وإشبيلية ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وقادس[٧٠]

(*) قيل هذا فى مناظرة جرت بين منصور بن عبد المؤمن وبين الفقيه العالم ابن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر وقائله هو ابن رشد نفسه وقد قدم المؤلف عجز العبارة على صدرها .
(المترجم)

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتى كان فى الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي ، ومحبو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها . من ذلك أن الحضرمى أحد العلماء رأى فى مزاد بقرطبة رجلا آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب ، ولما سئل المزايد الذى اقتناه فى ذلك قال إن فى مكتبته الخاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة . ويضيف فاغتاظ العالم من هذا القول أشد الاغتياظ ولم يسعه إلا أن يقول : « نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له »(٧١)(*) .

وكانت للعلماء فى الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشيرونهم فى شئونهم ، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة . وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالمئات ؛ أما الخطباء ، وفقهاء اللغة ، وأصحاب المعاجم ، والموسوعات ، ودواوين الشعر ، والمؤرخون ، وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد : وكان أبو محمد على بن حزم (٩٩٤ — ١٠٦٤) من جهابذة علماء الدين والمؤرخين ، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين : ويعد كتابه المعروف بـ « كتاب الملل والنحل » (**) الذى يتكلم فيه على اليهودية ،

(*) ثم أضاف : وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه . (المترجم)

(**) اسم الكتاب كاملا هو « الـفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » للإمام أبى محمد على ابن أحمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ وأما كتاب « الملل والنحل » فللإمام أبى الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ . والفِصَل الواردة فى بدء اسم الكتاب الأول جمع فصلة بالكسر كقصعة وقصع وهي النخلة المنقولة من محلها إلى آخر لتثمر . هذا ولم نعثر على الفقرة الواردة هنا بنصها فى كتاب ابن حزم ويبدو لنا أن دوزى الذى نقل عنه المؤلف قد أخذ معناها من مواضع متفرقة من الكتاب ولهذا لم نر بدا من ترجمتها واستعملنا ما عثرنا عليه من ألفاظ ابن حزم فى الفصل الذى تكلم فيه على النصارى . (المترجم)

والزرادشتية ، والمسيحية ، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ما كتبه الأقدمون فى علم الأديان المقارن . وإذا شئنا أن نعرف رأى العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية فى العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب :

يجب ألا تثير أوهام بنى الإنسان عجبنا ، فإن أكثر الأمم عدداً ، وأعظمها حضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام . . . فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم إلا الله وحده . وفى وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهين ، ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، وإن أحد هؤلاء الثلاثة الأب والثانى الابن ، وإن الإنسان إله وليس إلها ، وإن المسيح قديم موجود من الأزل ، ومع ذلك فهو مخلوق ، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة ، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر[٧٢] .

وكان ابن حزم يؤمن بأن كل كلمة وردت فى القرآن حق بنصها ومعناها[٧٣] .

وكان من أشد العوائق فى سبيل تقدم العلم والفلسفة فى بلاد الأندلس الخوف من أن يؤثرا فى إيمان العامة ، لكن الأندلس تستطيع أن تفخر بكثير من الفلاسفة والعلماء . فمن هؤلاء مسلمة بن أحمد (المتوفى فى عام ١٠٠٧) والذى عدل أزياج الخوارزمى الفلكية لتلائم أسبانيا . ومن الكتب التى تعزى إليه ، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة ، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التى حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة — وهى التجربة التى استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق . وأصبح اسم إبراهيم الزرقالى (١٠٢٩ — ١٠٨٧) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية ، لأنه حسن الآلات الفلكية ؛ وينقل كوبرنيق فقرات من رسالته عن الاسطرلاب ؛ وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها فى زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة فى التاريخ حركة الأوج الشمسى بالنسبة للنجوم . وكانت « أزياج طليطلة » المحددة لحركات الكواكب

تستخدم فى كافة أنحاء أوربا ، وكان لأبى القاسم الزهراوى (٩٣٦ — ١٠١٣) طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة فى العالم المسيحى ، ويعرف فيه باسم أبو الكاسس Abulcasis ؛ وكان هو حامل لواء الجراحين المسلمين ؛ وتحتوى موسوعته الطبية المسماة « التصريف » ثلاثة كتب فى الجراحة أصبحت بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى فى الجراحة قروناً كثيرة . وكانت قرطبة فى ذلك الوقت المدينة التى يلجأ إليها الأوربيون لتجرى لهم الجراحات . وكانت تحتوى ، كما تحتوى كل مدينة متمدينة ، على بعض المتطببين الدجالين ، والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة ؛ ومن هؤلاء رجل يسمى الحرانى أعلن عن دواء يشفى الاضطرابات المعوية ، وكان يبيع الزجاجة منه للسذج من ذوى المال بخمسين ديناراً (٥ر٢٣٧ ريال أمريكى) .

ويقول المقرى : « وسنمسك عن ذكر الشعراء الذين ظهروا فى أيام هشام الثانى والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر »[٧٥] . وكان من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة فى عام ١٠٨٧) ؛ والتى كان بيتها فى قرطبة ندوة حقة شبيهة بندوات عهد الاستنارة فى فرنسا : فكان يلتف حولها الظرفاء ، والعلماء ، والشعراء ؛ وقد أحبت عدداً كبيراً منهم ، وكتبت عن عشاقها بحرية لو سمعت بها السيدة ريكمييه Mme Récamier لارتاعت لها . ولقد بزتها صديقتها مهجة القرطبية فى جمال الجسم وخلاعة الشعر[*] . وكاد كل إنسان فى الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً ، يتطارح الشعر المرتجل مع غيره لأى سبب . وكان الخليفة نفسه يشترك فى هذه المطارحات الشعرية ، وقلما كان يوجد فى البلاد أمير مسلم ليس فى بلاطه شاعر يكرم ويخصص له راتب . وقد أدت هذه الرعاية الملكية إلى الشر كما أدت إلى الخير . ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبدو فيه

(*) يصفها المقرى بقوله إنها من أجمل نساء زمانها ولازمت ناديها وكانت من أخف النساء روحا . (المترجم)

التكلف والصناعة اللفظية ، والمحسنات ، وهو مثقل بالتشبيهات والاستعارات مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور . أما موضوعه فهو الحب الشهوانى والعذرى ؛ وقد استبق الشعراء فى أسبانيا وفى الشرق الإسلامى أساليب شعراء الغزل فى عهد الفروسية Troubadors ، وطرقهم وفلسفتهم[٧٦] .

وسنختار من هذا العدد الجم نجما واحداً لامعاً هو سعيد بن جودى ابن صاحب الشرطة بقرطبة(*) . كان سعيد جندياً مقداماً كثير العشق ، يتصف بجميع الصفات التى تجعله فى نظر المسلمين سميذعا أى سيداً كاملا بحق : فقد كان سخياً ، شجاعاً ، فارساً بارعا ، بهى الطلعة ، فصيح اللسان ، شاعراً ممتازاً ، قوى الجسم ، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة بالسيف ، والرمح ، والرمى بالقوس[٧٧] . ولم يكن يدرى فى أى وقت من الأوقات أيهما أحب إليه — الحب أو الحرب . وكان يتأثر بلمس المرأة مهما ضعف ، ولذلك افتتن بكثيرات من النساء كان حب كل واحدة منهن يبشر بحب دائم لا ينقطع . وكان حبه كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين الغزلين أشد ما يكون حين تندر رؤية الحبيب . وكانت أعظم قصائده الغزلية قصيدة وجهها إلى جيجان التى لم ير منها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض . وكان أبيقوريا صريحا يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة ليست هى اللذة . ومن أقواله فى هذا المعنى :

(*) اسمه الكامل سعيد بن سليمان بن جودى ، وترجمته فى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار طبعة دوزى ص ٨٣ وما بعدها .

ومن قوله فى جيجان :

سمعى أبى أن يكون الروح فى بدنى	فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن
أعطيت جيجان روحى عن تذكرها	هـذا ولم أرها يوما ولم ترنى
كأننى واسمها والدمع منسكب	من مقلتى راهب صـلى إلى وثن

ويقال إنه نظر إلى جارية فاعتراها الخجل وأطرقت بعينها فقال :

أمائلة الألحاظ عـنى إلى الأرض	أهذا الذى تبدين ويحك عن بغض
فإن كان بغضاً لست والله أهله	ووجهى بذاك اللحظ أولى من الأرض

(المترجم)

لا شيء أملح . . . . . ومن مناقلة كأساً على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى جَموح فى الصبا طلقا وما خرجت لصرف الدهر عن طلق
ولا انثنيت لداعى الموت يوم دعا ولا انثنيت وحبل الحب فى عنقى(٧٨)

وكان زملاؤه فى الجندية يغضبون منه أحياناً لأنه يغوى أزواجهم ، وقد قبض عليه فى يوم ما أحد الضباط فى بيته وقتله (٨٩٧) .

وقد لقى شاعر آخر أعظم منه وأنبل خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها بطولة ، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية . وكان كغيره من الملوك الصغار فى بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدى الجزية إلى الفنسو السادس (الأذفنش) ملك قشتالة يشترى بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام . ولكن الرشا تترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشى متى طلب إليه الأداء . واستخدم ألفنسو المال الذى يأتيه من ضحيته فى الانقضاض على طليطلة فى عام ١٠٨٥ ؛ وأيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية . وكانت دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية ؛ ولكن أسرة إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هى أسرة المرابطين وقد (اشتق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين فى الشمال الغربى من إفريقية) . وكان الأساس الذى قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمساك الشديد بالدين ، ولم يكد يبقى فيها رجل غير جندى من جنود الله ؛ ولم تجد جيوشها صعوبة فى الاستيلاء على مراكش بأجمعها . وتلقى فى ذلك الوقت مليكها يوسف بن تاشفين – وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء – دعوة من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحى الضارى : فعبر يوسف بجيشه مضيق جبل طارق ، وتلقى المدد من مالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية ،

والتقى بجيش ألفنسو عند الزلاقة القريبة من بطليوس (١٠٨٦) . (بدچوز Badajoz) : وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها : « إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم ، ويوم الأحد عيد عندنا ، ولهذا فإنى أقترح أن تدور المعركة فى يوم السبت » . ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن ألفنسو هجم على المسلمين فى يوم الجمعة : وأظهر يوسف والمعتمد فى الحرب كثيراً من ضروب البسالة ، واحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدد كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسمائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس . ودهشت أسبانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغنم شيئاً .

ولكنه عاد بعد أربع سنين . وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضى على قوة ألفنسو الذى كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديد ، والتقى يوسف بالمسيحيين فى مواقع غير حاسمة ، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية . ورحب به الفقهاء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجديد على القديم ، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه فى نظرهم يمثل الرجعية الدينية ، وابتهج رجال الدين بمقدمه . واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة ، واكتسب محبة أهلها بإلغاء جميع الضرائب التى لا ينص عليها القرآن (١٠٩٠) . وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيما بينهم حلفاً لمقاومته ، كما عقدوا حلفاً مقدساً ! مع ألفنسو . وحاصر يوسف قرطبة ، وأسلمها إليه أهلها ؛ ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المعتمد دفاع الأبطال ، ورأى بعينيه ولده يقتل فى الدفاع عنها ، فحزن لموته حزناً هد ركنه واستسلم للمحاصرين(*) ، ولم يحل عام ١٠٩١ حتى سقطت جميع الأندلس ما عدا سرقطة فى يدى يوسف بن تاشفين ، وأصبحت أسبانيا الإسلامية ولاية تابعة لإفريقية .

(*) المعروف أنه كان للمعتمد ولدان هما المعتد بالله والراضى بالله وأنهما قتلا غيلة وله فى رثائهما شعر كثير . انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين . (المترجم)

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة ، وتلقى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصرى حوت أبياتا من الشعر يثنى فيها عليه ويسأله العطاء ، ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا فى ذلك الوقت أكثر من خمسة وثلاثين ديناراً بعث بها إلى الحصرى واعتذر له عن قلتها(*) . ثم نقل المتعمد إلى أغمات القريبة من مدينة مراكش وعاش فيها بعض الوقت مكبلا بالأغلال ، فقيراً معدما ، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته (١٠٩٥) . ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى | فأجمل فى التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن برد | له علمان من ذهب الذهاب
فأولها رجاء من سراب | وآخرها رداء من تراب(*)

(*) الحصرى هو صاحب « زهر الآداب » وهو الذى استجدى ابن عباد فى منفاه ، وكان فقيراً ، فأخذت ابن عباد أريحيته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطعة يعتذر فيها عن قلة ما منحه واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : « إنه جرى مع المعتمد على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف » وقد قال المعتمد نفسه فى هذا المعنى .

سألوا اليسير من الأسير وإنه | بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة اللخمية | طى الحشا لحكاهم فى المطلب

(من الجزء الثالث من ظهر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين). (المترجم)

(*) هذه هى أقرب أبيات وجدناها فى أشعار المعتمد إلى الأصل الإنجليزى وقد يكون فى الترجمة الإنجليزية بعض التصرف الذى تحتمه ترجمة الشعر العربى إلى شعر إنجليزى .
(المترجم)

الباب الرابع عشر

عظمة المسلمين واضمحلالهم

١٠٥٨ — ١٢٥٨

الفصل الأول

الشرق الإسلامى

١٠٥٨ — ١٢٥٠

لما توفى طغرل بك فى عام ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ، ولم يكن ألب أرسلان وقتئذ قد جاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان بلغ من طولهما أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد ، وأن سهامه لم تخطئ مرماها قط . وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرفى شاربه لاتقل عن ذراعين . وكان حاكماً قوياً ، عادلا ، كريما بوجه عام ، لايتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يغتصب مالهم من عماله ، كثير البذل للفقراء . وكان يقضى جزءا كبيرا من وقته فى دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التى تكشف عن أخلاقهم ، وأنظمة حكمهم وإدارتهم[1] .

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه — « البطل قلب الأسد » فقد فتح هراة ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، والشام . وحشد إمبراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندى من مختلف الأجناس ،

مختل النظام ليلاقى به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥ر٠٠٠ مقاتل ، فلما التقيا عرض القائد السلجوقى على عدوه صلحا معقولا ، رفضه رومانوس Romanus بازدراء ، واشتبك معه فى معركة عند منزيكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (١٠٧١) ، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء ، فهزم ووقع فى الأسر ، وجيء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجابه رومانوس بأنه فى هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط . ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بفدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة[٢] ، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان .

وكان ابنه ملك شاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينا كان قائده سليمان يتم فتح آسية الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . وأسبغ وزيره القدير الوفى نظام الملك على البلاد فى عهده وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والبهاء كالذى أسبغه البرامكة على بغداد فى أيام هرون الرشيد . فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شئون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ؛ ويشجع الصناعة والتجارة ؛ ويصلح الطرق ، والجسور ، والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان صديقاً كريماً للفنانين ، والشعراء ، والعلماء ؛ شاد المبانى الفخمة فى بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها فى الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم فى المسجد الجامع بإصفهان ، ورصد له ما يلزمه من المال . ويبدو أنه هو الذى أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسى . وتقول قصة قديمة إن نظام الملك ، وعمر الخيام ، وحسن بن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يواتى أى واحد منهم من حظ طيب . وأكبر الظن أن هذه القصة ،

كغيرها من القصص الطيبة ، من نسج الخيال ، لأن نظام الملك ولد فى عام ١٠١٧ ؛ على حين أن عمر الخيام ، وحسن بن الصباح توفيا فيما بين عامى ١١٢٣ ، ١١٢٤ ؛ وليس لدينا ما يشير إلى أن أحدهما كان من المعمرين .

وكتب نظام الملك وهو فى سن الخامسة والسبعين فلسفته فى الحكم فى كتاب من أكبر الكتب فى النثر الفارسى وهو كتاب — سياسة نامة أى كتاب فن الحكم . وهو يوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الدين حق الحاكم المقدس وسلطانه . ولم يبخل على مليكه فى الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال إن الحاكم يجب ألا يفرط فى الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ؛ وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين فى كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيما فى حكمه ولكنه لم يكن متسامحاً فى أمور الدين ؛ وهو يأسف لأن الدولة تستخدم فى أعمالها المسيحيين واليهود والشيعة ، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة . وفى عام ١٠٩٢ اقترب منه أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمعروض ، وطعنه طعنة قضت عليه .

وكان هذا القاتل عضواً فى طائفة من أعجب الطوائف فى التاريخ . وكان منشؤها أن أحد زعماء الإسماعيلية — وهو الحسن بن الصباح الذى تجمع إحدى القصص المشكوك فى صدقها بينه وبين عمر الخيام ، ونظام الملك — استولى على حصن ألموت (عش النسر) فى الجزء الشمالى من إيران ، ومن هذا الحصن المنيع الذى يعلو عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حرباً عواناً من التقتيل

والإرهاب على أعداء الشيعة ، وعلى الذين يضطهدون معتنقيها . وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة فى كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعيين أهل فارس الساسانية . وكانت فى الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها ، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم « شيخ الجبل » : وكانت أدنى طبقاتها تشمل الفدائيين الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤساؤهم من الأوامر : ويقول ماركو بولو Marco Polo الذى مر بألموت نفسها فى عام ١٢٧١ إن زعيم الطائفة الأكبر أعد خلف الحصن حديقه جمع فيها كل ما فى الجنة — على حسب ما يعتقده عامة المسلمين — من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهن شهواتهن ، وإن الذين يريدون أن ينضموا إلى الطائفة كانوا يسقون الحشيش ، حتى إذا غابوا عن وعيهم جىء بهم إلى الحديقة ، فإذا عادوا إلى صوابهم قيل لهم إنهم فى الجنة . وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فيها بالخمر والنساء ولذيذ الطعام ، يخدرون مرة أخرى بالحشيش ثم ينقلون من الحديقة ؛ فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التى كانوا فيها ، قيل لهم إنهم سيعادون إليها ويبقون فيها إلى أبد الدهر إذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا فى خدمته[٤]. وكان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون « الحشاشين » أى الذين يشربون الحشيش — ومن هذه الكلمة اشتق لفظ Assassin الإفرنجى الذى يطلق على المغتال . وظل حسن يحكم ألموت خمسا وثلاثين سنة ، وأحالها مركزاً الاغتيال والتعليم والفن . وظلت هذه الطائفة باقية بعد وفاته بزمن طويل ، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة ، وحاربت الصليبيين ، ويقال إنها هى التى قتلت كنراد المنتفراتى Conrad of Monteferrat بتحريض رتشرد قلب الأسد[٥]. وفى عام ١٢٥٦ استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن ألموت وغيره من معاقل الحشاشين ، وأخذت الدول والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم .لأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

يعملون على خرابه وتدميره : ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية ، وأضحوا على مر الأيام مسالمين خليقين بالاحترام ؛ وفى الهند ، وفارس ، والشام ، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامة أغا خان، ويؤدون إليه عشر دخلهم(٦) .

وتوفى ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا ، وتفرق المسلمون فى أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبيين بقوة متحدة . وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة فى أثناء حكمه الذى دام من ١١١٧ حتى ١١٥٧ ، وازدهرت فى أيامه الآداب بفضل تعضيده ومناصرته ؛ ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعون متقاتلون ، وقام فى الموصل أحد مماليك ملك شاه الأكراد وهو عماد الدين زنكى وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) فى عام ١١٢٧ ، وهى الأسرة التى حاربت الصليبيين حرباً عواناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين . وفتح ابنه نور الدين محمود (١١٤٦ — ١١٧٣) بلاد الشام ، واتخذ دمشق عاصمة له ، وحكم أملاكه حكما عادلا حازماً ، وانتزع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة .

وكانت عوامل الانحلال ، التى أدت إلى خضوع الخلفاء العباسيين إلى سلطان بنى بويه والسلاجقة ، قد أدت بعد قرنين من تضعضع الخلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الخلفاء الفاطميين حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر فى دولة يحكمها وزراؤهم قادة الجنود . وانغمس هؤلاء الخلفاء فى اللهو والشهوات بين نسائهم اللائى لا يحصى عددهن ، وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد ، وأفقدهم الترف والانغماس فى الشهوات الجنسية صفات الرجولة ، فتركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون . وحدث فى

عام ١١٦٤ أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين(*) من القواد . واستعان أحدهما وهو شاور على منافسه بنور الدين ، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه . وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً . ولما مات شيركوه خلفه فى الوزارة ابن أخيه الذى صار فيما بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin .

وقد ولد صلاح الدين فى تكريت الواقعة فى أعالى نهر دجلة عام ١١٣٨ من أسرة كردية — غير سامية . وكان أبوه أيوب قد ارتقى فى مناصب الدولة حتى صار والياً على بعلبك فى أيام عماد الدين زنكى ، ثم والياً على دمشق فى أيام نور الدين محمود . ونشأ صلاح الدين فى هاتين المدينتين فى بيت من بيوت الإمارة ، وتعلم فنون السياسة والحرب ، ولكنه جمع إليها صلاحاً وتمسكاً بالدين ، وتحمساً له ، وإتقاناً لأصوله ، وبساطة فى المعيشة لاتكاد تفترق عن بساطة الزهاد . ويعده المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين . وكان خير أثوابه ثوبا من الصوف الخشن الغليظ ، ولم يكن يشرب غير الماء ؛ وكان مضرب المثل فى اعتداله فى العلاقات الجنسية ، وبلغ فى ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه . قدم إلى مصر مع شيركوه ، واشترك فيما نشب فيها من قتال ، واستلفت الأنظار ببسالته وحسن تدبيره ، فعين حاكما على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة فى عام ١١٦٧ . ثم تولى الوزارة وهو فى سن الثلاثين ، فبذل جهده فى إعادة المذهب السنى إلى مصر ، حتى إذ كان عام ١١٧٠ استبدل باسم الخليفة الفاطمى الشيعى اسم الخليفة العباسى السنى فى خطبة الجمعة . ولم يكن للخليفة العباسى فى ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية فى بغداد . وكان الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين فى ذلك الوقت ، مريضاً فى قصره ، وظل على غير علم بهذا الانقلاب .

(*) هما شاور وضرغام . (المترجم)

الديني ، لأن صلاح الدين حرص على ألا تصله أنباؤه حتى يقضى هذا السجين العديم الشأن نحبه فى هدوء وسلام . وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل ، فمات ولم يبايع من يخلفه على العرش ، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث فى البلاد شيء من الاضطراب . وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً ، وأقر لنور الدين بالسيادة . ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد فيه اثنى عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه ، كما وجد فيه من الحلى ، والأثاث ، والعاج ، والخزف الثمين ما لا يوجد فى قصر أعظم عظماء ذلك الوقت . ولم يحتفظ صلاح الدين بشيء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده . وظل هو يسكن حجرات الوزير ويعيش فيها عيشة البساطة التى هى من خير النعم على صاحبها .

ولما مات نور الدين فى عام ١١٧٣ أبى ولاة الأقاليم أن يبايعوا ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ملكاً عليهم ، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى فى براثن الفوضى . وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولى الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعمائة من الفرسان ، واستطاع بحملة سريعة موفقة أن يستولى على جميع بلاد الشام . ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكا وأسس الأسرة الأيوبية (١١٧٥) ، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك الوقت ، واتخذ دمشق مقراً له ، واستولى على بلاد النهرين ، وكان فيها ، كما كان فى القاهرة ، الرجل الحريص على دينه ، المستمسك بأصوله . وأنشأ عدة مساجد ، وبيمارستانات ، وأديرة ، ومدارس لتعليم قواعد الدين ، وشجع العمارة ، وإن لم يشجع العلوم الزمنية ، وكان يشارك أفلاطون فى احتقاره الشعر . ولم يكن يتوانى عن إصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه ، وخفف الضرائب فى الوقت الذى أكثر فيه من المنشئات العامة ، وأدار دولاب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

حكمه ، بينما كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها(*) .

وسنمسك القلم عن التبسط فى أحوال الأسر المحلية التى اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (١١٩٣) . وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه ، وإن حكم للدولة الأيوبية فى بلاد الشام انقضى بعد ثلاثة أجيال (١٢٦٠) . أما فى مصر فقد ظل مزدهراً حتى عام ١٢٥٠ ، ووصل إلى ذروة مجده فى عهد الملك المستنير الملك الكامل (١٢١٨ — ١٢٣٨) صديق فردريك الثانى . وفى آسية الصغرى أقام السلاجقة سلطنة بلاد « الروم » ، وجعلوا قونية (إيقونيوم Iconium الوارد ذكرها فى أقوال القديس بولس) مركزا لحضارة ذات آداب رفيعة . وانمحت من آسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التى كانت قائمة فيها منذ أيام هومر ، وأصبحت بلاداً تركية لا تقل فى صبغتها هذه عن التركستان نفسها ، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمتها مدينة كانت فى الزمن القديم عاصمة الحيثيين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تحكم خوارزم (١٠٧٧ — ١٢٣١) ، وقد بسطت هذه القبيلة سلطانها من جبال أورال حتى الخليج الفارسى . وفى هذه الأحوال وهذا الانقسام السياسى أسس جنكيز خان الدولة الإسلامية الأسيوية .

وكانت بلاد الإسلام حتى فى هذه الفترة من عهود الاضمحلال تتزعم العالم كله فى الشعر، والعلم ، والفلسفة ، وتنافس آل هوهنستوفن Hohenstaufen فى الحكم . فقد كان سلاطين السلاجقة — طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شاه ، وسنجر — من أقدر الحكام فى العصور الوسطى ، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة ، ولم يكن نور الدين ، وصلاح الدين ، والكامل

(*) قد يدهش القارئ لأن المؤلف أغفل جهود صلاح الدين فى رد الصليبيين . ولكن هذه الجهود ستأتى فى موضعها من الأجزاء الأخرى (المترجم) .

أقل شأناً من رتشرد الأول ، ولويس التاسع ، وفردريك الثانى . وجرى هؤلاء الحكام المسلمون جميعهم ، بل وصغار الملوك أنفسهم ، على سنة الخلفاء العباسيين فى مناصرة الآداب والفنون ، حتى لنجد فى بلاطهم شعراء أمثال عمر الخيام ، والنظامى ، والسعدى ، وجلال الدين الرومى ؛ وبلغت العمارة فى أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل ، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم فى الدين(*)، فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كل خارج على السنة من المسلمين ، ولكنهم كانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين(٧) . وازدهر غرب آسية مرة أخرى مادياً ، وأدبياً فى عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق ، وحلب ، والموصل ، وبغداد ، وإصفهان ، والرى ، وهراة ، وأميدا ، ونيسابور ، ومرو وقتئذ من أكثر مدن العالم ثقافة وجمالا . وقصارى القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال متلألئ ساطع .

(*) لسنا نعتقد أن التشدد فى الدين يحول دون تقدم الفلسفة ولكن عدم فهم الدين على الوجه الصحيح هو الذى يحول دون تقدمها . (المترجم)

الفصل الثاني

المسلمون فى الغرب

١٠٨٦ — ١٣٠٠

توفى الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين فى عام ١٢٤٩ ، وتغاضت أرملته وجاريته السابقة شجرة الدر عن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة . وأراد الزعماء المسلمون فى القاهرة أن يوفقوا بين هذا وبين مقتضيات الشرف والرجولة فاختاروا مملوكاً آخر يدعى أيبك ليكون شريكاً لها فى الملك ، وتزوجت به شجرة الدر ، ولكنها ظلت هى الحاكمة ، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله فى الحمام (١٢٥٧) ، ولم تلبث أن قتلتها جوارى أيبك ضرباً بالقباقيب . وكان أيبك قد عاش من العمر ما يكفى لإنشاء أسرة المماليك . وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض ، وهم فى العادة من الأتراك أو المغول الأشداء البواسل ، الذين كان سلاطين بنى أيوب يستخدمونهم فى حرسهم الخاص ؛ وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر ، كما أصبح أمثالهم ملوكاً فى رومة وبغداد ؛ وظل المماليك يحكمون مصر ، وبلاد الشام أحياناً ، ٢٦٧ عاماً (١٢٥٠ — ١٥١٧) أريقت فيها كثير من دماء الاغتيال فى عاصمة ملكهم ، ولكنهم جملوها بآثار الفن . وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوربا نفسها من المغول حين بددوا شملهم فى واقعة عين جالوت (١٢٦٠) ؛ وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة ، وطردوا آخر محارب مسيحى من بلاد آسية ، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه بهزيمة المغول .

وكان أعظم سلاطين المماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبرس (١٢٦٠—١٢٧٧) .

كان الظاهر مملوكاً تركياً ، رفعه دهاؤه وبسالته إلى منصب القيادة فى الجيش المصرى ؛ وكان هو الذى هزم لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ ؛ والذى حارب بعد عشر سنين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعتى النظير تحت قيادة قطز فى معركة عين جالوت . ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على مصر ، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذى أعدته المدينة للضحية المنتصر . واشتبك الظاهر فى عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر ، ومن أجلها تضعه الرواية الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحى معاصر له بقوله : « إنه كان فى السلم معتدلا ، عفيفا ، عادلا بين شعبه ، رحيما برعاياه المسيحيين أنفسهم » . وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة ثبتت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به بعضهم من عجز ، فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . وقد أنشأ لمصر جيشا وأسطولا قويين ، وطهر مرافئها ، وأصلح طرقها ، وقنوات ريها ، وشاد المسجد المسمى باسمه فى القاهرة .

وخلع مملوك تركى اخر ابن الظاهر بيبرس وأصبح هذا المملوك السلطان المنصور سيف الدين قلاون (١٢٧٩ — ١٢٩٠) ، وأهم ما يشتهر به فى التاريخ هو البيمارستان الذى أنشأه فى القاهرة ، والذى خصص له مليونا من الدراهم (ما يعادل ٥٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام ، ورُفع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات ، ولكنه لم يخلع إلا مرتين ؛ وبنى قنوات لجر ماء الشرب إلى العاصمة ، وأنشأ حمامات عامة ، ومدارس ، وأديرة ، وثلاثين مسجداً ؛ واحتفر قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر فى حفرها مائة ألف عامل ، وضرب المثل فى بذخ المماليك ، إذ نحر عشرين ألفا من الذبائح فى الاحتفال بزواج ولده . ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعيراً حديقة من الخضر يطينها الخصيب ليستمد منها حاجته كل يوم[٩] . وأقفرت خزانة

الدولة الرومانية فى أيامه ، وكان سببا فى ضعف خلفائه ضعفاً خارت له فيا بعد قوة المماليك .

وبعد فإن سلاطين المماليك لايقعون فى نفوسنا موقع سلاطين السلاجقة ، أو الأيوبيين . نعم إنهم خلفوا منشآت عامة عظيمة ، ولكن معظم هذه الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تحتمله الطاقة البشرية ، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام طبقة الأعيان ، وكان الاغتيال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين ؛ ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم ، أسخياء فى مناصرة الآداب والفنون ، وكان عصر المماليك ألمع العصور الإسلامية فى تاريخ العمارة الإسلامية فى العصور الوسطى بأجمعها ؛ وكانت القاهرة فى عهدهم (١٢٥٠ — ١٣٠٠) أغنى مدن العالم الممتد فى غرب نهر السند[10] ، فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها ، وكان فيها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات ، وحوانيت صغيرة فى جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان ، وأزقة غاصة بالناس والدواب ، تعلو فيها أصوات البائعين الجائلين وعربات النقل ، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة ، ومتعرجة عن عمد ليسهل الدفاع عنها ، تختفى بيوتها وراء واجهات قوية ، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها فى الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة ، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلى أو حديقة قريبة ؛ وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير ، والسجف ، والطنافس ، والتحف الفنية ، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة . وكان فيها رجال يمضغون الحشيش ليخدروا حواسهم(*) ، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة ؛

(*) لا نعتقد أن « مضغ الحشيش » كان ظاهرة بارزة فى القاهرة جديرة بالتسجيل كما قد يتبادر إلى الذهن من قول المؤلف وإن وجد فى القاهرة كما فى سائر بلاد العالم من يتعاطون الحشيش وغيره من المخدرات وحسب القارئ أن يطلع على كتاب « اعترافات آكل أفيون إنجليزى » لدكونسى . (المترجم)

وفيها نساء يثرثرن فى بيوت الحريم ، أو يغازلن خلسة من وراء النوافذ ، والموسيقى تنبعث من آلاف الآلات ، والحفلات العجيبة تقام فى القلعة ، والحدائق العامة يفوح منها شذى الأزهار وتموج بالمتنزهين ، والنهر العظيم والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب ، وقوارب النزهة . هذه هى القاهرة المسلمة فى العصور الوسطى(*) .

لله بســتان وما قضيت فيه من المآرب
لهــفى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
فيروقنى والجــو منـــه ساكن والقطر ساكب
ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحائب
والطل فى أغصـــانه يحكى عقوداً فى ترائب
وتفتحت أزهـــاره فتأرجحت من كل جانب
وبدا على جنبـــاته ثمـــر كأذناب الثعالب
وكأنمـــا آصـــاله ذهب على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبيـــة لى فى الولوع بها مذاهب

وتعاقبت على شمال إفريقية فى ذلك الوقت أسر كان لها هى الأخرى شأن عظيم ، منها الزيرية (٩٧٢ — ١٠٤٨) وبنو حفص (١٢٢٨ — ١٥٣٤) حكام تونس ، والحموديون (١١٣٠ — ١٢٦٩) فى بلاد الجزائر ، والمرابطون (١٠٥٦ — ١١٤٧) والموحدون (١١٣٠ — ١٢٦٩) أمراء مراكش . وفى

(*) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الأبيات عن كتاب القاهرة Cairo تأليف استانلى لين پول Stanley Lane Poole ونقلها لين پول عن پالمر . وقد رجعنا إلى كتاب پالمر بدار الكتب وهو ديوان البهاء زهير وترجمته العربية لهذا المستشرق والترجمة الإنجليزية غير دقيقة كل الدقة وهى فى صفحتى ٨٢٧ من كتاب پالمر . (المترجم)

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المتنصرون ، جنود إفريقية المتقشفون الأولون ، بحياة الترف التى كان يحياها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم عروشهم ، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة ، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هولا الشجاعة مقياس السمو والعظمة والهدف المبتغى ، واكتسبت النساء برقتهن ومفاتنهن سلطانا لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمنون الناس بمثل هذه المتع فى الجنة . وفسد الموظفون ، ولم يلبث دولاب الإدارة ، الذى بلغ درجة عالية من الكفاية فى أيام يوسف بن تاشفين (١٠٩٠ — ١١٠٦) ، أن اختل فى أيام ابنه على (١١٠٦ — ١١٤٣) . واضطرب حبل الأمن ، وكثرت السرقات كلما ازداد إهمال الحكومة لواجباتها ، فأصبحت الطرق غير آمنة ، وكسدت التجارة ، ونقصت الثروة . واغتنم ملوك أسبانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة ، وإشبيلية وغيرهما من مدائن الأندلس الإسلامية ، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية يستغيثون بها لتنجيهم من محنتهم .

وكانت ثورة دينية قد شبت فى تلك البلاد فى عام ١١٢١ ، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد . فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الآدميين ، وبآراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شىء إلى العقل ، وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة فى العيش وفى العقيدة الدينية ؛ ثم أعلن فى آخر الأمر أنه هو المهدى المنتظر والمنقذ الذى يقول به الشيعة . والتفت حوله قبائل البربر الهمج سكان جبال أطلس ، ونظموا أنفسهم تنظيما قويا وسموا بالموحدين ، وهزموا حكام مراكش المرابطين ، ولم يجدوا صعوبة فى أن يفعلوا مثل هذا الفعل فى الأندلس . وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش فى عهد عبد المؤمن (١١٤٥ — ١١٦٣) وأبى يعقوب يوسف (١١٦٣—١١٨٤) من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوما لديهم أن يجعلوا

كتبهم غير مفهومة : لكن أبا يوسف يعقوب (١١٨٤ — ١١٩٩) استسلم إلى فقهاء الدين ، وتخلى عن الفلاسفة ، وأمر بحرق جميع كتبهم . ولم يكن ابنه محمد الناصر (١١٩٩ — ١٢١٤) يعنى بالفلسفة ولا بالدين ؛ وأهمل شئون الحكم ، وانغمس فى الملذات ، وهزم هزيمة منكرة على أيدى قوات المسيحيين المتحدة فى واقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام ١٢١٢ وانقسمت أسبانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة افتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة — قرطبة فى عام ١٢٣٦ ، وبلنسية فى ١٢٣٨ ، وإشبيلية فى ١٢٤٨ . وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة ، حيث وقتهم جبال سيارا نفادا أو الحاجز الثلجى بعض الوقاية ؛ وحيث ازدهرت حقول الكروم ، وحدائق الزيتون ، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجرى فيها من مياه الأنهار . وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الحازمين حافظوا على استقلالها هى والبلدان التابعة لها — شريش ، وجيان ، والمرية ، ومالقة — وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة ، وراجت فيها التجارة ، وانتعشت الصناعة ، وازدهرت الفنون ؛ واشتهر السكان بثيابهم الزاهية وحفلاتهم المرحة ، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام ١٤٩٢ ، وكانت هى البقية الباقية فى أوربا من تلك الثقافة التى جعلت بلاد الأندلس قروناً طوالا من مفاخر بنى الإنسان .

الفصل الثالث

نظرات خاطفة فى الفن الإسلامى

١٠٥٨ — ١٢٥٠

فى هذا العصر عصر سيادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء فى غرناطة والقصر والخرلدة فى إشبيلية . وكثيراً ما يسمى الطراز المعمارى الجديد بالطراز المراكشى morisco ظناً أنه جاء من مراكش ، ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس ، وهى أيضاً من مميزات التاج محال فى الهند ؛ ألا ما أوسع ميادين الفن الإسلامى وما أكثر غناه ! وقد كان الفن فى ذلك العهد فناً رقيقاً ، ولم يعد يهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما فى مساجد دمشق ، وقرطبة ، والقاهرة ، بل يهدف إلى الرقة والجمال ، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة ، وأن المثّال قد طغى فيه على مهندس المعمار .

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً فى العمارة ، وقد شادوا أولا بقصد الدفاع عن أملاكهم ، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج أمثال برج الذهب Torre del Oro الذى كان يحرس الوادى الكبير عند إشبيلية . وكان « القصر » Alcazar المقام هناك حصنا وقصراً معاً ، وكان يطل على العالم بواجهة بسيطة خالية من الجمال . وكان الذى وضع تصميمه لأبى يعقوب يوسف (١١٨١) هو الجالونى المهندس القرطبى ؛ وأصبح هذا القصر بعد عام ١٢٤٨ المسكن المحبب لملوك أسبانيا المسيحيين ؛ وأدخل عليه بدرو الأول (١٣٥٣) ، وشارل الخامس (١٥٢٦) . . . وإزبلا (١٨٣٣) تعديلا فى بنائه ، أو رمموه ، أو أعادوا ما تهدم منه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه

الآن مسيحياً فى بنائه ، ولكنه يغلب عليه فى نمطه وصنعه الطراز الإسلامى أو الإسلامى — المسيحى .

وأبو يعقوب يوسف الذى بدأ « القصر » هو نفسه الذى شاد فى عام ١١٧١ مسجد إشبيلية العظيم الذى لم يبق منه شىء فى هذه الأيام . وقد أقام جابر المهندس فى عام ١١٩٦ مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند الغربيين باسم الخرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة (١٢٣٥) ؛ ثم هدمت هذه الكنيسة فى عام ١٤٠١ ، وأقيمت فى مكانها كنيسة إشبيلية الكبرى ، وكان مما استخدم فى بنائها مواد المسجد نفسه . والجزء الأدنى من الخرلدة إلى ارتفاع ٢٣٠ قدما هو نفس بناء المأذنة الأصلية ، أما الاثنتان والثمانون قدما الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون (١٥٦٨) ، وحرصوا على أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة الإسلامية . والثلثان الأعليان من البناء كثيرا الزخارف ، وفيهما شرفات مقنطرة ذات واجهات متشابكة من الجص والحجر ، وفى أعلاها تمثال من البرنز للإيمان (١٥٦٨) ، ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسپانيا الدينى غير المتقلب لأنه يدور مع الريح ، ومن هنا اشتق لفظ خيرلدا — أى الذى يدور — الأسبانى من خيرا Gira . وقد أقام المسلمون فى مدينتى مراكش (١٥٦٩) ورباط (١١٩٧) أبراجا لا تكاد تقل جمالا عن هذا البرج .

وفى غرناطة أمر محمد بن الأحمر (١٢٣٢ — ١٢٧٣) فى عام ١٢٤٨ بتشييد أعظم صرح فى الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها ، ونعنى به قصر الحمراء الشهير . وكان الموضع الذى اختير لتشييده عليه قلة جبلية شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهرى الدارو Darro والجنيل Genil . وقد وجد الأمير فى هذا الموضع حصنا يعرف بحصن الكذابة Acazabs يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادى ، فأضاف إليه أبنية جديدة وأقام الأسوار الخارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل جزء من أجزائها شعاره المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى

هذا البناء الأصلى أجزاء أخرى فى فترات مختلفة وأصلح ما تلف منه على أيدى المسيحيين والمسلمين على السواء . من ذلك أن شارل الخامس أضاف إليه قصره المبنى على الطراز المربع طراز عهد النهضة ، وهو بناء ناقص كئيب مهيب غير متناسق . وخطط المهندس الذى لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذى فى داخل السور ليكون أولا حصنا يتسع لأربعين ألف رجل متبعاً فى هذا مبدأ العمارة الحربية التى نمت وتطورت فى بلاد الإسلام الشرقية(١٢) ؛ لكن ذوق القرنين التاليين الأكثر ميلا إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبيرة من الأبهاء والقصور ، تكاد تمتاز كلها بجمال الزخارف المكونة من الأزهار ، وأوراق الأشجار ، والأشكال الهندسية المحفورة أو المطبوعة فى الجص أو الآجر أو الحجارة الملونة ، والتى تبلغ من الجمال ورقة الذوق درجة منقطعة النظير . وأنشئت فى بهو الآس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلات الأبواب المزخرفة ، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع . وفى داخل هذا البرج بهو السفراء ، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على عروشهم بينا كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثراء ، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا البهو فرأى الحدائق ، والغياض ، والنهر يجرى من تحتها ، فقال بعد تفكير عميق : « ما أتعس حظ من من خسر هذا كله ! »(١٣) وفى الفناء الرئيسى للقصر المعروف ببهو الآساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبة المنظر تحرس فسقية من المرمر . وإن ما فى البواكى المحيطة بهذا الفناء من عمد رشيقة رفيعة ذات تيجان فى صورة أزهار ، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة ، وكتابات كوفية ، ونقوش عربية ذات ألوان أطفأ بريقها كر الغداة ومر العشى ، كل هذا يجعل القصر أروع آية فنية فى الطراز الإسلامى الأندلسى . ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا فى فهم حدود الرشاقة إلى

الإسراف ، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فإنها هي والروح تملان حتى الجمال والحذق . وهذه الدقة في الزخرف تبعث في النفس إحساساً بالوهن وتضحي بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن تشعرنا بهما هندسة البناء . ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخرفي كله تقريباً قد عاش بعد اثني عشر زلزالا . نعم إن سقف قاعة السفراء قد خر ، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً . وملاك القول أن هذه المجموعة الجميلة من الحدائق والقصور ، والفساقي ، والشرفات توحي إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامي الأندلسي من العظمة ، كما توحي في نفس الوقت بضعف هذا الفن : توحي بالإسراف في الثراء ، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتخلد إلى الدعة ؛ وبحاسة الجمال المرهفة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة .

وعاد الفن الأندلسي الإسلامي في القرن الثاني عشر من أسبانيا إلى شمالي إفريقية ، وبلغت مدائن مراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التي تبهر العين ، وبالأحياء الفقيرة المتعرجة . أما في مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والمماليك الفن الإسلامي بقوة جديدة ؛ فقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه في الجنوب الشرقي من القاهرة قلعتها الضخمة ، واستخدموا في بنائها الأسرى الصليبيين ، ولعلهم حذوا في طرازها حذو القلاع التي شادها الفرنجة في بلاد الشام ؛ وشاد الأيوبيون في حلب المسجد العظيم والقلعة ، وبنوا في دمشق ضريح صلاح الدين . وحدث في هذه الأثناء انقلاب في فن العمارة حول في جميع بلاد الشرق الإسلامي الطراز القديم في عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع ذي المدرسة . وكان منشأ هذا الطراز الجديد أن المساجد زاد عددها فلم تعد ثمة حاجة إلى أن يكون في وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛ وأن ازدياد الحاجة إلى المدارس كان يتطلب تسهيلات جديدة في التعليم . ولهذا

امتدت من المسجد الحقيقى أى من مكان الصلاة — الذى كان يعلوه فى ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة — امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف ، وقاعته الرحبة للمحاضرات . وقد جرت العادة فى أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناحه الخاص ؛ ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت فى صراحة : إن ذلك يتيح الفرصـــة لوجود مذهب منها فى القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة . وقد استمر هذا الانقلاب فى العمارة فى عهد المماليك فأنشئت المساجد والمقابر الضخمة المتينة من الحجارة ، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضيؤها نوافذ ذات زجاج ملون ، وتتلألأ فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة فى الجص الملون ، وقطع القرميد التى قاومت حتى الآن عوادى الزمان والتى لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين .

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد فى المائة ، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آنى فى أرمينية ، والمدخل الفخم لمسجد قونية ، ومسجد علاء الدين الفخم ، والمدخل الكهفى ، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز فى جامع سرتجيلى ؛ ونذكر منها فى بلاد النهرين مسجد الموصل الكبير ، ومسجد المستنصر فى بغداد ؛ وفى فارس برج طغرل بك فى الرى وقبر سنجر فى مرو ، والمحراب المتلألئ فى مسجد همذان ، والقبة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة فى المسجد الجامع بقزوين ، والعقود الكبرى والمحراب فى جامع الحيدرية ؛ وليست هذه إلا قلة من الصروح التى بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق فى العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو الذوق . وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع فى إصفهان الذى لا يدانيه فى بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا فى مشهد والذى أقيم بعد ذلك الوقت . ومسجد إصفهان هذا أروع الآيات الفنية كلها فى عصر السلاجقة . وقد أقيمت أجزاء من هذا

المسجد فى قرون عدة ، ويبدو عليها طابع تلك القرون ، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam . وقد بدئ بتشييده فى عام ١٠٨٨ ووسع مراراً عدة ، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا فى عام ١٦١٢ ؛ غير أن كبرى قبابه المشيدة من الآجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام ١٠٨٨ . ومدخل المسجد وأبواب المحراب — ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً — مزينة بالقاشانى والفسيفساء الذى لا يكاد يوجد له نظير فى تاريخ ذلك الفن بأكمله . وأبهاؤه الداخلية ذات قباب مضلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة ، وأقواس مستدقة تخرج من دعامات ضخمة . وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الجص من أوراق الكرم والبشنين ، وكتابات كوفية لا يعلو عليها شيء من نوعها فى بلاد الإسلام جميعها .

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قوماً همجا ؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام فى التاريخ ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم فى عصر الإيمان الذى يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة ؛ ولقد وقف طراز المبانى السلجوقية الضخمة الجريئة فى وجه النزعة الفارسية إلى الزينة ، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معمارى جديد عم آسية الصغرى والعراق وإيران ، ومن العجيب أن يتفق هذا الطراز فى الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطى فى فرنسا . ولم يجر السلاجقة على السنة التى جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة فى ركن من أركان الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متلألئة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصرح ، وضمت أجزاءه جميعها فى وحدة ؛ وفى هذا الوقت بالذات إجتمع فى البناء العقد المستدق ، والقبو ، والقبة أحسن اجتماع[١٤] .

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها فى هذا العصر العجيب عصر العظمة

والاضمحلال . فقد كان الشعر يبدو للفرس من مسرات الحياة التى لا غنى عنها ، ولم يبلغ فن الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه فى ذلك الوقت من تنوعٍ فى الشكل وجمال(١٥) . ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين ، وأهل الجزيرة ، والساسانيين ، وأهل الشام من فنون الزخارف البراقة ، والتلوين المفرد أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحته ، وأعمال الميناء ، والقرميد ، والقاشانى ، والزجاج ، حتى بلغوا بذلك كله درجة الكمال . وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصينى ، وخاصة ما كان منها متصلا بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسى . وقد استورد الخزف وقتئذ من بلاد الصين ، ولكن ندرة الكاولين فى الشرقين الأدنى والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الآنية النصف الشفافة . إلا أن الفخار الفارسى مع هذا بقى طوال القرون الثانى عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، لا يفوقه فخار آخر فى العالم كله — فقد كان فى تنوع أشكاله ، ودقة تناسبه ، وبريق زخارفه ، ودقة حزونه ، ورشاقته يسمو على كل ما عداه فى العالم كله(١٦) .

ولم تكن الفنون الصغرى فى بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التى تبخسها حقها . فقد كانت حلب ودمشق فى هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية الهشة ، المزخرفة بالميناء ، وصنعت القاهرة للمساجد والقصـــور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء أيضاً يبذل هواة التحف الفنية فى هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها(*) . وكانت كنوز الفاطميين التى فرقها صـــلاح الدين تحتوى على آلاف من المزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقرانى ، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون فى هذه الأيام ، وبلغ فن الزخارف المعدنية الأشورى القديم فى مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل ،

(*) وحسبنا أن نذكر أن آل رتشيلد ابتاعوا إبريقاً عربياً صغيراً من الزجاج المزخرف بالميناء بمبلغ ١٤,٦٥٠ ريالا أمريكيا .

ومن هذين القطرين انتقل ذلك الفن إلى البندقية فى القرن الخامس عشر[١٨] .
وكان النحاس ، والبرنز ، والشبَّة ، والفضة ، والذهب ، تصبّ أو تطرق ، وتصنع منها آنية للطبخ ، وأسلحة ، ودروع ، وقناديل ، وأباريق ، وأحواض ، وجفان ، وصَوانٍ ، ومرايا ، وآلات فلكية ، ومزهريات ، وثريات ، ومقالم ، ومحابر ، ومداقّ ، ومباخر ، وتماثيل للحيوانات ، وصناديق للمصاحف ، ومساند للمواقد ، ومفاتيح ، وأقفال ، ومقصات ؛ . . مزينة بنقوش محفورة ، ومرصعة فى كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة . وكانت الأوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبابيك الفخمة تصنع من المعدن المشغول للمحاريب ، والأبواب ، أو القبور . وفى متحف الفنون الجميله ببسطن صينية فضية نقشت عليها صور وعول ، وإوز ، واسم ألب أرسلان ، ويرجع عهدها إلى عام ١٠٦٦ ، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر ما أخرجه الفن الفارسى فى العهود الإسلامية من تحف فضية ، وأنها أهم تحفة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة[١٩] .

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون ، ومقصوراً على عمل النقوش البارزة ، والحفر على الحجارة أو الجص ، وعلى الزخرفة العربية والكتابية ؛ وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستهتر بعمل تمثال له أو لزوجه أو إحدى مغنياته ، ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجماهير . غير أن النقش على الخشب ترعرع وازدهر ؛ فكانت الأبواب ، والمنابر ، والمحاريب ، وكراسى المصاحف ، والسجف ، والسقف ، والمناضد ، والشبابيك الشَّعرية ، والأصونة ، والصناديق ، والأمشاط ، كانت هذه كلها تقطع على رسوم شَعْرية أو يكدح فى عملها صناع قاعدون القرفصاء يديرون المخارط بأقواس . وكان ثمة عمال آخرون أشد من هؤلاء كدحاً وأكثر منهم صبراً ينسجون الحرير ، والأطلس ، والحرير المشجر ، والأقمشة المطرزة ، والمخمل المشغول بخيوط الذهب ، والستائر ، والخيام ،

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتانة التى كانت موضع دهشة العالم وحسده . وقد شاهد ماركو پولو فى آسية الصغرى حين زارها فى عام ١٢٧٠ « أجمل الطنافس فى العالم كله »[٢٠]. ويقول جون سنجر سارچنت John Singer Sargent إن السجادة العجمية « تساوى فى قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الوقت »[٢١] ؛ مع أن الخبراء المختصين يحكمون بأن السجاجيد العجمية الحالية ليست إلا أمثلة ناقصة من الفن الذى برزت فيه بلاد الفرس العالم كله ؛ ولم يبق من السجاجيد العجمية التى نسجت فى عصر السلاجقة إلا قطع ممزقة ، ولكن فى وسعنا أن نتصور ما بلغته من إتقان وجمال منقطعى النظير مما نسج على منوالها بصورة مصغرة فى العصر المغولى .

وكان التصوير فى الإسلام من الفنون الكبرى فى الرسوم الدقيقة الصغيرة ، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى فى الرسم على الجدران ، وفى الرسوم الملونة للكائنات الحية . وقد استخدم الخليفة الفاطمى الآمر (١١٠٤ — ١١٣٠) عدداً من رجال الفن ابرسموا له فى حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت[٢٢] ، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعد له من القوة ما كان له فى سالف الأيام . وقد بلغ التصوير فى عهد السلاجقة ذروته فى بلاد التركستان حيث أضعف بُعد المسافة كراهية أهل السنة لهذا الفن ؛ ومن أجل هذا نرى فى المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك . ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوّجه فى عصر المغول الذى تلا ذلك العصر فى بلاد الإسلام الشرقية لا يكاد يترك مجالا للشك فى ازدهاره فى ذلك العصر السابق . فقد كانت العقول الأريبة والأيدى الصناع تخرج مصاحف تزداد جمالا فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجقة والأيوبيين والمماليك ، ومحال عبادتهم ، ولكبرائهم ، ومدارسهم ؛ وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقوشاً تبلغ فى

دقتها بيوت العنكبوت ، وكان الأغنياء ينفقون بعض ما لهم فى استئجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب ؛ وكانت طائفة كبيرة من الوراقين ، والخطاطين ، والمصورين ، والمجلدين ، تعمل فى بعض الأحيان سبعة عشر عاماً كاملا لإخراج مجلد واحد . ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع ، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التى لا يزيد عمرها على سنتين ، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورود الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن الذهب السائل يعد أثمن من أن ترسم به بعض الخطوط أو تكتب به بعض الحروف فى رسم أو نص . وفى ذلك يقول أحد شعراء الفرس : « إن الخيال لا يمكن أن يتصور مقدار السرور الذى يتيحه للعقل منظر خط متقن الرسم »(٢٣) .

الفصل الرابع

عصر عمر الخيام ١٠٣٨ - ١١٢٢

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء فى ذلك العصر لم يكن يقل عن عدد الفنانين . فقد كانت القاهرة ، والإسكندرية ، وبيت المقدس ، وبعلبك ، وحلب ، ودمشق ، والموصل ، وحمص ، وطوس ، ونيسابور ، وكثير غيرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى ؛ وكان فى بغداد وحدها سنة ١٠٦٤ ثلاثون مدرسة من هذا النوع ، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها فى سعتها ، وفخامة بنائها ، وأجهزتها ، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء فى المدينة كلها . وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوى أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى ؛ يجد فيها الطلاب التعليم ، والطعام ، والعناية الطبية بالمجان ، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى . وكان فى المدرسة مستشفى ، وحمام ، ومكتبة مفتحة الأبواب بالمجان للطلبة وهيئة التدريس . ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن فى بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأنا نسمع عن وجود شيخة - أى أستاذة - يهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا يهرعون إلى سماع محاضرات أسپازيا Aspasia وهيپاشيا Hypatia . (١١٧٨)[٢٤] .

وكانت دور الكتب العامة أغنى وأكثر مما كانت فى أى عهد آخر من عهود الإسلام ؛ وقد كان فى الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة ؛ وظل النحاة ، وعلماء اللغة ، وأصحاب الموسوعات ، والمؤرخون موفورى العدد والثراء ؛ وكانت كتب السير التى يضم كل منها عدداً من التراجم من الهوايات الشائعة المتقنة عند المسلمين . من ذلك أن القفطى (المتوفى فى عام ١٢٤٨) ترجم لأربعمائة

وأربعة عشر فيلسوفا وعالما ، وأن ابن أبى أصيبعة (١٢٠٣ — ١٢٧٠) ترجم لأربعمائة طبيب ، وأن محمد العوفى (١٢٢٨) ، ألف موسوعة تشمل ترجمة لثلثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام ؛ ويز محمد بن خلكان (١٢١١ — ١٢٨٢) بمفرده هؤلاء جميعاً وغيرهم بكتابه وفيات الأعيان الذى يحتوى على تراجم فى صورة قصص لثمانمائة وخمسة وستين من ذوى المكانة من المسلمين . والكتاب على اتساع مجاله عجيب الدقة ، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتذر عما فيه من نقص ويختتمه بقوله « أبى الله أن يصح إلا كتابه »(*) وحلل محمد الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل (١١٢٨) المشهورَ من أديان العالم وفلسفاته ، ولخص تواريخها ؛ ولم يكن فى مقدور أحد من المسيحيين فى ذلك العصر أن يكتب كتابا يماثله فى غزارة مادته ونزاهته .

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص ، متقطعة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة . وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب كليلة ودمنة لبيدبا هو مقامات أبى محمد الحريرى (١٠٥٤ — ١١٢٢) البصرى . وتروى هذه المقامات فى نثر مسجع مغامرات الوغد السافل أبى زيد صاحب الشخصية الممتعة ، وهو الذى يضطر القارئ إلى العفو عن مجونه ، وجرائمه ، وتهديفه بسبب فكاهته الظريفة ، وحذقه ودهائه ، وفلسفته الجذابة المغرية : انظر إلى قوله فى إحدى المقامات :

(*) يقول ابن خلكان : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عطائه النمير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » . انتهى قول ابن خلكان . تالله ما أجمل هذا التواضع ! (المترجم) .

وعاص النصيح　　الذى لا يبيح　　وصال المليح
إذا ما سمح

وجل فى المحال　　ولو بالمحال　　ودع ما يقال
وخذ ما صلح(*)

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين فى ذلك الوقت أن يقرض الشعر ، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه ؛ وإذا صدقنا قول ابن خلدون فإن مئات من الشعراء كانوا يقيمون فى بلاط المرابطين والموحدين فى إفريقية وأسبانيا(٣٦) . وحدث فى اجتماع للشعراء المتنافسين فى إشبيلية أن نال الأعمى التطيلى(**) جائزة لأنه جمع فى بيتين نصف شعر العالم كله إذ قال :

ضاحك عن جمان　　سافر عن در
ضاق عنه الزمان　　وحواه صدرى(٣٧)

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرءوها ؛ وفى القاهرة ظل البها زهير يغنى عن الحب بعد أن ابيض شعره بزمن طويل . وفى بلاد الشرق الإسلامى كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سببا فى ازدياد عدد الأمراء والكبراء الذين يناصرون الآداب ، وإلى تنافسهم فى هذا الميدان كما حدث فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر . وكان الفرس أغنى الأمم الإسلامية بالشعراء ، فقد ظل الأنورى شاعر خراسان زمناً ما يتغنى بقصائده فى بلاط سنجر ، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه . ومن مديحه لنفسه قوله بالفارسية ما معناه :

(*) من المقامة الثانية عشرة الدمشقية .　　(المترجم)

(**) أبو العباس التطيلى . ويروى سافر عن بدر وهذه القافية تتفق مع الترجمة الإنجليزية . وقصته كما يرويها ابن خلدون فى حديثه عن الموشحات الأندلسية : « أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكل واحد منهم اصطنع موشحة ، وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلى للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بالبيتين السابقين صرف ابن بقى موشحته وتبعه الباقون » .　　(المترجم)

لى روح ملتهبة كالنار ، ولسان فياض كالماء ،
وعقل قواه الذكاء وشعر مبرأ من العيوب ،
ولكن ما أشد أسفى إذلا أجد نصيراً خليقا بمديحى
وما أشد أسفى إذ لا أجد حبيباً جديراً بغزلى !(٢٨)

ولا يقل عنه ثقة بنفسه معاصره الخاقانى (١١٠٦ — ١١٨٥) ، وقد أثار بغطرسته معلمه فقال فيه شعرا يطعن فى نسبه يقول فيه بالفارسية ما معناه :

أى خاقانى ! مهما تكن مكانتك فى الشعر فإنى أسدى إليك نصيحة لاأقتضيك عليها أجراً :

لاتهجون أسن منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدرى(*)

وأكثر ما يعرف الأوربيون من الشعر الفارسى هو شعر عمر الخيام ؛ وتضعه بلاد فارس بين علمائها الأعلام ، ولا ترى فى رباعياته إلا لهواً عارضاً كان يلهو به « رجل من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى »(٣٠) . وقد ولد أبو الفتح عمر الخيام ابن إبراهيم فى نيسابور عام ١٠٣٨ ، ومعنى لقبه صانع الخيام ، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة أبيه إبراهيم ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت فى أيامه معانيها الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد Smith ، والخياط Taylor والخباز Baker ، والفخرانى Potter ، معانيها عند الإنجليز والأمريكيين(**) فى الوقت الحاضر . ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل أسماء الكثير من مؤلفاته ؛ منها كتابه فى الجبر الذى ترجم إلى الفرنسية فى عام ١٨٥٧ ، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدى الخوارزمى والعلماء اليونان . فقد وصل فيه إلى حل جزئى لمعادلات الدرجة

(*) ليس هذا البيت من ترجمتنا، بل إنه من شعر يهجو فيه بعضهم أبا العلاء صاعداً الأندلسى وهو ترجمة صادقة لقول أبى العلاء الآخر معلم الخاقانى .

(**) وعندنا أيضاً . (المترجم)

الثالثة قيل إنه « ربما كان أعظم ما وصلت إليه العلوم الرياضية فى العصور الوسطى »[٣١] ومنها كتاب آخر فى الجبر (وهو كتاب مخطوط فى مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعاريفه. وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء فى عام ١٠٧٤ إصلاح التقويم الفارسى ، وكانت نتيجة عملهم تقويما لا يخطئ إلا فى يوم واحد كل ٣٧٧٠ عاماً — أى أنه أدق قليلا من تقويمنا الحاضر الذى يخطئ بمقدار يوم كل ٣٣٣٠ عاما[٣٢]. وإنا لنترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التى تتلو حضارتنا هذه. غير أن الدين الإسلامى كان أعظم سلطانا على النفوس من العلوم الإسلامية ، ولهذا عجز تقويم الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجرى. ومما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكى من شهرة واسعة تلك القصة التى يرويها عنه نظامى عروضى الذى عرفه فى نيسابور :

فى شتاء سنة ٥٠٨ه(*) فى مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه فى طلب صدر الدين محمد بن المظفر رحمه الله ، وكلفه أن يخبر الخيام — وكان ينزل داره — أن السلطان يريد الخروج للصيد ، وأنه يطلب إلى عمر أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج. وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره. ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر ، وهبت الرياح عواصف ، ونزل الثلج والبرد ، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : لا تشغل بالك فإن المطر سينقطع فى هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة. وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأيام الخمسة[٣٣].

والرباعيات فى أصلها الفارسى قصيدة تتألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قافيتها آبا. وتعبر كل منها عن فكرة كاملة فى شعر جامع محكم. ولسنا

(*) أو ١١١٤ — ١١١٥ م.

نعرف منشأ هذا البحر ، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الخيام بوقت طويل . ولم يكن هذا الشعر فى الأدب الفارسى جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذاتها ، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها ، بل يرتبونها حسب قوافيها[٣٤] . وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية ، معظمها لا يعرف قائله ، ومنها ١٢٠٠ تعزى إلى عمر الخيام نفسه ، ولكن كثيراً منها يشك فى أنها من قوله . ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسى لرباعيات الخيام (وهو المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام ١٤٦٠ لا قبل ؛ ويحتوى على ١٥٨ من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أبجديا[٣٥] . وقد أمكن إثبات بعض هذه المقطوعات إلى شعراء قبل الخيام — بعضها إلى أبى سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا[٣٧] . وإن من الصعب ، إلا فى حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التى تعزى إلى الخيام من أقواله حقا[٣٨] .

ولقد كان المستشرق الألمانى فون همر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربى إلى رباعيات الخيام فى عام ١٨١٨ ، ثم ترجم إداورد فتزجرلد Edward Fitzgerald فى عام ١٨٥٩ خمساً وسبعين منها شعراً إنجليزيا رصيناً ممتازاً ، فريداً فى نوعه . ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل ، لكن طبعات أخرى متتالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ ، وأفلحت فى تعديل الصورة التى كانت فى عقول الناس عن العالم الرياضى الفارسى حتى جعلته من أكثر الشعراء شهرة ، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر فى العالم . ويرى العارفون بالأصل الذى ترجمه فتزجرلد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التى ترجمها تسعاً وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسى تعبيراً صادقا أمينا ، وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

وأن اثنتين « تنعكس فيهما روح القصيدة الأصلية بأجمعها » ، وأن ستاً مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الخيام ، ولكنها فى أغلب الظن ليست له ، وأن اثنتين ينطبع عليهما تأثر فتزجرلد بما قرأه لحافظ ، وأن ثلاثة لانجد لها أصلا فى أى نص فيا لدينا من نصوص رباعيات الخيام ، ويبدو أنها من وضع فتزجرلد نفسه ، وقد استبعدها هو فى الطبعة الثانية(٣٩). ولسنا نجد فى رباعيات الخيام ما يقابل المقطوعة الحادية والثمانين من ترجمة فتزجرلد(٤٠) وهى التى تقول :

إننى أدعوك يا من أنجبا   من خبيث الترب إنساناً نما
وبفردوس أدب الأرقما   كيفما زل امرؤ أوأجرما
فاحبه وأسأله غفران الأنام(*)

أما فيا عدا هذه المقطوعة فإن الموازنة بين ترجمة فتزجرلد وبين الترجمة الحرفية للنص الفارسى تتجلى فيها على الدوام روح عمر. وهى أمينة على الأصل إلى الحد الذى يحق للإنسان أن يتوقعه من هذه الترجمة الشعرية . وقد كانت نزعة فتزجرلد الدروينية السائدة فى أيامه مما حمله على إغفال فكاهة الخيام الحلوة ، وعلى توكيد ما فى أقواله من نزعة مضادة للدين . ولكن المؤلفين الفرس الذين جاءوا بعد عمر الخيام بقرن واحد لاأكثر يخلعون عليه من الأوصاف ما يتفق كل الاتفاق مع أقوال فتزجرلد ، فمرصد العباد (١٢٢٣) يصفه بأنه فيلسوف ملحد ، مادى تعس . ويقول عنه القفطى فى تاريخ الحكماء (١٢٤٠) إنه لانظير له فى الفلك والفلسفة ، ولكنه يصفه بأنه ملحد شديد الإلحاد ، يضطره الحذر إلى أن يمسك لسانه ؛ ويصفه أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى بأنه رجل سيئ الخلق من أتباع ابن سينا ، ويذكر كتابين للخيام فى الفلسفة لا وجود لهما الآن . ويفسر بعض المتصوفة رباعيات عمر تفسيراً مبنياً على الاستعارات الصوفية

(*) من ترجمة المرحوم محمد السباعى .

الخفية ، ولكن الصوفى نجم الدين الرازى يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحدين فى أيامه[٤١] .

وكا عمر الخيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام ، ويفخر بأنه سرق أبسطة الصلاة من المساجد ، ولعله قد تأثر فى هذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية ، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبى العلاء المعرى[٤٢]. وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين ؛ وإذ كان لا يأمل فى حياة غير الحياة الدنيا ، فقد استولت عليه فلسفة متشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى فى الدرس والخمر ؛ فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتى بعدها من المخطوط المحفوظ فى المكتبة البدلية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية :

وحانة كنستها بشاربى　　　وعالمين وليا عن غاربى
ما عادلى بالشر إما حاق بى　　　شأن ولا خيرهما إن ضاق بى
ودعها يا قلب عند ضارب　　　بأكرة يرسلها لضارب
تجد أخاك نائماً كشارب　　　سكران من هذى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى　　　لله ما أحلى وما أجملا
أن تشرب العقل فلا يعقلا　　　وأن يجوب المرء هذا الفلا
واعقله من كل شىء سلا　　　بين سماك نافر وهلا(*)

(يريد من برج الحوت إلى الهلال أى من أحد طرفى السماء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون فى مدح الغيبوبة أقوالا شبيهة بهذا القول ، حق لنا أن نتساءل أليست هذه الأقوال الخمرية مجرد صورة من صور الأدب ، ووقفة من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين ؟

(*) لم نجد هاتين المقطوعتين فيما هو مترجم من رباعيات الخيام ، وقد تفضل صديقنا الأستاذ دريني خشبة مشكوراً فترجمهما شعرا . (المترجم)

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع فى عقل القارئ صورة خاطئة لحياة الخيام ؛ وما من شك فى أنها لم يكن لها إلا شأن قليل فى الخمسة والثمانين عاما التى امتدت إليها حياته . ومن واجبنا أن نصوره ، لا فى صورة السكير الذى يستلقى مخمورا فى الطرقات ، بل فى صوة العالم المسن العاكف فى هدوء على معادلاته التكعيبية ، وعلى طائفة قليلة من أبراج النجوم والخرائط الفلكية ، وعلى كأس من الخمر بين الفينة والفينة مع زملائه العلماء ، وهم منتشرون على الكلأ كالنجوم . ويبدو أنه كان يحب الأزهار كحب المحصورين فى أرض جدباء ، وإذا أخذنا بقول النظامى العروضى فإنه قد نال بغيته فى أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير . قال النظامى :

هبط عمر الخيام سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ — ١٣م) مدينة بلخ ونزل فى قصر الأمير أبى سعد ، وكنت فى خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول : سيكون قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه فى كل ربيع . وظننته يقول مستحيلا ولكننى كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافا .

ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥٠م) فقيل لى بأن ذلك الرجل العظيم قد مات ؛ وكان له على حق الأستاذ فرأيت من واجبى أن أزور قبره وصحبت من يدلنى عليه فأخرجنى إلى مقبرة الحيرة ، وهناك رأيت على يسار الزائر فى سفح سور حديقة موضع دفنه ، ورأيت أشجار الكمثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار ؛ فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التى سمعتها منه فى بلخ ، وغشينى الحزن ، وغلبنى البكاء لأنى لم أكن أعرف له ندا بين الرجال ، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرما .

الفصل الخامس

عصر السعدى(*) ١١٥٠ – ١٢٩١

ولد بعد خمس سنين من وفاة عمر الخيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر ، وكان مولده فى المدينة المعروفة الآن بفيروزاباد بالقرب من تفليس . وكأن الأقدار قد شاءت أن تتخذ من إلياس أبى محمد الذى عرف بعدئذ باسم نظامى وسيلة لإظهار نزعة الخيام الأخلاقية فى أبشع صورها فجعلته يستمسك فى حياته بأسباب الصلاح الحق ، فيمتنع كل الامتناع عن شرب الخمر ، ويهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر . وقصته ليلى والمجنون (١١٨٨) أشهر القصص(**) الغرامية فى الشعر الفارسى . وخلاصتها أن قيس المجنون افتتن بليلى ، ولكن أباها أرغمها على أن تتزوج برجل غيره ، فأثرت تلك الخيبة فى قيس وأفقدته عقله ، فاعتزل المدينة إلى البادية ، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلى أمامه . ولما ترملت ليلى جاءت إليه ولكنها توفيت بعد قليل ، ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبرها كما قتل رميو نفسه عند قبر چولييت . وليس فى مقدور أية ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفارسى من قوة فى التعبير وجمال فى النغم .

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب ، ولكنهم يؤكدون لنا أشد التأكيد أن العاطفة التى يعبرون عنها ليست إلا رمزاً لحبة الله . وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف فى عالم الأدب باسم فريد الدين العطار بالقرب من نيسابور (١١١٩) ، ولقب بالعطار لأنه كان يبيع العطر . ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

(*) يعرف باسم سعدى الشيرازى . (المترجم)

(**) نظم المرحوم أحمد شوقى هذه الرواية شعراً .

غادر حانوته والتحق بخلوة للصوفية . وتشتمل كتبه الأربعون على مائتى ألف بيت من الشعر أشهرها كلها منطق الطير . وخلاصته أن ثلاثين طائراً (أى صوفيا) يعتزمون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمرغ (الحق) . ويجتازون ستة وديان : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والتجرد (عن جميع الشهوات) ، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة) ، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردى) . وتصل ثلاثة من الطيور الوادى السابع وادى الفناء (فناء النفس) ، ويطرقون باب الملك المختفى . ويعرض الحاجب على كل منهم سجل أعماله ، فيغلبهم الحياء ، ويستحيلون ترابا ؛ ولكنهم يبعثون من هذا التراب فى صورة ضياء ، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيراً) شىء واحد . ويفنون من هذا الوقت فى سيمرغ كما تفنى الظلال فى ضوء الشمس . ويعبر العطار فى كتبه الأخرى عن عقيدته فى وحدة الوجود تعبيراً أكثر من هذا صراحة : فيقول إن العقل لا يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه ، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله ، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة فى كل شىء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة ، وهو روح العالم وحياته . وليس فى مقدور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفنى وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة ، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحده الدين الحق ، وإفناء النفس فيه هو وحدة الخلود الصحيح[٤٥] . ويرفض أهل السنة هذا كله ويعلنونه بدعة وضلالا ؛ وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيت العطار وأحرقوه عن آخره ، ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله ، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش مائة عام وعشرة أعوام ، وإنه بارك بيده الطفل الذى نادى به فيما بعد معلماً له ، والذى فاقت شهرته شهرة معلمه .

كان جلال الدين الرومى (١٢٠١ — ١٢٧٣) من أهل بلخ ، ولكنه عاش معظم حياته فى قونية . وجاء إلى هذه المدينة صوفى عجيب هو شمس تبريزى

ليخطب فى أهلها ، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخذون قونية عاصمة لهم ، وأنشأ جلال الدين فى حياته القصيرة نسبياً بضع مئات من القصائد . وقد جُمعت القصار منها فى ديوانه ، وتمتاز بعمق الشعور ، والإخلاص وقوة الخيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة ، وبهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الدينى من عهد المزامير . وكتابه المثنوى المأنوى غرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق فى حجمها كل ما خلفه هوميروس ، وفيها فقرات بارعة الجمال ، ولكن الجمال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقى متعة إلى أبد الدهر . وموضوعه ، كموضوع كتاب معلمه ، هو وحدة الكون :

دقّ إنسان باب الحبيب ، فناداه صوت من الداخل :

مَن الطارق ؟ فأجابه « أنا » : فناداه الصوت : « إن هذه الدار لا تتسع لى ولك » ، وظل الباب مغلقاً . فسار المحب إلى الصحراء ، وداوم فى عزلته على الصوم والصلاة ، ثم عاد بعد عام ودقّ الباب مرة أخرى ، وسأله الصوت كما سأله من قبل : « مَن الطارق ؟ » فأجاب المحب : « إنه أنت نفسك » ، ففتح له الباب[٤٦] .

* * *

ونظرت حولى أبحث عنه ، فلم أجده على الصليب ، وذهبت إلى هيكل الأوثان ، وإلى المعبد القديم ، فلم أشاهد فيهما أثراً . . . ثم وجهت بحثى نحو الكعبة ، ولكننى لم أجده فى هذا المكان الذى يلجأ إليه الشبان والشيب ، وسألت ابن سينا عن مقامه ، ولكن ابن سينا لم يحط به . ثم تفقدت قلبى ، وفيه وجدته ، ولم يوجد فى مكان سواه[٤٧] .

إن كل صورة تراها لها أصل مثلها فى العالم اللامكانى ، فإذا انعدمت الصورة

فليس ذلك بذى خطر لأن أصلها باق مخلد . وما من شكل جميل رأيته ، او قول حكيم سمعته — فلا يحزنك أنه قد فنى لأنه فى واقع الأمر لم يفن ... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجرى منه . فاطرد الغم من قلبك ، وعب من هذا النهر ، ولا تظنن أن الماء سيفرغ فعينه لا ينضب .

ولقد وضع أمامك من ساعة مجيئك إلى عالم الخلق سلم لتفر عليه منه . ولقد كنت فى أول الأمر جمادا ، ثم استحلت بعدئذ نباتا ، ثم صرت حيواناً ، فكيف يخفى عليك هذا ؟ ثم جعلت بعدئذ إنساناً ذا علم ، وعقل ، ودين ... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن ، أصبحت بلا ريب ملاكاً .

وانتقل مرة أخرى من طبقة الملائكة ، وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح نقطتك بحراً . . . دع عنك هذا « الابن » وقل : « الواحد » على الدوام بكل قلبك[٤٨] .

ونذكر أخيراً السعدى ، ولا حاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقى أطول من هذا — فهو مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله . وكان أبوه يشغل منصباً فى بلاط سعد بن زنجى أتابك شيراز ، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام ، الذى جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه . ويختلف العلماء فى تاريخ مولده ووفاته ، فنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٨٣[٤٩] ، ومنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٩١[٥٠] ، ومنهم من يحددهما بعامى ١١٩٣ ، ١٢٩١[٥١] . ومهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام . ويقول هو نفسه إنه كان فى صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين . . . تقياً إلى أبعد حدود التقوى ، عفيفاً أشد العفة[٥٢] . وبعد أن أتم علومه فى المدرسة النظامية ببغداد (١٢٢٦) ، بدأ رحلته العجيبة التى قضى فيها ثلاثين عاماً طاف فيها بجميع بلاد الشرقين الأدنى والأوسط — الهند ، وبلاد الحبشة ، ومصر ، وشمالى إفريقية . وقاسى فيها كل أنواع الصعاب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان ، وقد قال عن نفسه

إنه كان يشكو الحفاء حتى التقى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه[٥٣] . وكشف وهو فى الهند عن جهاز فى صنم قيل عنه إنه يأتى بالمعجزات ، وقتل الدعى البرهمى المختفى فيه والذى كان هو إله ذلك الجهاز ، وهو يوصى فى شعره المتأخر المرح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين :

« فإذا اتفق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة ، فاقض من فورك على المحتال ، ولا تدعه يفلت منك ، بل عجل به ! لأنك إذا أبقيت على حياة هذا الوغد ، فلا تشك قط فى أنه لن يرحمك . . . ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجما بالحجارة ، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله ، لأن الموتى كما تعلم لا ينطقون[٥٤] » .

وحارب الصليبيين وأسره « الكفار » ، ثم افتدى ، فتزوج ابنة من افتداه ليعبر بذلك عن شكره لأبيها ، ولكنه تبين بعدئذ أنها سليطة لا تطاق ، وكتب عنها يقول « إن غدائر ذات الجمال قيد فى قدمى صاحب العقل »[٥٥]. ثم طلقها ولكنه التقى بغيرها من ذوات الغدائر ، وسلك نفسه فى سلسلة أخرى ؛ ولما ماتت زوجته الثانية ، آوى إلى صومعة فى حديقة بشيراز وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته .

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب ، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم ؛ ومن هذه الكتب البيرناما وهو كتاب فى الحكمة ، والبرنامه وهو مجموعة من القصائد القصار ، معظمهما باللغة الفارسية وبعضها بالعربية ؛ بعضها يفيض بالتقى ، وبعضها بالفحش ؛ ويشرح السعدى فى كتابه البستان فلسفته العامة بالشعر التعليمى الفلسفى ، تتخلله فى بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق .

لم أعرف فى حياتى أحلى من هذه اللحظات . وقلت لحبيبتى لما أن ضممتها إلى

صدرى فى تلك الليلة. ونظرت إلى عينيها يكاد يغلبهما النعاس : « أى حبيبتى يا غصن بان لقد آن أوان النوم . غنِّ يا بلبلى ! وافتحى فاك كما تتفتح الوردة . اطردى النوم ، يا ملهبة قلبى ، ولتقدم لى شفتاك رحيق حبك » . ونظرت إلىّ حبيبتى وهمست بصوت خافت : « أملهبة قلبك ؟ ومع هذا توقظنى من نومى ؟ » .

. . . وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك . . . وكنت أنت تبتسم لأنك تعرف أنها كاذبة ، ولكن ماذا يهمك من هذا ؟ فهل شفتاها من أجله أقلّ حرارة وهما تحت شفتيك ؟ وهل كتفاها أقل نعومة وأنت تداعبهما بيديك ؟ . . . يقولون إن نسيم الربيع حلو جميل شبيه بشذى الورد وتغريد العندليب ، والمرج الأخضر ، والسماء الزرقاء . ويحك يا جاهل ! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيبتك[٥٦] .

والجلستان وحديقة الورد (١٢٥٨) مجموعة من القصص التعليمية تتخللها قصائد من الشعر المطرب الجميل :

سأل ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين : « أى شىء أفضل من الصلاة ؟ فأجابه الولى بقوله : « أفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار . فلا تؤذى أحداً من خلق الله حتى ذلك الوقت »[٥٧] .

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد ؛ ولكن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها[٥٨] .

إذا كنت تسعى إلى الغنى فلا تطلب القناعة[٥٩] .

إن رجل الدين الذى يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالجدول الضحل[٦٠] .

لم يعترف قط إنسان بجهله إلا من كان فى مجلس وأخذ غيره يتحدث ، وقبل أن يتم حديثه يبدأ هو بالسؤال[٦١] .

لو كان فيك فضيلة واحدة وسبعون رذيلة لما رأى من يحبك غير فضيلتك الوحيدة[٦٢] .

لا تعجل . . . وتعلّم الأناة . فإن الجواد العربى يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه ؛ أما الجمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنهار حتى يصل إلى آخر سفره(٦٣) .

حصّل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما . . . فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم على فقده لأن علمه فى حد ذاته معين للثراء لا ينضب(٦٤)

إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب(٦٥)

لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول « أنا جاهل »(*)(٦٦)

إن خفة البندقة لدليل على أنها فارغة(٦٧) .

وكان السعدى فيلسوفاً ، ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب فى وضوح ؛ وكانت فلسفته أصح وأسلم من فلسفة عمر الخيام ؛ فهى تفهم ما فى الإيمان من سلوى ، وتعرف كيف تداوى جراح المعرفة بما فى الحياة الحنونة من نعمة . ولقد قاسى السعدى كل ما فى ملهاة الحياة البشرية من مآس ، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام . ولقد كان السعدى شاعراً كما كان فيلسوفاً : كان مرهف الحس بكل أنواع الجمال الظاهر والمكنون ، الحسى منه والمعنوى ، من جسم المرأة الجميلة إلى النجم الذى يستأثر لحظة بالسماء وقت المساء ؛ وكان فى وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز ، ورقة ، وظرف . ولم يكن يعجز فى أية لحظة عن الإتيان بتشبيه نير جميل ، أو عبارة بليغة فاتنة . ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجوز(٦٨) « إنى كنت وصديقى كحبتين فى قشرة لوزة »(٦٩) ، « لو أن قرص الشمس كان فى جُبَّة » هذا التاجر البخيل « لما رأى إنسان

(*) قارن هذا بالسطور الأولى من كتاب ديكارت المسمى « أحاديث عن الطريقة Discourses on Method » حيث يقول : « إن الإدراك السليم هو أكثر الأشياء كلها توزيعاً بالقسطاس المستقيم بين الناس ، ذلك بأنه ما من أحد إلا يظن نفسه ذا حظ موفور منه ، وحتى الذين يصعب علينا أن نرضيهم بحظهم فى غيره من الأمور لا يرغبون عادة فى أكثر مما لديهم منه » .

ضوء النهار إلى يوم القيامة »[٧٠] . وقد ظل السعدى شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ما كان ينطق به من حكمة .. وكان يسلم حكمته راضياً مغتبطاً إلى عبودية الحب :

لقد قدّر علىّ ألا أضم حبيبتى إلى صدرى

وألا أنسى بعدى الطويل فى قبلة أطبعها على شفتيها الحلوتين

وسأختلس منها ذلك الشراك الذى تقتنص به ضحاياها فى طول البلاد وعرضها حتى أستطيع أن أغريها بالمجىء إلى جانبى

ولكننى لن أجسر على أن أمس شعرها بيد مسرفة فى الجرأة

فكم فى هذا الشعر من قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور فى الأقفاص

أنا عبد لهذا القد المياس الذى يبدو فى نظرى كأنما قد فصلت عليه الرشاقة تفصيلا كما يفصل الخياط الثوب

يا شجرة السرو يا أطرافا من اللجين ، إن لونك ورائحتك قد فاقا رائحة الآس ونضرة الورد البرى

احكمى بناظريك وضعى قدمك فوق كل حر ونبيل

وامشى فوق الياسمين والأزهار

ولا تعجبى إذا أيقظت فى زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكى بينما الأزهار الصغيرة تبتسم ، وكل هذا يا حبيبتى من أجلك

وإذا ما وطئت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين ، فلا عجب إذا سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه

لم يبق مكان للحيرة فى بلدتنا هذا أيام حكم مولانا المليك

سوى أننى جننت بحبك وجن الناس بفنائى فى حبك[٧١] »

الفصل السادس

علوم المسلمين

١٠٥٧ — ١٢٥٨

قسم العلماء المسلمون الشعوب فى العصور الوسطى طبقتين — طبقة الذين يعلمون وطبقة الذين لا يعلمون ؛ ووضعوا فى الطبقة الأولى الهنود ، والفرس ، والبابليين ، واليهود ، واليونان ، والمصريين ، والعرب ، أولئك فى اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله فى العالم ؛ أما الطبقة الثانية — وخير من تشملهم الصينيون والأتراك — ، فهى أشبه بالحيوان منها بالإنسان(٧٢) . وأكبر خطأ فى هذا التقسيم هو وضع الصينيين فى الطبقة الثانية .

وحافظ المسلمون فى العصر الذى نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع فى العلوم ، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم فى علم الرياضة فى مراكش وأذربيجان ، ففيهما نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقى عظيم : ففى مدينة مراكش نشر حسن المراكشى فى عام ١٢٢٩ جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ، وجداول بجيوب التمام ، وجيوب الأقواس ، ومماسات الأقواس والأقواس المماسة . وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسى أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلا بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة . وقد بقى كتابه المسمى شكل القطاع لا ينافسه منافس فى هذا الميدان حتى نشر رجيومنتانس Regiomontanus كتابه المثلثات De Triangulis بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذى ظهر عند الصينيين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عربى النشأة(٧٣) .

وأشهر ما ظهر من الكتب فى العلوم الطبيعية فى ذلك العهد هو كتاب ميزان الحكمة الذى ألفه فى عام ١١٢٢ مولى يونانى من آسية الصغرى يدعى أبا الفتح . وفى هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة ، وقوانين الروافع ، وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الصلبة ، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شىء نحو مركز الأرض[٧٤] . وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقى التى كانت معروفة عند اليونان والرومان ، وشاهد الصليبيون هذه السواقى ترفع الماء من نهر العاصى فأدخلوها فى ألمانيا[٧٥] . وعلا شأن الكيميائيين ، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلثمائة طريقة لتضليل الناس[٧٦] ؛ ويقال إن أحد هؤلاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ينفقه فى البحوث العلمية ثم اختفى عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ثبتاً بأسماء المغفلين وعلى رأسهم نور الدين نفسه ، ووعد أن يضع اسم الكيميائى إذا رجع مكان اسم نور الدين ، ويبدو أن هذا المؤلف الظريف لم يمسسه أذى[٧٧] .

وفى عام ١٠٨١ صنع إبراهيم السهلى أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة فى التاريخ . وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها ٢٠٩ ملليمتر (٥ر٨١ بوصة) ؛ وحفر على سطحها ١٠١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها[٧٨] . وكانت خرلدة أشبيلة منارة ومرصداً فى وقت واحد ، وفيها قام جابر بأرصاده التى نشرها فى كتابه إصلاح المجسطى (١٢٤٠) . كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية فى مؤلفات أبى إسحق البطروجى القرطبى (المعروف عند علماء الغرب باسم البتراجيوس Alpetragius) والذى مهد السبيل لكوبرنيق بنقده الهدام لنظرية أفلاك التدوير والدوائر المختلفة المراكز وهى التى حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها .

وأنجب هذا العصر عالمين فى تقويم البلدان طبقت شهرتهما العالم كله فى العصور الوسطى ، ونعنى بهما الإدريسى وياقوت . فأما أبو عبد الله محمد الإدريسى فقد ولد فى سبتة عام ١١٠٠ وتلقى العلم فى قرطبة ، وكتب فى بلرم إجابة لطلب روجر الثانى ملك صقلية ، كتابه المسمى **كتاب روجارى**. وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ورسم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية ، وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط فى العصور الوسطى ، ولم ترسم قبلها خرائط أتم منها ، أو أدق ، أو أوسع وأعظم تفصيلا . وكان الإدريسى يجزم كما تجزم الكثرة الغالبة من العلماء المسلمين بكرية الأرض ، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها . ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية فى العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (١١٧٩ — ١٢٢٩) . وكان ياقوت بمولده يونانياً من سكان آسية الصغرى ، وأسر فى الحرب وبيع فى سوق الرقيق ، ولكن التاجر البغدادى الذى ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه ، ثم أعتقه . وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أولا للتجارة ، ثم سافر لدراسة الأرض وأهلها ، لأنه أعجب أشد الإعجاب ببلادها ، وسكانها المختلفى الأجناس ، وبلباسهم وأساليب حياتهم . وقد سره وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة فى مرو تحتوى إحداها على ١٢٫٠٠٠ مجلد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها مائتى كتاب إلى حجرته دفعة واحدة . وما من شك فى أن الذين يحبون الكتب ويرون أنها دم الحياة يجرى فى عروق عظماء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل . ثم انتقل ياقوت بعدئذ إلى خيوة وبلخ ، وهناك أوشك المغول أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب الفتاك ؛ ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب ، وهو محتفظ بمخطوطاته ، واجتاز بلاد الفرس إلى الموصل . وأتم وهو يعانى آلام الفاقة وشظف العيش أثناء عمله فى نسخ الكتب كتابه الشهير **معجم البلدان** (١٢٢٨)

— وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة فى العصور الوسطى . ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله فى هذه الموسوعة — من فلك ، وطبيعة ، وعلوم الآثار ، والجغرافية البشرية ، والتاريخ ، هذا إلى ما أثبته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض ، وأهميتها وحياة مشهورى أهلها وأعمالهم ، ولسنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم .

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدى المسلمين فى ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاوفراسطوس ، فقد وضع الإدريسى كتابا فى النباتات وصف فيه ثلثمائة وستين نوعا مختلفا منها ، ولم يقصر اهتمامه بها على الناحية الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية . وذاعت شهرة أبى العباس الإشبيلى (١٢١٦) لدراسته حياة أنواع النبات المختلفة التى تنمو بين المحيط الأطلنطى والبحر الأحمر . وجمع أبو محمد بن البيطار المالقى (١١٩٠—١٢٤٨) كل ما عرفه المسلمون فى علم النبات فى موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت هى المرجع المعترف به فى هذا العلم حتى القرن السادس عشر ، ورفعته إلى مقام أعظم علماء النبات والصيادلة فى العصور الوسطى[٧٩] . ومن أهم ما ظهر من الكتب فى العلوم الزراعية كتاب الفلاحة الذى وصف فيه مؤلفه ابن الأوان الإشبيلى أنواع التربة والسماد ، وطريقة زرع ٥٨٥ نوعا من أنواع النبات ، وخمسين نوعا من أشجار الفاكهة ، وشرح طرق التطعيم ، وبحث أعراض أمراض النبات وطرق علاجها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث فى علم الفلاحة فى العصور الوسطى جميعها[٨٠] .

وأنجب المسلمون فى هذا العصر ، كما أنجبوا فى غيره من العصور أعظم الأطباء فى آسية ، وإفريقية ، وأوربا . وكان أهم ما نبغوا فيه علم الرمد ، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار فى بلاد الشرق الأدنى ، ففى هذه البلاد كان الناس يبذلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها . وكان أطباء العيون يجرون

كثيراً من العمليات لإزالة إظلام العدسة (سادّة العين أو الكترّكتا) . وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبي المحاسن الحلبي (١٢٥٦) بحذقه فى هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور[٨١] . ووضع ابن البيطار فى كتاب الجامع تاريخ الطب النباتى . فقد وصف فى هذا الكتاب ألفا وأربعمائة من أنواع النبات والأغذية ، والعقاقير ، ثلثمائة منها لم تكن معروفة من قبل ، وحلل تركيبها الكيميائى ، وخصائصها العلاجية ، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها فى علاج الأمراض . ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (١٠٩١ — ١١٦٢) الأشبيلى المعروف فى عالم الطب الغربى باسم أفنزور Avenzoar . وكان أبو مروان الثالث من ستة أجيال من أطباء ذائعى الصيت متصلى النسب ، كل منهم يحمل لواء الطب فى أيامه . وقد ألف كتابه المسمى كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رشد (أعظم فلاسفة زمانه) الذى كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس . وكان أهم ما برع فيه ابن زهر هو الوصف الإكلينيكى ، وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزومية ، والتهاب التامور ، ودرن الأمعاء ، والشلل البلعومى[٨٢] . وكان للترجمتين العبرية واللاتينية لكتاب التيسير أعظم الأثر فى الطب الأوربى .

كذلك تزعم الإسلام العالم كله فى إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها . مثال ذلك أن البيمارستان الذى أنشأه نور الدين فى دمشق عام ١١٦٠ ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن ؛ ويقول المؤرخون إن نيرانه ظلت مشتعلة لا تنطفئ ٢٦٧ سنة[٨٣] . ولما وفد ابن جبير إلى بغداد فى عام ١١٨٤ دهش أيما دهشة من بيمارستانها العظيم الذى كان يعلو كما تعلو القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة ، والذى كان يطعم المرضى ويمدهم

بالدواء من غير ثمن(٨٤)(*) . وفى القاهرة بدأ السلطان قلاون فى عام ١٢٨٥ تشييد بيمارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق ، فقد أقام فى داخل فضاء واسع مسور مربع مبانى أربعة يتوسطها فناء يزدان بالبواكي ، وتلطف حرارته الفساق والجداول . وكان يحتوى على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين ؛ ومعامل للتحليل ، وصيدلية ، وعيادات خارجية ، ومطابخ ، وحمامات ، ومكتبة ومسجد للصلاة ، وقاعة للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ، زودت بمناظر تسر العين . وكان المرضى يعالجون فيه من غير أجر رجالا كانوا أو نساء ، أغنياء أو فقراء ، أرقاء ، أو أحراراً ؛ وكان كل مريض يعطى عند خروجه منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لكسب قوته بعد خروجه منه مباشرة . وكان الذين ينتابهم الأرق يستمعون إلى موسيقى هادئة ، وقصاصين محترفين ، ويعطون فى بعض الأحيان كتباً تاريخية للقراءة(٨٥) . وكان فى جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين بالأمراض العقلية .

(*) يقول ابن جبير فى وصف هذا البيمارستان : « وهو على دجلة ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ؛ وبين أيديهم قوم يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ؛ وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » . (المترجم)

الفصل السابع

الغزالى والنهضة الدينية

وبينما كانت العلوم تسير قدماً فى طريق الرقى كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعلمة وإبقائها إلى جانبه ؛ وأدى النزاع الذى قام بين الدين والعلم إلى تشكك الكثيرين فى عقائد الدين ، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر . وقد قسم الغزالى المفكرين المسلمين ثلاث طوائف: كلها فى نظره كافرة وهى المؤلهة ، والربوبية (أو الطبيعية) ، والمادية . فأما المؤلهة فتؤمن بالله ، وبخلود الروح ولكنها تنكر الخلق وبعث الأجسام ، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير ؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها ؛ وأما المادية فترفض فكرة وجود الله إطلاقاً(*) . وقامت حركة أخرى على شىء من النظام هى حركة الدهرية ، وهؤلاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشىء ؛ وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة . ومن متبعى هذا المذهب إصبهان بن قرة الذى قال فى يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، فالإنسان كالحبة ينبت وينمو ثم يحصد لكى يفنى إلى أبد الدهر . . . ثم نصحه بأن يأكل ويشرب(٨٦) .

وكان رد الفعل الذى نتج من هذه الحركة المتشككة هو ظهور أبى حامد الغزالى أعظم علماء الدين المسلمين ، الذى جمع بين الفلسفة والدين ، فكان بذلك عند المسلمين ، كما كان أوغسطين وكانت عند الأوربيين . وولد أبو حامد الغزالى فى طوس عام ١٠٥٨ ، ومات أبوه فى صغره فكفله صديق له متصوف . ودرس الغلام الشريعة ، وعلوم الدين ، والفلسفة . ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

(*) لخص المؤلف هذا من المقدمة الثانية من كتاب تهافت الفلاسفة . (المترجم)

فى المدرسة النظامية الكبرى ببغداد ، وسرعان ما أعجب العالم الإسلامى بفصاحته ، وغزارة علمه ، وبراعته فى الجدل . وبعد أن قضى فى هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الآفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم ؛ وكان شلل لسانه يشوه منطقه فى بعض الأحيان ، ثم بدأت قواه العقلية تنهار . وشخص طبيب ماهر مرضه بأنه فى الأصل مرض عقلى . ولقد أقر الغزالى فى ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامى ، وأنه لم يكن يطيق ما فى دروسه الدينية من نفاق . وغادر الرجل بغداد فى عام ١٠٩٤ يريد الحج إلى بيت الله فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة كان يريد اعتزال الناس ، وينشد الوحدة والصمت ، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل. ولما عجز عن أن يجد فى العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعى ، انقلب من التفكير فى العالم الخارجى إلى تأمل العالم الداخلى ؛ معتقداً أنه سيجد فى هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهى القاعدة الثابتة الأكيدة للإيمان بعالم الروح . وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات — وهو عماد النزعة المادية وأساسها ؛ وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً من الأرض ، وإلا لتعذرت رؤيتها من بعدها الشاسع ؛ واستخلص من هذا المثال ومن مئات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثوقاً به موصلا إلى الحقيقة . وأما العقل فهو فى رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إلينا عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى ، ولكنه هو الآخر يعتمد فى النهاية على الحواس نفسها . فهل عند الإنسان نوع من المعرفة ، يهديه إلى الحقيقة ، أصدق من العقل وأوكد ؟ وأحس الغزالى بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة فى تأمل الصوفية الباطنى : فالصوفى يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف ؛ وأرقى أنواع المعرفة هو التأمل فى معجزة العقل حتى يظهر

الله للمتامل من داخل نفسه ، وحتى تختفى النفس ذاتها فى رؤية الواحد(٨٧) .

وبهذه النزعة وهذا المزاج كتب الغزالى أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعنى به كتاب تهافت الفلاسفة واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل ، فاستخدم الصوفى المسلم الجدل الفلسفى الذى لايقل دقة عن جدل كانت Kant ليثبت أن العقل يؤدى بالإنسان إلى التشكك فى كل شيء ، وإلى الإفلاس الذهنى ، والانحطاط الخلقى ، والتدهور الاجتماعى . وأنزل الغزالى العقل — قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون — إلى مبدأ العلية ، وأنزل مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع ا على الدوام ولا ندرك أن ا هى علة ب . ومن أقواله أن الفلسفة ، والمنطق ، والعلوم لاتستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام المباشر هو وحده الذى يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لاقيام بغيرهما لأى نظام أخلاقى ، وهو النظام الذى لاقيام لأية حضارة إلا به(٨٨) .

وعاد الغزالى فى آخر الامر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية السليمة جميعها ، وعاد إليه كل ماكان يساوره فى شبابه من مخاوف وآمال ، وجهر بأنه يحس بعينى إله قوى قاهر قريبتين من رأسه تتوعدانه وتنذرانه ، وأخذ ينذر الناس من جديد بأهوال الجحيم ويؤكد أن دعوته هذه لا غنى عنها لتقويم أخلاق العامة(٨٩) ، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء به القرآن والحديث ، وقد شرح فى كتابه إحياء علوم الدين هذه العودة إلى عقائده الأولى ، ودافع عنها بكل ما كان له فى شبابه من قوة وحماسة أصبح بهما أقوى عدو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله عدواً أشد منه عنفاً . ولما توفى فى عام ١١١١ كانت موجة الإلحاد قد ردت على أعقابها ، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين ، بل إن رجال الدين المسيحيين أنفسهم قد أثلج صدورهم ما وجدوه فى كتبه ، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، من دفاع حار عن

الدين ، وعرض بليغ لقواعد التقى والصلاح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين . واختفت الفلسفة منذ أيامه ، بالرغم من ظهور ابن رشد ، فى أقصى أركان العالم الإسلامى ، وضعفت البحوث العلمية ، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم موضع اهتمام العقول الإسلامية وشغلها الشاغل(*) .

وكان اعتناق الغزالى لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية ، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين . نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا فى عالم الدين والشريعة ، ولكن ميدان التفكير الدينى استسلم لمشايخ الطرق وأولياء الله الصالحين . ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيس فى المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك فى العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد أخذ الزهاد المتصوفة يهجرون الحياة العائلية ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش ، وثانيهما لفظ فارسى معناه السائل . وكان هؤلاء يسعون بطرق مختلفة إلى التسامى بأرواحهم ليرتفعوا بها إلى الفناء فى روح الله فيستطيعوا بذلك الإتيان بعجائب الأعمال : فمنهم من كانت وسيلته إلى هذا التسامى هى الصلاة والتأمل ، ومنهم من كانت سبيله إليها النشوة التى تعقب الأذكار العنيفة .

وقد صيغت نظريات الصوفية فى المائة والخمسين من الكتب التى ألفها محيى الدين بن العربى (١١٦٥ — ١٢٤٠) — وهو مسلم أندلسى أقام فى دمشق . ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الخارجى لما هو فى حقيقته الداخلية الله نفسه ، والجحيم مقام موقت ، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر ، والحب يخطئ إذا كان هو حب المظهر الجسمى الزائل ، لأن الله هو الذى يظهر فى صورة

(*) لا شك فى أن هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

المحبوب ، والمحب الصادق يجد فى أية صورة جميلة باعث الجمال كله ويعشقه . ولعل محيي الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام جيروم فأخذ يعلم الناس أن « من أحب وعف ثم مات مات شهيداً » ، ووصل إلى أسمى درجات الصلاح والورع . وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم يحبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم[٩٠] .

وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من العطايا ، ورضيت أن تستمتع بطيبات الحياة . وقد شكا من ذلك أحد شيوخ الشام حوالى عام ١٢٥٠ فقال إن الصوفية كانوا من قبل إخوة مختلفين فى الجسم ولكنهم متحدون فى الروح ، أما الآن فهم طائفة تكتسى أجسامها بالثياب الحسنة ولكن سرائرها ممزقة خلقة . وكان الناس يبتسمون لهؤلاء الذين جمعوا بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم ، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء المخلصين الصادقين ، ويعزون إليهم قوى وأفعالا غير عادية ، ويحتفلون بموالدهم ، ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، ويزورون قبورهم . ذلك أن الإسلام كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر لهما أن يعودا إلى هذا العالم[*] .

ولما انتصر أهل السنة على هذا النحو ضعفت روح التسامح الدينى ، وعادت إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التى يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب . فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيابهم بخطوط صفراء ، وحرم عليهم أن يركبوا الخيل ، وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال ، ولم يسمح لهم بإنشاء كنائس أو معابد

(*) ليست العقائد الدينية الأساسية هى التى تتطور وتتبدل على مر الأيام بل الذى يتطور هو ما لا يمس صميم الدين كالتشريع وأمثاله . وهناك أفعال ليست من الدين فى شىء وبعضها يخالف له وإن أتاها بعض المسلمين ومنها الحج إلى مقابر الأولياء والتبرك بهم والتشفع بهم عند الله وهو ما لا يقره الدين . (المترجم)

جديدة وإن أجيز لهم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يُظهروا الصليب فى خارج الكنائس ، أو يدقوا نواقيسها ؛ ولم يكن أبناء غير المسلمين يقبلون فى المدارس الإسلامية ، ولكن كان فى وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة بهم . كان هذا كله هو ما يجب اتباعه من الوجهة النظرية ، ولكنه لم يكن ينفذ على الدوام . ولا تزال هذه هى النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية وإن لم تكن هى المعمول بها على الدوام[٩٢](*) . ومع هذا فقد كان فى بغداد وحدها فى القرن العاشر ٤٥٫٠٠٠ مسيحى[٩٣] ، وكانت جنائز المسيحيين تسير فى الشوارع دون أن يتعرض لها أحد[٩٤] ؛ وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحيين واليهود فى المناصب العليا ؛ ولقد كان صلاح الدين ، فى سورة الحروب الصليبية وحدتها وما أوجدته فى النفوس من أحقاد ، كريماً رحيماً بمن فى دولته من المسيحيين .

---

(١) لا ندرى من أين جاء الكاتب بقوله إن هذه هى النصوص الحرفية الشريعة الإسلامية ، فلسنا نعلم أن الشريعة تنص على هذا ؛ ولعل بعض هذه القيود قد وضعت على غير المسلمين فى بعض العهود ، وضعها بعض الملوك أو الأمراء ، ولكنها لم تكن قاعدة متبعة ولبست من الدين فى شىء . وحسبنا ما قاله المؤلف نفسه بعد هذا دليلا على تسامح المسلمين فى أقرب العهود إلى نشأة الإسلام . (المترجم)

الفصل الثامن

ابن رشــد

عاشت الفلسفة وقتاً ما فى أسبانيا الإسلامية بما كانت تبثه بحكمة وحذر من الآراء التى تتفق مع الدين بين محاولات النقد الهين غير العنيف ؛ وقد وجد الفكر شيئاً من الحرية المزعزعة فى بلاط الأمراء الذين كانوا يستمتعون سراً بالبحوث التى يرونها ضارة بعامة الشعب. ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذى ولد فى تلك المدينة حوالى عام ١١٠٦ ليكون وزيراً له. وكان ابن باجة ، أو أفمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد ، قد بلغ ، وهو لا يزال فى شبابه ، مرتبة عليا غير عادية فى العلوم الطبيعية ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى ، والشعر ؛ ويقول ابن خلدون إن الأمير أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب ؛ وخشى ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود الذهبية فى كلا حذاءيه . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى المسيحيين ، فر الوزير — العالم — الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معدماً بين مسلمين يتهمونه بالكفر ، ومات ابن باجة فى سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات . وتعد رسالته فى الموسيقى التى لم نقف لها على أثر خير ما كتب فى هذا الموضوع الدقيق فى الآداب الإسلامية فى الغرب . وأشهر مؤلفاته كلها كتاب مرشد الحيران الذى جدد فيه البحث فى أحد الموضوعات الأساسية فى الفلسفة الإسلامية . فقد قال ابن باجة إن العقل البشرى يتكون من جزأين : العقل المادى الذى يتصل بالجسم ويموت بموته ؛ والعقل الفعال أو العقل الكونى غير البشرى الذى يوجد فى الناس كلهم ، وهو وحده الذى

لا يموت بموتهم . والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان ، وبالتفكير وحده ، لا بالنشوة الصوفية ، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله . ولكن التفكير مغامرة خطيرة ، إلا إذا كانت فى صمت . والرجل العاقل يعيش فى عزلة هادئة ، بعيداً عن الأطباء ، ورجال القانون ، والناس أجمعين ؛ أو لعل عدداً قليلا من الفلاسفة يؤلفون فيما بينهم جماعة تسعى مجتمعة لطلب المعرفة فى رفق وتسامح بعيدة عن صخب الشعب وجنونه[٩٥] .

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو باسر Abubacer عند الأوربيين) (١١٠٧ ؟ — ١١٨٥) أفكار ابن باجة ، وكاد يحقق مثله العليا . وكان هو الآخر عالما ، وشاعراً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ؛ وكان وزيراً وطبيباً للخليفة أبى يعقوب يوسف فى مدينة مراكش عاصمة الموحدين . وقد استطاع أن يقضى معظم ساعات يقظته فى المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشئون الحكم متسعاً من الوقت كتب فيه ، من بين الكتب الفنية العميقة ، أعظم قصة فلسفية فى أدب العصور الوسطى . وقد أخذ ابن طفيل عنوان قصته من ابن سينا ولعلها هى التى أوحت إلى دفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو Robinson Crusse (بعد أن ترجمها أكلى Ockley إلى الإنجليزية فى عام ١٧٠٨) .

وخلاصة القصة أن حى بن يقظان ، الذى سميت القصة باسمه ألتى وهو طفل فى جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عنزة ؛ وشب الفتى متوقد الذكاء عظيم المهارة ، فكان يصنع حذاءيه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرّح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل فى هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم الأحياء[٩٦] . ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ، وأثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شىء ، ثم عاش معيشة الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللحم ، واستطاع أن يتصل اتصالا روحيا

بالعقل الفعال[٩٧] . وأصبح حي بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس . وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال استطاع في سعيه إلى الوحدة أن يلتقي بنفسه على الجزيرة ، فالتقى بحي ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بني الإنسان . وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر لحي بما في عقائد الناس الدينية في الأرض التي جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة ، وما أنذروا به من عقاب النار . واعتزم حي أن يغادر جزيرته ليهدي ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة . فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم في السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعي إلا إذا مزج الدين بالأساطير ، والمعجزات ، والمراسيم ، والعقاب والثواب الإلهيين . ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديعة والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات .

وقدم ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف حوالي عام ١١٥٣ شاباً قاضياً وطبيباً يعرفه المسلمون باسم أبي الوليد محمد بن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) ويعرفه الأوربيون في العصور الوسطى باسم أفروس (Averroës) ، أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً في العقول . ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود في بني الإنسان . وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة في قرطبة ، وقد هيأ له من التعليم كل ما تستطيع أن تهيئه له هذه العاصمة القديمة . ونقل إلينا أحد تلاميذه هـــذه الفقرة التي يقولون إنها هي التي وصف بها ابن رشد نفسه أول لقاء له بالأمير فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلا ابن طفيل ، وأخذ ابن

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح . . . وبدأ الأمير حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه فى السموات ، هل هى أزلية أو أن لها بداية ؟ فارتاع الفيلسوف المذلك واضطرب ، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة . وأدرك الأمير ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه فى الموضوع ، ويعيد على مسامعه آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض ؛ لا يرجع فى شىء من هذا إلا إلى ذاكرته مما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته . وطمأن الأمير الفيلسوف وامتحن علمه ، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشىء من المال ، وبجواد ، وحلة غالية الثمن[٩٨] .
وعين ابن رشد فى عام ١١٦٩ قاضيا للقضاة فى إشبيلية وفى عام ١١٧٢ قاضياً للقضاة فى قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنين من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور . وفى عام ١١٩٤ نفى ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آرائه . ثم عفى عنه وعاد إلى مراكش فى عام ١١٩٨ ولكن المنية عاجلته فى العام التالى ، ولا يزال قبره حتى الآن قائماً فى تلك المدينة .

وكاد كتابه فى الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة فى الفلسفة ؛ ولكنه كان فى الحقيقة من أعظم أطباء زمانه ، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال إن من يمرض بالجدرى يكتسب الحصانة من هذا الداء[٩٩] . وكانت موسوعته الطبية المسماة كتاب الكليات فى الطب بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار فى الجامعات المسيحية . وأبدى الأمير أبو يعقوب فى ذلك الوقت رغبته فى أن يكتب له أحد العلماء شرحاً واضحاً لآراء أرسطو ، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد . ورحب الفيلسوف بهذا الاقتراح ، لأنه كان يرى أن الفلسفة كلها قد اجتمعت فى آراء الفيلسوف اليونانى ، وأن كل ما تحتاجه

لكى تصبح موائمة لكل زمان هو أن تشرح وتفسر[*] . واعتزم ابن رشد أن يعد لكل كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة فى أول الأمر ، ثم شرحا لها موجزاً أيضاً ، ثم شرحا مطولا للطلبة المتقدمين فى الدرس — وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة فى الصعوبة مألوفة فى الجامعات الإسلامية . ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية ، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعتماد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو ؛ ولكن صبره ، وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته فى أوربا كلها وأكسبته اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه فى المنزلة إلا ابن سينا العظيم .

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو فى المنطق ، والطبيعة ، وعلم النفس ، وما بعد الطبيعة ، والفقه ، والشريعة ، والفلك ، والنحو ، ورداً على تهافت الفلاسفة للغزالى سماه تهافت التهافت . وهو يقول كما قال فرانسس بيكن من بعده إن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان إلى المروق من الدين ، ولكن الدرس الواسع يؤدى إلى الائتلاف بين الفلسفة والدين . ذلك أن الفيلسوف ، وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن ، والتوراة ، وغيرهما من الكتب المنزلة[١٠٠] بمعناها الحرفى ، يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة والأخلاق السليمة فى عقول الناس ؛ الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفى لغير التفكير العارض ، السطحى ، الخطر فى مبادئ الأشياء وأواخرها . ومن ثم فإن الفيلسوف الناجح لا ينطق بلفظ أو يشجع لفظا يعارض الدين[١٠١] ؛ ومن حق الفيلسوف فى مقابل هذا أن يترك حرا يسعى وراء الحقيقة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحصر مناقشاته فى دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعمد

(*) وأبدى سنتيانا Santayana فى كتابه حياة العقل The Life of Reason هذا الرأى نفسه .

إلى الدعاوة لآرائه بين العامة[١٠٢] . وهو يرى أن العقائد الدينية إذا فسرت تفسيراً رمزياً تتفق مع ما يكشف عنه العلم والفلسفة[١٠٣] . ولقد ظل هذا التفسير الرمزى للنصوص المقدسة المبنى على الاستعارة والتشبيه سنة متبعة حتى عند رجال الدين أنفسهم مئات السنين . وابن رشد لا يقول صراحة بالنظرية التى يعزوها إليه النقاد المسيحيون وهى أن قضية من القضايا قد تكون صادقة فى الفلسفة (بين المتعلمين) ، ولكنها قد تكون خاطئة (مضرة) فى الدين (والأخلاق)[١٠٤] ؛ وإن كانت تعاليمه تتضمن هذا المعنى . ومن أجل هذا وجب ألا يبحث عن آراء ابن رشد فى رسائله الصغرى التى وضعها لجمهور الطلاب ، بل فى شروحه لأرسطو التى هى أكثر عمقاً وأصعب فهماً من الرسائل السالفة الذكر .

وهو يفسر الفلسفة بأنها البحث فى معنى الوجود بقصد إصلاح شأن الإنسان[١٠٥] ويقول إن العالم أزلى ، وإن حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية ؛ وإن القول بالخلق خرافة ، فالقائلون بالخلق يدعون أن الله ينشىء كائناً (جديداً) من غير أن يحتاج فى إنشائه إلى مادة موجودة من قبل . . . وهذا التصور هو الذى جعل علماء الأديان الثلاثة القائمة فى هذه الأيام يقولون إن الشىء قد ينشأ من لا شىء[١٠٦] . . . والحركة أزلية ودائمة ؛ وكل حركة تنشأ من حركة أخرى قبلها . وبغير الحركة لا يكون زمن وليس فى وسعنا أن نتصور حركة ذات بداية أو نهاية[١٠٧] .

ولكنه مع هذا يقول إن الله هو خالق العالم ، ويعنى بهذا القول أن العالم موجود فى أى وقت من الأوقات بقوة الله الحافظة ، وإنه يمر فى كل لحظة بعملية خلق مستمرة بقدرة الله الفعالة[١٠٨] ؛ فالله هو نظام الكون ، وقوته وعقله .

ومن هذا النظام الأعلى والعقل الكلى يكون نظام الأفلاك والنجوم وعقلها المحرك . ومن عقل أدنى الأفلاك السماوية (فلك القمر) يأتى العقل الفعال الذى يدخل فى جسم الإنسان المفرد وعقله . والعقل الإنسانى مكون من عنصرين

أحدهما العقل القابل أو المادى وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية ، وهذا العقل جزء من الجسم يفنى بفنائه (الجهاز العصبى ؟) ، والثانى هو العقل الفعال ، المستمد من الله . وهو الذى يبعث العقل القابل على التفكير الفعلى . وهذا العقل الفعال لا يختلف فى فرد عنه فى آخر ؛ بل هو سواء فى الناس كلهم ، وهو وحده الخالد الذى لا يفنى[١٠٩] .
ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال فى الفرد أو فى العقل القابل بتأثير الشمس التى يجعل ضوؤها كثيراً من الأجسام نيرة ، ولكنه يبقى فى كل مكان ، ويظل على الدوام كما كان[١١٠] . ويسعى العقل الفردى للاتحاد مع العقل الفعال ، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق . وبهذا الاتصال يصبح العقل البشرى شبيهاً بالله ، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة فى فكره ؛ والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا ، وليس له معنى ، إلا عن طريق العقل الذى يدركه[١١١] . وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذى يؤدى بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذى يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفسانى على الزهد أو بالنشوة التى تحدث بالأذكار . وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخفية ، ويرى أن الجنة ليست إلا ما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفوس[١١٢] .

وهذه هى النتيجة التى وصل إليها أرسطو نفسه ، ولا حاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nouspathetikos ncus poietikos) مرجعها كتاب النفس لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة) ، كما فسرها الإسكندر الأفروديسى ، وثامسطيوس الإسكندرى ، وهى التى استحالت إلى نظرية الفيض emanation التى تقول بها الأفلاطونية الحديثة والتى انتقلت إلينا عن طريق الفارابى وابن سينا وابن باجة ، وأصبحت هذه الفلسفة العربية فى نهايتها كما كانت فى بدايتها هى فلسفة أرسطو استحالت إلى أفلاطونية جديثة ؛ ولكن

بينا كانت عقائد أرسطو قد عدلت وحورت على أيدى معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفى بحاجات الدين ، فإن العقائد الإسلامية قد أنقصت على يدى ابن رشد إلى أقل قدر حتى يوفق بينها وبين آراء أرسطو . ومن أجل هذا كان أثر ابن رشد فى المسيحية أعظم منه فى بلاد الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه من المسلمين ، ونسيه من جاء بعده منهم ، وتركوا معظم كتبه تضيع أصولها العربية ؛ ولكن اليهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية . وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة . أما فى العالم المسيحى فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلى اللاتينيـــة كانت من أكبر البواعث على نزعة ســيجر ده برابانت Siger de Brabant الإلحادية ، ونزعة مدرسة بدوا Padua العقلية ، وكانت خطراً يهدد أساس العقيدة المسيحية . وأراد تومس أكويناس أن يرد هذا التيار الذى بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض ، ولكنه سار على الطريقة التى اتبعها ابن رشد فى شروحه وفى كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو ، وفى قوله إن المادة هى منشأ الفروق بين الكائنات ، وفى تفسيره الرمزى للنصوص الخاصة بالتجسيد فى الكتاب المقدس، وفى قبوله الفكرة القائلة إن العالم قد يكون أزلياً ، وفى رفضه التصوف أساساً كافياً للدين ، وفى اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل ، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان[١١٣] . وقد وضع روجر بيكن ابن رشد فى المرتبة الثانية بعد أرسطو وابن سينا ، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التى هى من خصائصه « تحظى فلسفة ابن رشد فى هذه الأيام (حوالى عام ١٣٧٠) بقبول جميع العقلاء »[١١٤] ؛

و عام ١١٥٠ أمر الخليفة المستنجد فى بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية . وفى عام ١١٩٤ أصدر الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور وكان وقتئذ فى إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد إلا عدداً قليلا منها

فى التاريخ الطبيعى ، وحرم على رعاياه دراسة الفلسفة ، وحثهم على أن يلقوا فى النار جميع كتبها أينما وجدت . . وبادر العامة إلى تنفيذ هذه الأوامر ، وكان يسوؤهم ويحز فى نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذى كان عند بعضهم أعز سلوى لهم فى حياتهم المضنية النكدة . وفى هذا الوقت بالذات أعدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة[١١٥] ، وأعرض الإسلام بعد عام ١٢٠٠ عن كل تفكير نظرى . ولما أن ضعفت القوة العباسية فى العالم الإسلامى ، أخذت تتجه اتجاهاً متزايداً نحو طلب المعونة من رجال الدين والفقهاء من أهل السنة . وأمدها هؤلاء بما تحتاجه من هذه القوة ، نظير كبتها للتفكير الحر المستقل . ومع هذا كله فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة . ففى أسبانيا كان المسيحيون يتقدمون من بلد إلى بلد ، حتى لم يبق للمسلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفى الشرق استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وفى عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ودمروها تدميراً .

الفصل التاسع

غارة المغـــول

١٢١٩ — ١٢٥٨

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغرى الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة(*) . وكان السلاجقة قد بعثوا فى بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة ، ولكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعيم ، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين مستقلتين ذواتى حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية . وكان التعصب الدينى والعداء العنصرى قد قسما الشعب أقساما شديدة التباغض والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصابيين .

وفى هذه الأثناء كان المغول الضاربون فى شمالى آسية الغربى يزداد عديدهم لقوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعابه . وكانوا يعيشون فى الخيام أو فى العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراع جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها . وكان أولئك الهون الجدد ، كما كان بنو جنسهم منذ ثمانية قرون ، بارعين فى استعمال الخناجر ، والسيوف ، والسهام يطلقونها من فوق جيادهم التى تسابق الريح . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم چيوڤنى ده بيانو كربينى Giovanni de Piano Carpini المبشر المسيحى ، فإن هولاء الأقوام كانوا « يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه »(١١٦) ، ولم يكونوا يشمئزون من أكل الفئران ، والقطط ، والكلاب ، ودم الآدميين ، أكثر من اشمئزاز أعظم الناس ثقافة فى هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية . ونظم چنكيز خان — أى الملك

(*) انظر مقدمة ابن خلدون فى هذا المعنى . (المترجم)

العظيم — أولئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس ، وقادهم لفتح أواسط آسية الممتدة من نهر الفلجا إلى سور الصين العظيم . وبينا كان چنكيز خان غائباً عن حاضرة ملكه فى كركورم خرج عليه زعيم مغولى ، وعقد حلفا مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة . وقمع چنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله ، ولكن نائبه فى أترار Otrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرين من المغول فيما وراء نهر جيحون ، وطلب چنكيز خان أن يسلم إليه الوالى لمحاكمته ، فرفض محمد هذا الطلب ، وقتل رئيس البعثة المغولية ، ورد بقية أعضائها محلوقى اللحى ، فلم يكن من چنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (١٢١٩) .

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجى ابن الخان جيش محمد البالغ أربعمائة ألف جندى عند جند ، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك ١٦٠،٠٠٠ من رجاله قتلى فى ساحة الوغى . وتقدم جيش مغولى آخر بقيادة چجتاى ابن الخان نحو أترار واستولى عليها ونهبها ، وسار جيش ثالث بقيادة الخان نفسه إلى بخارى وحرقها عن آخرها ، وسبى آلافاً من نسائها ، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها . واستسلمت له سمرقند وبلخ حين وصل إلى أبوابهما ولكنهما لم تنجوا من النهب والمذابح العامة ؛ وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت ووصفها بأن أكثرها لا يزال خرائب ينعق فيها البوم . وزحف تولوى بن چنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخيرونهم بين قتال مواطنيهم — من أمامهم أو قتلهم من خلفهم . وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هـــذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلاثة

عشر يوما هلك فيها ٠٠٠ر٣٠٠ر١ نسمة[117] . وقاومت نيسابور الغزاة ببسالة زمناً طويلا ، فلما استسلمت آخر الأمر (١٢٢١) قتل كل من فيها من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ما عدا أربعمائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رؤوس القتلى فى كومة مروعة ؛ وخربت كذلك مدينة الرى الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف ، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين المسلمين[118] . وجمع ابن الشاه محمد جيشاً جديداً من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر إلى دهلى . ولما خرجت هراة على واليها المغولى كان جزاؤها ذبح ستين ألفا من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب فى قلوبهم ، وإرهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا فى الخروج عليهم . ونجحت هذه الخطة .

وعاد چنكيزخان بعدئذ إلى بلاده ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسمائة ، ومات فى فراشه . وسير ابنه وخليفته أجتاى جيشا من ٠٠٠ر٣٠٠ للقبض على جلال الدين ، وكان قد جيش جيشا جديداً فى ديار بكر . وهزم جلال الدين وقتل ، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا فساداً فى أذربيجان ، وبلاد النهرين ، والكرج ، وأرمينية (١٢٣٤) . وسمع المغول أن فتنة قامت فى إيران بقيادة الحشاشين ، فزحف هولاكو حفيد چنكيزخان بجيش مغولى اخترق به سمرقند ، وبلخ ، ودمر حصن الحشاشين فى ألموت وولى وجهه شطر بغداد .

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فى المشرق من جلة العلماء ، وكبار الخطاطين ، وكان مثال الرقة ودماثة الأخلاق ، شديد الاهتمام بأمور الدين ، وبالكتب ، والصدقات : وكل هذه أمور لا تتفق مع ذوق هولاكو . واتهم المغول الخليفة بأنه يتستر على العصاة ، ويمنع ما وعد به من المساعدة على الحشاشين ، وطلب إلى الخليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع . ورفض المتعصم هذه الطلبات بإباء وكبرياء ، وحاصر المغول بغداد ، وأرسل الخليفة إلى هولاكو بعد شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح ؛ وخدع بما وعد به من الرحمة فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول ، ودخل هولاكو وجنوده بغداد فى الثالث عشر من فبراير عام ١٢٥٨ ، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوما كاملة ، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض المؤرخين . وهلك فى هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب ، والعلماء ، والشعراء ، ونهبت أو دمرت فى أسبوع واحد المكاتب والكنوز التى أنفقت فى جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن مخابئ ثرواتهم ، ثم قتلوا[١١٩] . وهكذا قضى على الخلافة العباسية فى آسية .

ثم عاد هولاكو إلى منغوليا ، وبقى جيشه وراءه ، يتقدم لفتح الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت بجيش مصرى يقوده قطز وبيبرس من أمراء المماليك (١٢٦٠) . وزفت البشرى إلى كل مكان فى بلاد الإسلام وفى أوربا نفسها ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد حل الطلسم وذهب الروع ؛ ذلك لأن معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣ وكانت عاقبتها أن هزم المغول ، ونجت بلاد الشام للمماليك ، ولعلها أيضا احتفظت للمسيحية بأوربا .

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات فى التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائى ما عانته الحضارة الإسلامية على أيدى المغول . لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان ، وكان فى استطاعة بلاد الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتى بعدها ، وكان الفاتحون الجرمان يكنون فى قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التى يعملون على تدميرها ، ومنهم من حاول المحافظة عليها . أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا فى

أربعين عاما لا أكثر ، ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا ، وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا . ولما ارتد تيار فتوحهم الدموى خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً ، وقنوات للرى مطمورة ، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تذروه الرياح ، وحكومات منقسمة على نفسها ، معدمة ، ضعيفة ، لاتقوى على حكم البلاد ، وسكاناً هلك نصفهم ، وتحطمت نفوسهم . وأجتمع الانغماس الأبيقورى فى الملذات ، والهزال الجسمى والعقلى ، وخور العزيمة والعجز الحربى ، والانقسام الدينى والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية ، والفساد السياسى والفوضى الشاملة ، اجتمعت هذه العوامل كلها وائتلفت لتحطيم كل شىء فى الدولة قبل الغزو الخارجى . لقد كان هذا كله - لاتبدل المناخ ، هو الذى بدل آسية الغربية من زعامتها على العالم فقراً مدقعاً ، وخرابا شاملا . وأحل محل مئات المدن العامرة المثقفة فى الشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والقفقاس ، والتركستان ما تعانيه فى الوقت الحاضر من فقر ، ومرض ، وركود(*) .

(*) لقد أخذت تلك البلاد تنفض عن كاهلها ما كانت تعانيه من الفقر والمرض والركود ، وشرعت تعمل بجد وعزيمة لاستعادة مجدها الغابر الذى أراد هؤلاء الغزاة المتوحشون أن يقضوا عليه . وفى بلاد آسية الغربية فى الوقت الحاضر نهضة قوية مباركة فى جميع المرافق الحيوية تبشر بأن هذه البلاد ستستعيد عما قريب ما كان لها من منزلة سامية فى تلك الأيام الخالية . ولقد استطاعت فى وقت قصير أن تحقق الشىء الكثير من أسباب الرقى وأن ترفع عن كاهلها ما كان يطوقها به الاستعمار البغيض من قيود ، ويقيننا أنه لولا هذا الاستعمار لكانت خطاها فى هذه السبيل أوسع وأثبت . (المترجم)

الفصل العاشر

الإسلام والعالم المسيحى

إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى فى التاريخ . لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله فى القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفى ارتفاع مستوى الحياة ، وفى التشريع الإنسانى الرحيم ، والتسامح الدينى ، والآداب ، والبحث العلمى ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة . وفى العمارة أسلم مكانته الأولى فى القرن الثانى عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية ، ولم يجد فن النحت القوطى منافساً له فى بلاد الإسلام التى كانت تحرم صنع التماثيل . أما الفن الإسلامى فقد أفنى قوّته فى الزخرفة ، وعانى الشىء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة ، ولكنه فى داخل هذا النطاق الذى فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه . وكان الفن والثقافة فى بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى ؛ فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين ، وتجاراً ، وكانوا كالأطباء ، وكان فى مقدورهم أن يكونوا فلاسفة .

ويغلب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية فى خلال تلك القرون ، وإن لم يكن فى كليهما حظ لمختار ، غير أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الاقتصار على زوجة واحدة فى البلاد المسيحية ، مهما بلغ من عدم التقيد بهذه العادة من الناحية العملية ، فقد أبقى الغريزة الجنسية فى نطاق محدود ، ورفع منزلة المرأة رفعاً أبطيثاً ، فى حين أن الإسلام قد أخفى وجه المرأة بالحجاب والقناع . ولقد أفلحت الكنيسة فى تقييد الطلاق ، ويبدو أن اللواط لم يبلغ فى البلاد المسيحية ، ومنها إيطاليا فى عهد النهضة ، ما بلغه من الحرية

والانتشار — حاشاً أن نقول فى الإسلام ، بل نقول فى حياة المسلمين . غير أن المسلمين ، كما يلوح ، كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا فى تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عند ما استولوا على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ . ولقد ظل القانون المسيحى يستخدم طريقة التحكيم الإلهى بالقتال أو الماء ، أو النار ؛ فى الوقت الذى كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنيرون . واحتفظ الدين الإسلامى ، وهو أقل غموضاً فى عقائده من الدين المسيحى ، بشعائره أبسط ، وأنقى ، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحى ، وأقل منه قبولا لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك . وهو شبيه بالمذهب البروتستنتى فى احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لها من عنان ؛ (ولكنه يستسلم للنزعة الجنسية فى تصويره الجنة)(*) . وقد ظل هذا الدين بعيداً كل البعد تقريباً عن النظم الكهنوتية ، ولكنه قيد العقل فى الوقت الذى كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية .

ويكاد تأثير العالم المسيحى فى الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب . فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامى من نماذج مسيحية ، ومن الرهبنة ، وعبادة القديسين . ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت فى الشعر والفن الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير[١٢٠] .

أما العالم الإسلامى فقد كان له فى العالم المسيحى أثر بالغ مختلف الأنواع . لقد تلقت أوربا من بلاد الإسلام الطعام ، والشراب ، والعقاقير ، والأدوية ،

(*) لقد قال المؤلف من قبل ، نقلا عن بعض الفلاسفة ، إن ما ورد فى وصف الجنة من متع جسمية يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل هل أنه تقريب للمتع الروحية من أذهان الناس . (المترجم).

والأسلحة . وشارات الدروع ونقوشها ، والدوافع الفنية ، والتحف ، والمصنوعات ، والسع التجارية ، وكثيراً من الصناعات ، والتشريعات والأساليب البحرية ، وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها :

Orange, lemon, sugar, syrup, sherbet julep, elixir, jar azure, arabesque, mattress, sofa muslin, satin, fustian, bazaar, caravan, check mate, Tariff, tarffic, douane, magazine, risk, sloop barge, cable, admiral.

ويقابل هذه فى العربية : البرتقال ، والليمون ، والسكر ، والشراب ، والشربات ، والجلاّب ، والإكسير ، والإبريق ، والأزرق ، والنقش العربى ، والحشية (واللفظ الإنجليزى مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ الإنجليزى مشتق من الصُّفّة) ، والموصلين ، والساتان ، والفستان ، والسوق . والقافلة ، والشاه مات . والتعريفة ، وحركة المرور ، والديوان ، والمخزن ، والخطر ، والقارب بنوعيه ، والحبل ، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar وبعضها الآخر عن العربية) . وقد جاءت لعبة الشطرنج إلى أوربا من الهند عن طريق بلاد الفرس ، واتخذت لها فى طريقها أسماء فارسية وعربية ؛ فلفظ Ckeck mate مثلا مأخوذ من عبارة الشاه مات . وبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة على أصولها السامية ؛ ومن هذه الألفاظ lute من العود ، و rebeck من الربابة ، و guitar من القيثارة ، و tambourine من الطنبور . وقد انتقل شعر شعراء الفروسية الغزليين troubadour وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى پروڤانس فى فرنسا ، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا . ولعل الأوصاف العربية المرجلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب فى الملهاة الإلهية The Divine Comedy لدانتى . وقد دخلت القصص الخرافية ، والأعداد الهندية إلى أوربا فى زيها العربى أو صورتها العربية . والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والطب ،

وارتقوا بها ، ونقلوا هذا التراث اليونانى بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوربا . ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية ، ونذكر منها على سبيل المثال **Algebra** للجبر ، **Zero** و **Cipher** للصفر ، **Azimuth** السُّمُوت و **Alembic** للأنبيق ، و **Zenith** للسمت ، و **Almanaç** للتقويم وهى مشتقة من لفظ المناخ . وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب فى العالم خمسمائة عام كاملة ، وفلاسفة العرب هم الذين احتفظوا لأوربا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات . وكان ابن سيناء وابن رشد نجمين لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسيين الذين كانوا ينقلون عنهما ، ويعتمدون على كتبهما ، ويثقون بها ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهم بالنصوص اليونانية .

والقباب المضلعة أقدم فى بلاد المسلمين منها فى أوربا[١٢١] ، وإن لم يكن فى مقدورنا أن نتتبع الطريق الذى وصلت منه إلى الفن القوطى ؛ وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة ، وأبراج نواقيسها مدينة بالشىء الكثير إلى مآذن المساجد[١٢٢] ، ولعل زخارف النوافذ القوطية المقطعة المصنوعة من الحجارة قد أوحت بها بوائك برج الخرلدة ذات الأقواس المقترنة[١٢٣] . ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع فى إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين فى القرن الثانى عشر إلى هذين البلدين ، وإلى زيارة صناعه الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية[١٢٤] . ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج فى البندقية ، ومجلدو الكتب فى إيطاليا ، وصانعو الدروع والسلاح فى أسبانيا ، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناع المسلمين[١٢٥] ، وكان النساجون فى جميع أنحاء أوربا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم ، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية .

وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التى جاء منها هذا التأثير الإسلامى إلى بلاد الغرب ، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه جاء عن طريق التجارة ، والحروب

الصليبية ؛ وعن آلاف الكتب التى ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية ؛ وعن الزيارات التى قام بها العلماء أمثال جربرت Gerbert ، وميخائيل اسكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث Bath إلى الأندلس الإسلامية ؛ ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليتربوا فيها ويتعلموا الفروسية(١٢٦) — ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون « فرساناً وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين »(١٢٧) ؛ ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسپانيا . وكان كل تقدم للمسيحيين فى أسپانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة فى عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية ، وأبقى على الاعتقاد بكرية الأرض(١٢٨) .

لكن نار الحقد لم تطفئ لظاها هذه الاستدانة العلمية . ذلك أن لا شىء بعد الخبز أعز على بنى الإنسان من عقائدهم الدينية ، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ، بل يحيا معه بالإيمان الذى يبعث فى قلبه الأمل . ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظا على من يهدده فى قوته أو عقيدته . ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين ، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحى فى إثر قطر ، ويمتصون شعباً مسيحيا بعد شعب ؛ وكانوا يحسون بأيدى المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية ، ويستمعون إليهم وهم يسمون المسيحيين كفرة(*) ؛ وأمست المعركة المرتقبة فى آخر الأمر معركة حقيقية ؛ فاصطدمت الحضارتان فى الحروب الصليبية ، وقتل خيرُ ما فى الشرق أو الغرب

(*) إن الدين الإسلامى لا يقول قط بأن المسيحيين كفرة بل يعتبرهم من المسيين أهل الكتاب . (المترجم)

خيرٌ ما فى الغرب أو الشرق ، وكان هذا العداء المتبادل عاملا فعّالا فى تاريخ العصور الوسطى كله ، مضفاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودى قائما بين الطائفتين المحتربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كلتيهما . وخسر الغرب الحروب الصليبية ، ولكنه ربح معركة الأديان ؛ فقد طرد كل مسيحى محارب من الأرض المقدسة ؛ ولكن المسلمين ، وقد استنزف النصر البطىء دماءهم ، وخرب المغول بلادهم ، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر ، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضجه ما بذل من جهود ، فنسى هزائمه ، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرقى . فأقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحوّل لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب دانتى وتشوسر Chaucer وڤيون Villon ، وسار تحدوه العزة إلى عصر النهضة :

وبعد فإن القارئ العادى ستعتريه الدهشة من طول هذه الإلمامة بحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من إيجاز غير خليق بها : إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هى التى أنجب فيها المجتمع ، فى مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم فى الحكم ، والتعليم ، والآداب ، واللغة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والفلسفة ، والطب ، كما أنجب الإسلام فى الأربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذا النشاط المتلألئ مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة فى الحكم ، والشعر ، والفن كان نشاطا مبتكراً لا تقدر قيمته . ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية ، ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيمينية فحسب ، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان ، وإلى أشور بلاد أشور بانيبال ، وإلى بابل حمورابى ، وأكاد سرجون ، وسومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم : وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ

بعضها ببعض ؛ ذلك أن الأسس الجوهرية فى الحضارة لا تضيع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجدب ، وهجرات مدمرة ، وحروب مخربة مهلكة . بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأسس فتنتشلها من هذا اللهب ، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكات ، ثم بالخلق والابتكار ، حتى ينبعث فى الشعب الناشىء شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء فى مجتمع ، والأجيال لحظات فى تسلسل الأسر ، فإن الحضارات وحدات فى كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ؛ فهى مراحل فى حياة الإنسانية . إن الحضارة متعددة الأصول ، وهى نتاج تعاونى لكثير من الشعوب ، والطبقات ، والأديان ؛ وليس فى وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فإن العالم وإن كان مواطناً فى بلده يحبه لما يربطه به من صلات وثيقة ، يحس أيضاً بأنه مواطن فى بلد العقل ، الذى لا يعرف عداوات ولا حدوداً . وهو لا يكاد يكون خليقاً باسمه إذا ما حمل معه فى أثناء دراسته أهواء سياسية ، أو نزعات عنصرية ، أو عداوات دينية ؛ وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى تراثها شكره وإجلاله :

المراجــع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع مجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل، أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER VIII

1. Burton, Sir R.., ed., *Thousand Nights and a Night*, I, vii
2. Hell, J., *The Arab Civilization*, 7. Dawson, Christopher, *The Making of Europe*, 136.
3. Encyclopaedia Britannica, II, 184
4. Doughty, Chas., *Travels in Arabia Deserta*, I, xx.
5. Margoliouth, D. S. *Mohammed and the Rise of Islam*, 29; Nödek, *Shetcthes*, 7.
6. Burton, R.F., *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinah and Meccah*, II, 98.
7. Blunt, Lady A. and Sir W. S., *The Seven Golden Odes of Pagan Arabia*, 43.
8. Ibid.
9. القرآن الكريم tr. and ed. Pickthall, *The Meaning of the Glorious Koran*. Pickthall's numbering of the verses differs occasionally from that of other translations.
10. Sale, G., in Wherry, E.M. *Commentary on the Qur' an*, with Sale's tr., I, 43.
11. Herodotus, iii, 8.
12. الطبرى — المقدمة

    Margoliouth, *Mohammed*, 59, Muir, Sir W., *Life of Mohammed* 512.
13. Browne, E. G , *Literary History of Persia*, I, 261.
14. الطبرى الجزء الثالث الفصل السادس والأربعون ص ٢٠٢
15. Pickthall, p. 2.
16. Browne, *Literary History*, I, 247.
17. Tiedall, W. S., *Origiual Sources of the Koran*, 264, Poole, S., *Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed*' xxiv.
18. Nicholson, R. A., *Translations of Eastern Poetry and Prose*, 38-40. Cf. Koran, xcvi.
19. Muir, *Life*, 51.
20. القرآن الكريم
21. II, 91.
22. Lxxxvii, 6.
23. Ali, Maulana Muhammad, *The Religion of Islam*, 174.
24. Macdonald, D. B., *Rilegious Attitude and Life in Isim*, 42.
25. Margoliouth, *Mahammed*, 45.
26. Dozy, R., *Spanish Islam*, 15.
27. Hell, 19.
28. Sale in Wherry, I, 80.
29. البلاذرى
30. Ameer Ali, Sayed, *Spirit ofIslam*. 54.
31. Muir, *Life*, 214, 234.

23. Ibid., 286.
33. Ibid., 238, quoting traditions.
34. Ibid.
35. Andrae, Tor, *Mohammed,* 206; Muir, 245f, quoting Ibn Hisham and al - Tabari.
36. Ameer Ali, *Spirit of Islam,* 58f.
37. Muir. 252f.
38. البلاذرى
39. المصدر عينه
40. Amer Ali, 94.
41. Andrae, 238.
42. Macdonald, D. B., *Development of Muslim Theology, Juris - prudence, and Constitutional Theory* 69.
43. القرآن
44. القرآن
45. Andrea, 267.
46. القرآن
47. Muir, 77, 244.
48. القرآن
49. Muir. 201.
50. Bukhsh, S. K., *Studies, Indian and Islamic,* 6.
51. Muir, 511.
52. Lane - Pool, *Speeches,* xxx.
53. Ameer Ali, *Spirit of Islam* 110.
54. Bukhsh, *Studies,* 6.
55. Irving. W. *Life of Mahomet,* 238
56. Margoliouth, 105; Irving, 231.
57. القرآن
58. الجلستان السعدى
59. Margoliouth, 458.
60. Gibbon, V, 254.
61. Margololouth, 466.

CHAPTER IX

1. سورة الرحمن
2. Lane - Poole, *Speeches,* 180.
3. القرآن الكريم
4. االقرآن الكريم
5. القرآن الكريم
6. القرآن الكريم
7. Margoliouth, 69.
8. القرآن الكريم Lane-Poole, 157
9. Ibid.' 158.
10. Ali, Maulana M., *Religion of Islam,* 587.
11. Lane-Poole, 161, 163.
12. Ibid., 162.
13. Ibid.
14. Ali, Maulana. 890.
15. القرآن
16. Ali, Maulana, 655.
17. القرآن
18. Ali, 602.
19. القرآن الكريم
20. القرآن الكريم
21. Pickthall, p. 594 n.
22. Lane-Poale, 161.
23. القرآن الكريم
24. Ameer Ali, 183.
52. Lane-Poole, 167.
26. Quoted in Muir, *Life;* 520.
27. Lane-Poole, 159.
28. Ibid.
29. Sale in Wherry, I, 122.
30. E.g., Deut. xviii, 15-18 ; Hag. ii, 7 ; Songs, ii, 8, xxi, John xvi, 12-13.
31. Talmud, Pirk Aboth ii, 18.
32. Nöldeke, *Sketches,* 44.
33. القرآن Talmud, Sanh., ii, with Ber., i, 2, and Nöldeke, 31.
34. Lane-Poole, xi.
35. Bevan, E. R., *Legacy of Israel,* 147, Hitti, P. K., *History of the Arabs.* 125.

36. Baron, S.W. *Social and Religious History of the Jews*, I, 335 - 7.
37. Hurgronje. C. S., *Mohammedanism*, 65.

CHAPTER X

1. *Cambridge Medieval History*, II, 331.
2 Burton, *Personal Narrative*, I, 149.
3. Finaly, G., *Greece under the Romans*, 367.
4. Muir, Sir W., *The Caliphate*, 56.
5. Ibid., 57.
6. Ibid., 189.
7. Hitti, 176.
8. Gibbon, V, 296.
9. Macdonald. *Development of Muslim Theology*, 23.
10. Hitti, 197.
11. Sykes, Sir P., *History of Persia*, I, 538.
12. Hell, J., 59 - 60.
13. Meir, *Caliphate*, 376; Hitti, 229.
14. Dozy, 161. Hitti, 227.
15. Muir. *Caliphate*, 428-37, Hitti, 285
16. Nöldeke, 132.
17. المستطرف
18. Burton, Sir R.F., *The Thousand Nights and a Night* I, 186.
19. Palmer, E.H., *The Caliph Haroun Alraschid*, 80, 78.
20. Arnold, Sir T. W., *Painting in Islam*, 16.
21. Abbott, Nabia, *Two Queens of Baghdad*, 183.
22. Muir, *Caliphate*, 482.
23. Palmar, 221.
24. Ibid., 85, Abbott, 118.
25. Palmer, 81f. البرامكة
26. ابن خلدون المقدمة
27. Hitti, 300.
28. Eginhard, *Life of Charlemagne*, xvi, 3.
29. Palmer, 121. البرامكة
30. Nicholson, R A., *Translation of Eastern Poetry and Prose*, 64.
31. العتبى : الكتاب اليمينى
32. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'art musulman*, I, 441.

CHAPTER XI

1. Lestrage, G., *Palestime under the Moslems*, quoting Masudi, ii, 48.8
2. Hitti, 351,
3. Milman, H. H., *History of Lain Christiainty*, III, 65n.
4. Lane, E. W., *Arabian Society in the Middle Ages*, 117.
5. Usher, A. P., *History of Mechanical Inventions*, 178-9.
6. De Vaux, Baron Carre, *Les Penseurs d'Islam*, I, 8.
7. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World, III*.
8. Renard, G., *Life and Work in Prehistoric Times*, 118.
9. Hitti, 344.
10. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages*, 873.
11. ابن خلدون المقدمة
12. Hitti. 348.,
13. Muir *Caliphate*, 501.
14. Hitti, 344.
15. Hurgronje, 128.
16. Browne, E.G., *Literary History*
17. Ibid., 318.
19. Browne, I, 223; Muir *Caliphate*, 510.
20. Nöldeke, 146-75.
21. Arnold, *Painting in Islam*, 104.
22. Guillaume, A., *The Traditions of Islam*, 13.
23. *Ibid.*, 134-8; Becker, C. H., *Christianity and Islam*, 62.

24. Guillaume, 47-52, 77.
25. Margoliouth, *Mohammed*, 80.
26. Guillaume, 80.
27. Sykes, I, 521.
28. Andrae, 101.
29. Sale in Wherry, I. 172.
30. Ali, Maulana, 780.
31. Philby, H., *A Pilgrim in Arabia*
32. Doughty, I, 59.
33. Burton, *Pilgrimage*, I, 325.
34. Ali Maulana, 522.
35. Burton, *Pilgrimage*, II, 68 ; Sale in Wherry, I, 185.
36. Graetz, H., *History of the Jews*, III, 87 ; Hitti, 284.
37. Lestrange, *Palestine*, 212 ; Arnold, Sir T. and Guillaume. A., *The Legacy of Islam* 81.
38. Baron, S, W., *History*, I. 319.
39. Guillaume, 132.
40. Catholic Encylopedia, VIII, 459.
41. Becker, 32,
42. Hitti, 685 ; Sarton, G., *Introdution to the History of Science* Vol. II, Part I, 80.
43. Westermarck E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 476.
44. Kremer. A. von, *Kulturgeschichte des Orients unter den Khalifen*, 62.
45. Abbott, 68.
46. Lane, E. W., *Arabian Society*, 219-20.
47. Bukhsh, S. K., *Studies*, 83.
48. Hitti, 239.
49. Ali, Maulana, 890.
50. Lane-Poole, S., *Saladin*, 247.
51. Macdonald, D. B. *Aspects of Islam*, 294 ; Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 262.
52. Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 42.
53. Lane-Poole, *Saladin*, 217.
54. Ibid., 251 ; Sumner, W. G. *Folkways*. 353.
55. Lane E. W. *Arabian Society*, 221
56. Ibid., 223.
57. Hitti, 342.
58. Bukhsh, *Studies*, 88.
59. Abbott, 187, 149.
60. Bukhsh, 84.
61. الغزالي ، كيمياء السعادة
62. Himes, N. E. *Medical History of Contraception*, 136.
63. Lane-Poole, *Saladin*, 415.
64. Guillaume. *Traditions*, 115.
65. Westermarck, *Moral Ideas*, I, 94.
66. Sale in Wherry, I, 168.
67. Hitt. 388.
68. De Vaux, II, 272 f ; Chardin, Sir J. *Travels in Persia*, 198.
69. Muir, *Caliphate*, 374.
70. Ibid., 519.
71. Lane, *Saladin*. 285.
72. Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire*. 326.
73. Hurgronje, 98.
74. Macdonald, *Muslim Theology*, 84 ; Guillaume, 69 ; Burton. *Personal Narrative*, I, 148, 167,
75. Arnold and Guillaume *Legacy*. 305.
76. Macdonald. *Theology*, 305.
77. Muir, *Caliphate*, 170.
78. Lestrange, *Palestine*, 24.
79. Hitti, 236 f.
80. In Lestrange, 120.
81. Ibid., 342.
82. Ibid 361.
83. Ibid., 295-301, 312, 348, 353, 361 377.
84. Ibid., 265.
85. Ibid., 287.
86. Creswell, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, I, 187; Rivoiria G. T., *Moslem Architecture 110*.
87. Yaqub, II, 587, in Lestrange,
88. Lane. *Saladin*, 184.
89. Ameer Ali, *Spirit of Islanm*, 339.
90. Baron, I, 320.

91. أبو الفدا في
The Troubadours and the Courts of Love, Rowbotham , J.E,; 16n.
92. Lestrange, G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, 253.
93. Lane, E. W., *Arabiam Society*, 203.
94. Lane - Poole, S. *Studies in a Mosque*, 185.

CHAPTER XII

1. In Ameer. Ali, *Spirt of Islam*, 331.
2. Lane, *Saladin* 86.
3. Lane-Poole, S.. *Cairo*, 188.
4. Hitti, 409.
5. Macdonald, *Aspects of Islam*,
6. Bakhsh, *Studis* 195.
7. Carter, T. F. *The Invention of Printing in China*, introdution and p. 85; Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, 34; Barnes,
8. Bukhsh, 49.50.
9. Ibid., 197.
10. Gibbon, V, 411.
11. Browne, *Literary History*, 1,275.
12. Pope, *Mosterpices of Persion Art*. 151.
13. Sarton, I, 662.
14. Gibbon. V, 298.
15. تاريخ الطبري ج ١
16. المصدر عينه
17. المصدر عينه
18. Sarton, I, 637.
19. De Vaux, I' 78.
20. ابن خلدون الجزء الأول
21. Sarton, I. 530.
22. Arnold and Guilfeume, *Legocy* 385.
23. Sarton, I. 602.
24. Bukhsh, 168.
25. De Vaux, II, 76.
26. Ibid., 78.
27. البيروني ٧٨
28. البيروني
29. In Boer, T. J. de, *History of Philosophy in Islam*. 146.
30. De Vaux, II, 217; Arnold and Guillaume, 895.
31. البيروني
32. Bukhsh, 181.
33. Sarton, I, 707.
34. Ibid., 693.
35. Lane, *Arabian Society*, 54 n.
36. ابن خلدون الجزء الثاني
37. Thompson. J. W., *Economic and Social History*, 358.
38. Grunebaum, G. von, *Medival Islam*, 381.
39. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 392.
40. Kellogg. J. H. *Rational Hydrotherapy* 1928, 24.
41. Ibid.
42. Lane, *Arabian Society*, 56.
43. Garrison, F., *History af Medicine*, 1929 137.
44. Arnold and Guillaume, 336.
45. Bukhsh, 197.
46. Hitti, 364.
47. Ibid.
48. Campbell, D., *Arabian Medicine* 061.
49. Sarton, I 609.
50. وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول ص ٤٤٠
51. المرجع عينه ص ٤٤٢
52. In Draper. J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, I. 411.
53. John. I, 1-8.
54. Bukhsh, 59.
55. Boer. 101; Amold and Guillaume, 255.
56. Arisotle *De Anina*, III, 5.
57. Macdonald, *Muslim Theology*, 150
58. Barhebraeus in Grunebaum, 182;

Hitti, 258 ; Muir *Caliphate*, 521.
59. In Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 408.
60. Dawson, 155.
61. ابن خلدون
62. O'Leary DeL., *Arabic Thought and Its Place in History, 153*,
63. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 412.
64. De Vaux, IV, 12 - 18.
65. Boer 128.
66. Ibid., 81f.
67. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, xxxix.
68. Salibu, D., *Etude sur la metaphysique d'Avicenne, 21*.
69. Ibid., 106, 114, 121, 151 ; Hastings *Encycloped of Religion and Ethics*, XI, 275-6 ; Boer, 136.
70. Salibu, 170 ; Gruner, O. C. *Tpeatise on the Canon of Medicine of Avicenna*, introd., p. 9.
71. Beer, 188 - 42.
72. Salibu, 208.
73. In Ameer Ali, 395.
74. Boer, 144.
75. البلاذرى جـ ١ ص ٦ Bocon, Roger, *Opus Maius*, tr. R. B. Burke, Vol. I, p. 15.
76. Salibu, 27.
77. Arnold and Guillaume, 311.
78. قانون ابن سينا ص ١١٨
79. In Nicholson, R. A., *Mystics of Islam*, 7.
80. ابن خلدون
81. Browne, *Literary*, I, 426.
82 Hitti, 435.
83. Nicholson, R. A., *Studies in Mysicism*, 4 - 5.
84. Macdonald, *Religious Attitude*, 169 - 21.
Nicholson, *Studies in Mysticism*, 78.
85. Ibid., 25.
86. Arnold and Guillaume, 219.
87. Hitti, 438.
88. Browne, II, 265.
89. Nicholson, *Studies in Mysticism*, 6-21.
90. Id., *Translations of Eastern* 98-100.
91. In Browne, II, 265.
92. Nicholson, *Mysticism*, 28-81, 38.
93. Browne, I, 404 ; Dawson, 158.
94. Hitti. 443.
96. مروج الذهب للمسعودى الترجمة الفرنسية جـ ٤ ص ٨٩
97. Lane-Poole, *Cairo*, 154.
98. Nicholson, *Studies in Islamic Poetry*, 48.
99. Id., *Translations*. 38.
100. Nicholson, R. A: *Literary History of the Arabs*, 295 ; ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٣
101. De Vaux, IV. 252.
102. Browne, I, 369.
103. Nicholson, *Islamic Poetry*, 183-7
104. Rihani, A: F., *The Quatrains of Abu'l Ala* (al-Ma'arri), vii.
105. Nicholsan, *Literary*, 319.
106. Id., *Islamic Poetry*, 148.
107. Ibid 102, 145, Rihani, 120.
108. Nicholson, *Islamic Poetry*, 108.
109. Ibid., 191-2.
110. Ibid., 121.
111. Id., *Translations*, 102.
112. Id., *Islamic Poetry*, 150.
113. Ibid., 160.
114. Ibid., 161-5.
115. Id., *Translations*, 102.
116. Id., *Islamic Poetry*, 119.
117. Ibid., 127.
118. Id., *Translations*, 102.

119. Id., *Islamic History*, 140
120. In Browne, II, 120.
121. الفردوسى الخديناهة
122. الفردوسى الشاهنامة
123. نفس المرجع ترجمة اتكنسن وقد ترجمه ماثيو آرنلد فى سهراب ورستم
124. In Pope, *Survey of Persian Art*, II, 975.
125. Cf. "The Nazarene Broker's Story" in Burton, *Thousand Nights and a Night*, I, 270.
126. Pope, *Survey*, II, 1439.
127. Lane-Poole, *Saladin*, 29.
128. Lane *Arabin Society*, 54-61.
129. Pope, II, 927 ; Hell, 109.
130. Creswell, I' 239.
131. In Lane, *Arabian Society*, 58.
132. Pope, II, 975.
133. Pope, IV 317-28.
134. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian Art*, 200.
135. Arnold and Guilaume, 117.
136. Pope, II, 1447.
137. Fenollosa, F. F., *Epochs of Chinese and Jvpanese Art*, I, 21; Pope, *Survey* I, 2.
138. Pope, II, 1468.
139. Guillaume, 128.
140. Encylopeadia Britannica, XV, 654.
141. Ibid.; Hitti, 420.
142. Arnold, *Painting in Islam*, 85.
143. Ibid., 21.
144. Lane, *Arabian Society*, 117.
145. Ibid.' 15.
146. Hitti, 274.
147. Farmer, H. G., in Arnold and Guillaume. 358.
148. الجلستان
149. In Arnold and Guillaume. 359.
150. Farmer in Aronld and Guillaume, 867.
151. Ibid., 372.
152. Ibid., 361; Farmer, H.G., *History of Arabian Music*, 154.
153. Farmer in Arnold and G., 359.
154. Hitti, 214.
155. Farmer, 31.
156. Ibid., 112.
157. Ibid., 60-4; Lane-Poole, *Cairo*, 156.
158. Farmer, 120.
159. Ibid., 124.
160. Lane, *Arabian Society*, 172-6.

CHAPTER XIII

1. Gibbon, V, 344.
2. Sarton, I, 466; II (ii), 599.
3. Ueberweg, I, 409.
4. Tarn W.W., *Hellenistic Civiliization*, 217. Sarton, I, 466.
5. Gibbon, V, 346.
6. Munro, D. C., and Sellery, G., *Medieval Civilization*, 170.
7. Lane-Poole, *Cairo*, 65.
8. Browne, II, 223.
9. Hitti, 625.
10. Browne, II, 223, Margoliouth, D.S., *Cairo, Jerusalem, and Damascus*, 46.
11. Nöldeke, 8.
12. Hitti, 626.
13. Arnold and Guililaune, 168.
14. Pope, Arther U., *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture*, 237.
15. Lane, *Arabian Society*. 541.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 44. 60.
17. Pope, II, 1488.
18. Arnold and Guilaume, 116.
19. Dimand, M. S., *Handbook of Muhammadan Art*, 255; Arnold, *Paining in Islam*, 127.
20. Margoliouth, *Cairo*, 69.
21. Arnold and Guillaume, 333.
22. Arnold, Sir T.W., *The Preaching of Islam*, 102.

23. Pirenne, Henri, *Mohammed and Charlemagne*, 160f.
24. Hitti, 606.
25. Waern, Cecilia, *Medieval Cicily*, 20.
26. Arnold and Guillaume, 241.
27. Waern, 25.
28. Calvert, A.F., *Moorish Remains in Spain*, 239.
29. المقرى فى نفح الطيب
30. المصدر عينه
31. المصدر عينه
32. Dozy, 458 - 65.
33. المقرى
34. Dozy, 516.
35. Ibid., 522; Calvert, A.F., *Seville* 11
37. Lane - Poole, S., *Story of the Moors in Spain*, 34.
38. Dozy, 688, 689:
39. المقرى
40. Dozy, 284.
41. Gibbon, V, 876.
42. Chapman.C.,F., *History of Spain*, 53.
43. Ibid., 41; Dozy, 236; Lane-Poole, *Moors*, 50.
44. Chapman, 41.
45. Clapham. J. H., Power, E., *Cambridge Economic History of Europe*, 136; Barnes, *Economic Hisory*, 114.
46. Clapham, 364-5, Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 547.
48. *Cambridge Medeival History*, III, 482.
49. Pirenne, Jacques, *Les grands Courants de l'histoire universelle*, II, 117.
50. Ibid , 19.
51. Arnold. *Preaching*, 184; Dozy, 235.
52. Chapman, 49, 58.
53. Dozy, 268.
54. Ibid.
55. Arnold, *Preaching*, 144.
56. Dozy, 285, Lane-Poole, *Moors*, 47
57. Rivoira *Moslem Architecture*, 240.
58. Dozy, 278.
59. Ibid., 286.
60. Aronld, *Preaching*, 141.
61. Dozy 584.
62. المقرى
63. Thompson. J.W., *Economic and Social History*, 549.
64. المقرى
65. المصدر عينه
66. Calvert, *Moorish Remains*, 189.
67. Calvert, A.F., *Cordova*, 107.
68. المقرى
69. Dozy, 495; Chapman, 50.
70. Pirenne, J., II, 20.
71. المقرى
72. In Dozy, 576.
73. Sarton, I, 713.
74. Dozy, 281.
75. المقرى
76. Arnold and Guillaume, 186.
77. Dozy, 326.
78. Ibid.
79. Tr. by Dulcie Smith in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 99.

CHAPTER XIV

1. Browne, II, 176.
2. Ibid., 177 ; Gibbon, V, 17.
3. Browne, II, 190.
4. Marco Polo, *Travels*, i, 24.
5. Ameer Aly, *Spirit of Islam*, 313.
6. Hitti, 446.
7. Thompsom, J.W., *Economic and Social History*, 391 ; Arnold, *Preaching*, 96.

8. William of Tripoli inLane-Poole, *Cairo*, 84.
9. Hitti, 679.
10. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 128.
11. In Lane-Poole, *Cairo*, 27.
12. Irving. W., *The Alhambra*, 47.
13. Lane-Poole, *Moors*, 225.
14. Pope, *Introduction*, 30; Pope, *Survey*, II, 1048,
15, Cf. Migeon, G., *Les arts musulmans*, II, 11.
16. Fry. Roger, in *Persian Art : Souvenir of the exhibition of Persian Art at Burlington House* xix.
17. Dillon. E., *Glass*, 165.
18. Lane, *Arabian Society*, 200.
19. Pope, *Masterpieces*, 65.
20. Dimand, *Handbook*, 280.
21. *Time* Magazine, Ian. 23, 1939.
22. Arnold, *Painting*, 127.
23. *N. Y. Times Book Review*, May 19, 1940, p. 2.
24. Bukhsh, 96.
25. Nicholson, *Translations*, 116.
26. ابن خلدون
27. المصدر عينه
28. Browne, II, 875.
29. Ibid., 392.
30. Sarton, I, 759.
31. Ibid., II (1), 8.
32. Ibid., I, 760.
33. Browne, II, 246.
34. Nicholson, *Islamic Poetry*, 4-5.
35. Weir, T.H., *Omar Khayyam the Poet*, 21.
26. Nicholson, *Islamic Mysticism*, 1.
37. Bromne, II, 108.
38. Ibid , 256.
39. Heron-Allen, Edw., in Houstma, M., ed., *Encyclopepia of Islam*, III, (ii), 988.
40. Weir, 16; Nicholson, *Islamic Poetry*,5.
41. Browne, II, 249.
42. Quatrain cxv of the Bodleian MS. in Weir, 36.
43. Weir, 71.
44. In Browne, II, 247.
45. Smith.Margaret,ed., *The Persian Mystics : Attar*, 20-7.
40. جلال الدين الرومى ، مختارات من ديوان شمس تبريزى
47. المصدر عينه ٧١
48. المصدر عينه ٤٧
49. Sarton, II (ii), 872.
50. Browne; II, 521.
51. السعدى
52. السعدى فى الجلستان
53. المصدر عينه
54. In Browne, II, 530.
55. الجلستان
56. Bustan in Grousset, R., *The Civilizstions of the East, Vol. I : The Near and Midple East*,272.
57. الجلستان ١٢
58. ٢ — ٣
59. ٢ — ٢٧
60. ٢ — ٤٠
61. ٤ — ٧
62. ٥ — ٥
63. ٥ — ٤
64. ٧ — ٢٠
65. ٧ — ٤
66. ٨ — ٣١
67. ٨ — ٣٨
68. ١ — ٤
69. ٧ — ٨
70. ٣ — ٢٠

71. Browne. II, 534.
72. Grumebrum, 39.
73. Sartone, II (i), 12.
74. Ibid., 216.
75. Ibid., 27; II (ii), 632.
76. Ibid., II (i), 31.
77. Margoliourth, *Cairo*, 220.
78. Sarton, II, (ii), 1014.
79. Ibid., II (i), 51; II (ii), 668.
80. Ibid, II (i), 424.
81. Hitti, 686.
82. Sarton, II (i), 282.
83. Carrison, 136.
84. Lestrange, *Baghdad*, 104.
85. Carrison, 136; Hell, 117; Lane-Poole, *Cairo*, 34, Margoliouth, *Cairo*, 124-9, Hitti, 677.
86. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 112.
87. الغزالى
88. الغزالى (التهافت)
89. Macdonald, *Muslim, Theology*, 230.
90. Asin y Palacios, Mihuel, *Islam, and the Divine Comedy*, 273-5.
91. السعدى — الجلستان
92. Muir *Caliphate*, 146.
93. Arnold, *Painting*, 54.
94. Becker, 31.
95. Boer, 175; Duhem, P., *Le systèmedu monde*, IV, 522, 526; Macdonald, *Muslim Theology*, 250.
96. أبو بكر بن طفيل — حى بن يقظان
97. المصدر عينه
97. In Renan, E., *Averroës et l'averroïsme*, 16.
99. Sarton, II (i), 305.
100. ابن رشد
101. المصدر عينه
102. ابن رشد Gilson, E., *Reason and Revelation in the Middle Ages*, 40f.
103. ابن رشد
104. Sarton. II (i), 358.
105. ابن رشد
106. Commentary on Aristotle's *Metaphysics*, xii, in Renan, 108.
107. Commentary on Aristotle's *Physics*, viii, in Renan, 112; Duhem, IV, 549.
108. De Vaux, IV, 70.
109. Commentary on Aristotle's *De Anima*, bk. iii, in Renan, 122; Duhem, IV, 573.
110. التّهافت in Renan, 137n.
111. In Renan, 143.
112. Ibid., 146.
113. Arnold and Guillaume, 277-9; Tornay, S. C., *Averroës' Doctrine of the Mind*, *Philosophical Review*, May, 1943, 282n.; De Vaux, IV, 71; Duhem, IV, 566.
114. Bacon, R., *Opus maius*, I, 6; De Vaux, IV 87.
115. Renan, 32.
116. In Browne, II, 440.
117. Ibid., 489.
118. Pope, *Survey*, II, 1642.
119. Lestrange, *Baghdad*, 350; Browne, II, 460.
120. Cf. Arnold, *Painting*, 99.
121. Pope, *Survey*, II, 1044.
122. Burton, *Personal Narrative*, 90-2
123. Arnold and Guillaume, 166.
124. Encyclopaedia Britannica, XVIII, 339.
125. Arnold and Guillaume, 121; Pope, *Introduction*, 241; Encyclopaedia Britannica, XV, 657.
126. Dennis, Geo., *Cities and Cemeteries of Etruria*, I, 37.
127. Brone, II, 432.
128. Arnold and Guillaume, 98.

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

الفهـــرس

الكتاب الثانى ـ الحضــارة الإسلامية

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

الباب الثامن : محمد (صلى الله عليه وسلم)

الباب التاسع : القرآن (الكريم)

الباب العاشر : سيف الإسلام

الموضوع الصفحة

الباب الحادى عشر : أحوال البلاد الإسلامية

الباب الثانى عشر : الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

الباب الثالث عشر : الإسلام فى الغرب

الباب الرابع عشر : عظمة المسلمين واضمحلالهم

الموضوع الصفحة

فهرس الصور والخرائط

مقـــدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (وبعد) فهذا هو الجزء الخاص بالحضارة الإسلامية من المجلد الرابع من قصة الحضارة ، وهو المجلد المسمى « عصر الإيمان » ، وقد عانينا فى ترجمته من الصعاب ما لم نعانه فى سائر ما ترجمناه حتى الآن من أجزاء الكتاب البالغ عددها نحو عشرين جزءاً ما طبع منها وما لم يطبع . ذلك أن المؤلف قد نقل الشىء الكثير عن المؤرخين ، والأدباء والشعراء ، والعلماء ، ورجال الدين ، والفلاسفة ، والمتصوفة ، والحكماء . فليس فى الكتاب صفحة تخلو من نص منقول عن واحد من هؤلاء ، وقد يكون فى الصفحة الواحدة ما لا يقل عن عشرة نصوص . هذا إلى ما ورد فيه من أسماء هؤلاء جميعاً وأسماء مؤلفاتهم ، وبلدانهم ، وأصدقائهم ، والملوك ، والسلاطين ، والأمراء ، والوزراء الذى اتصلوا بهم ؛ وكان لابد لنا أن نرجع هذا كله إلى المصادر العربية وترجمتها الأجنبية التى نقل عنها المؤلف وأشار إلى بعضها ولم يشر إلى البعض الآخر ، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء المصادر أولا ثم عن النصوص بعدئذ .

على أن هذا ليس هو كل شىء ، فقد كانت أسماء من نقل عنهم ترد أحياناً محرفة تحريفا يتطلب تصحيحه الكثير من الجهد . وكم من نص نسب إلى غير قائله خطأ فى المراجع التى نقل عنها المؤلف ، كالأبيات التى يعزوها نقلا عن أمين الريحانى لأبى العلاء المعرى وليست هى له بل من أقوال محيى الدين بن عربى ، والتى كان علينا أن نتصل من أجلها بنيورك لنبحث فيها عن نسخة

من كتاب « رباعيات أبى العلاء » ، لأمين الريحانى لأنا لم نجده فى مصر .
وأكثر من هذا أن المؤلف ينقل فى كثير من الأحيان عن تراجم المستشرقين للكتب العربيـــة ، وهؤلاء قد يطلقون عليها أسماء غير أسمائها العربية أو يترجمونها ترجمة يصعب معها الاهتداء إليها كتسمية الجزء الأول من كتاب نفح الطيب للمقرى باسم « تاريخ الأسر الإسلامية بالأندلس » ، وكتاب « اليمينى » أو « السيرة اليمينية » باسم « تاريخ الأمير سبكتجين ومحمود الغزنوى » الذى لا توجد منه إلا نسخة مخطوطة فى دار الكتب ، تتطلب قراءتها والبحث فيها كثيراً من الجهد ، وترجمة « تذكرة الكحالين » باسم « رسالة فى الرمد » الخ .

وقد وفقنا بحمد الله إلى تذليل هذه الصعاب فصححنا ما حرف أو كتب خطأ من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب ، واهتدينا إلى النصوص من مصادرها ، وصححنا بعض الأخطاء التى وقع فيها المؤلف كخلطه بين الكندى الفيلسوف وعبد المسيح بن إسحاق الكندى الذى كتب رسالة فى الدفاع عن المسيحية عزاها المؤلف إلى الكندى الفيلسوف . وقد عاوننا فى ذلك غير قليل من العلماء والأصـــدقاء نذكرهم هنا اعترافا بفضلهم السيد الحاخام الأكبر الذى ساعدنا فى تحقيق كثير من الأسماء والنصوص العبرية فى هذا الجزء والجزء الذى يليه والذى اغترفنا من بحر علمه ما روى غلتنا فى هذا الميدان ، ومنهم صديقنا الأديب الأستاذ كامل كيلانى الحجة فى أبى العلاء الذى هدانا إلى كثير من النصوص المنقولة عنه وعن غيره من الشعراء ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور يحيى الخشاب اللذان أعانانا على تحقيق بعض الأسماء الفارسية ، والأستاذ دريني خشبة الذى ترجم لنا شعرا رباعيتين لعمر الخيام لم نجدهما فى التراجم المطبوعة فضلا عما استخرجه لنا من النصوص الأدبية الأخرى ، والأستاذ أمين الشريف الذى وفر علينا كثيراً من المشقة بالبحث عن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وأصدقاؤنا فى دار الكتب ، ومكتبة وزارة التربية الذين يسروا لنـــا

سبيل الحصول على المراجع أعظم تيسير . فلهؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر عن نفسى وعن القراء . وإذا كان قد فاتنا شىء من هذه الناحية فإنا نعتذر عنه مقدماً ونتقبل شاكرين ما يهدينا إليه القراء لنتداركه فى الطبعة الثانية إن شاء الله ، وعذرنا أننا بذلنا كل ما نستطيع من جهد للوصول إلى الحقيقة كاملة ، ونقول كما يقول ابن خلكان ، والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال : أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل ، وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه ، وفوق كل ذى علم عليم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عطائه النمير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » .

هذا وسيرى القارئ أن المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالد فى حضارة أوربا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة ، ثم هو يعتذر فى آخر هذا الجزء عن تقصيره فى هذه الناحية . وكان لا بد له أن يمهد لوصفه تلك الحضارة بفصول عن باعثها عليه الصلاة والسلام وعن القرآن والدين ، ولم تفته الإشادة بمحاسنه وفضائله . على أننا لم نشأ أن نترك هذه الفصول كما هى لما عساه أن يكون فيها من أخطاء أو سوء فهم أو نستقل برأينا فيها ، فعرضنا الأمر على الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية فعهدت إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف موسى أن يعلق على هذه الفصول فكتب التعليق القيم الوارد فى هوامشها والذى ذيل باسمه (ى) . وقد أضفنا نحن من عندنا تعليقات أخرى على هذه الأجزاء وعلى سائر فصول الكتاب ذيلناها بلفظ (المترجم) .

وكان هذا أيضاً هو رأى إخواننا أعضاء مجلس إدارة لجنة التأليف ، ونرجو أن نكون قد سلكنا فى هذا الطريق الصحيح :

ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة قبل أن نقدم جزيل الشكر مرة أخرى للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية صاحبة المشروع وأكبر عون فيه ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر ناشرة الكتاب ، والقراء الكرام فى مصر والبلاد العربية الذين شجعونا بإقبالهم على الأجزاء السابقة على مواصلة الجهد فى هذا العمل الشاق ، وفقنا الله وإياهم إلى الخير ، وهدانا الصراط المستقيم .

محمد بدران

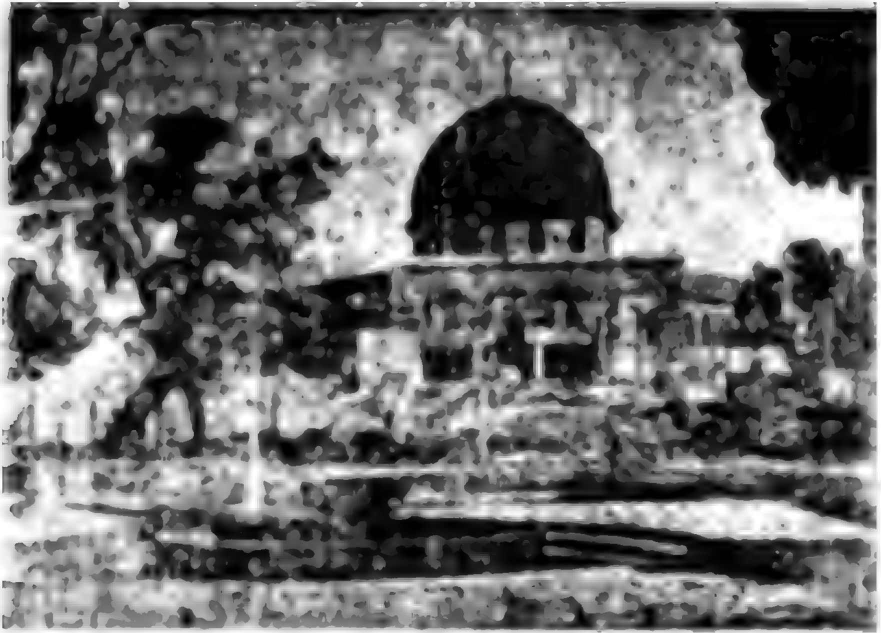

(شكل ١) قبة الصخرة فى المسجد الأقصى

شكل ٢) منبر المسجد الأقصى ببيت المقدس مصنوع من الخشب

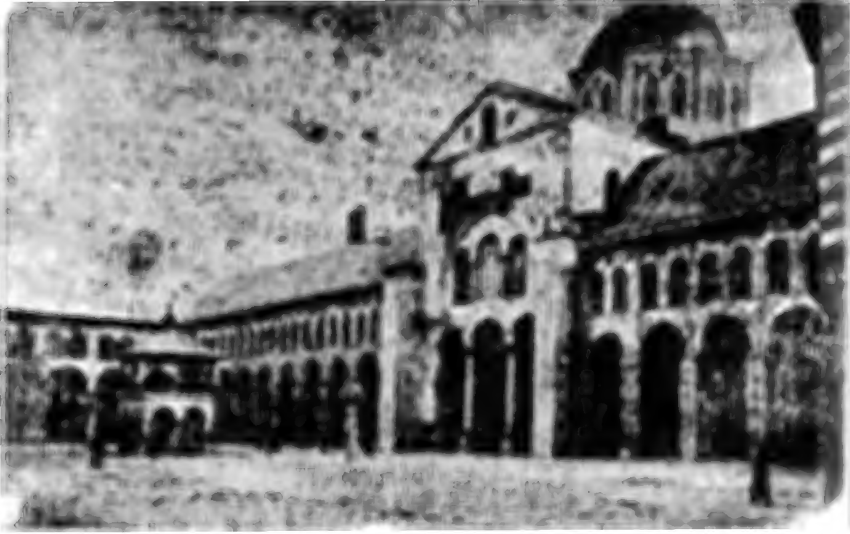

(شكل ٣) المسجد الأموى بدمشق

(شكل ٤) نقش بارز على الصخر ببلاد الشام

(شكل ٥) صحن الجامع الأزهر بالقاهرة

(شكل ٦) داخل مسجد قرطبة

(شكل ٧) بهو السباع فى قصر الحمراء بغرناطه